الإمـــارات
THE EMIRATES

مَـرَاوِد

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

العدد 54 – مايو، 2023، السنة السابعة

ملف العدد : التـراث والعصـر الاتصال والانفصال

«الـشـارقـة للتـراث» يحتفي بيوم زايد للعمل الإنساني

«الـشـارقـة للتـراث» يحتفل باليـوم العالمي للتـراث

مَـرَاوِد العدد 54 – مايو 2023، السنة السابعة

MARAWED Issue, 54, (MAR 2023), The seventh year

صـدر حديثاً

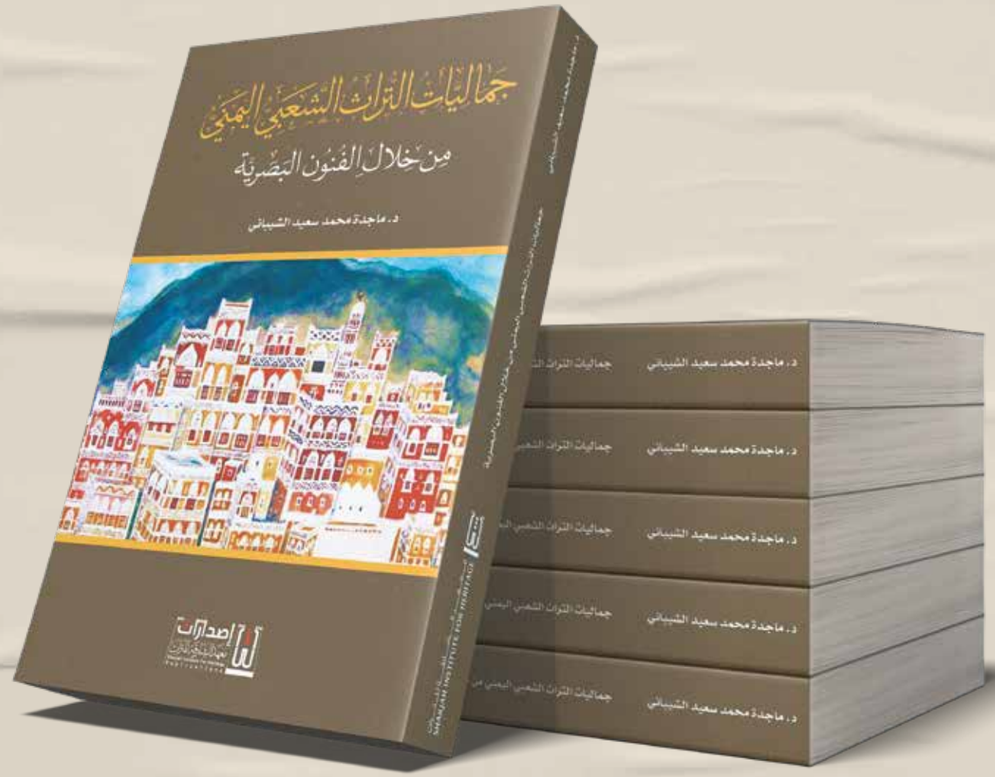

إدارة المحتوى والنشر
Content and Publishing Department
unesco
Centre
Under the auspices
of UNESCO
معهد الشارقة للتراث
SHARJAH INSTITUTE
FOR HERITAGE

مُرَاوِد

سياسة النشر

تعنى مجلة «مراود» بالتراث الثقافي الإماراتي بالدرجة الأولى، ثم العربي والعالمي، وتسعى من خلال أبوابها إلى الاضطلاع بتلك الغاية، والتركيز على موضوعات تراثية تتّسم بالجدة والموضوعية والتنوّع والشمول، ومقاربة التراث، بحثاً وتوثيقاً ودراسةً وتدقيقاً، كما تعمل المجلة على تتبّع تجليات التراث الثقافي في الأعمال الإبداعية الإماراتية والعربية من خلال الاحتفاء والتوظيف والاستحضار لمختلف عناصره ورموزه.

وتركّز المجلة على الموضوعات الثقافية والتراثية والإعلامية التي تلامس مختلف جوانب التراث الثقافي من مهن وحرف وألعاب وحكايات وأزياء وزينة وحلي وفنون وموسيقى.. وكل ما يتّصل بفروع التراث الثقافي وعناصره، محلياً وعربياً وعالمياً.

يشترط في المواد المقدّمة للنشر:

- الجِدّة والأصالة، وألا يكون سبق نشرها أو مقدّمة للنشر لدى مجلات أخرى.
- الموضوعية في الطرح والمصداقية في التناول.
- سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب.
- التوثيق العلمي وعزوُ كل قول إلى قائله.
- ألا تتضمن المواد ما ينافي المبادئ الأخلاقية والمقدسات الدينية أو يخدش الحياء، أو ينافي الذوق العام.
- ترفق مع المواد صور عالية الدقة والجودة.
- يراعى في ترتيب المواد المقدّمة للنشر الجانب الفني والموضوعي وفق رؤية هيئة تحرير المجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف في صياغة المواد، متى كان ذلك ضرورياً، لتتماشى مع سياسة النشر، ومع الطرح الإعلامي المناسب للقارئ.
- إدارة التحرير غير ملزمة بشرح أسباب رفض نشر المواد ولا إرجاعها.
- المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، وإنما عن رأي كتّابها.
- تستقبل المواد والمشاركات على بريد المجلة الإلكتروني: **marawed@sih.gov.ae**

للتواصل مع إدارة التحرير:

0097165014898

marawed@sih.gov.ae

الافتتاحية

د. عبدالعزيز المسلّم

رئيس معهد الشارقة للتراث

رئيس التحرير

التراث والعصر.. الاتصال والانفصال

التراث والعصر موضوع إشكالي، يتسم بالراهنية والتجدّد، نظراً لارتباطه الشديد بالمتغيرات الثقافية، والتطورات التقنية والتكنولوجية، وما أفرزه عصر العولمة من معطيات طرحت العديد من الأسئلة الجوهرية، حول مستقبل المعرفة والعالم، وحول موضوع الخصوصية الثقافية والهويات المتداخلة، وغيرها من الموضوعات الإشكالية التي تتجدد بين الفينة والأخرى، ما يجعل طرح هذا الموضوع وبحثه والتفكير فيه ومناقشته أموراً لا مناص منها لفهم صيرورة الأحداث والتطورات المتلاحقة، وتقديم تصورات منطقية ومعرفية حول العلاقة بين التراث والعصر في غمرة المعطيات والمتغيرات الراهنة التي ألقت بظلالها الكثيفة على حياتنا المعاصرة، وتفكير الجيل الحالي.

هذا ما نسعى إلى طرحه وتقديمه للقارئ في هذا العدد من مجلة «مراود»، سعياً إلى فهم راهن للعلاقة بين التراث والعصر، فهما صنوان متلازمان، ولبيان وجوه الارتباط والاتصال، أو القطيعة والانفصال، من خلال مجموعة من المقاربات التي تناقش هذا الموضوع من جوانبه كافة.

في العدد تطواف جميل وشائق في رحاب التراث الإماراتي، من خلال استعراض عدد من الموضوعات الغنية والمتنوّعة، حول موضوع العادات والتقاليد، والسنع الإماراتي الأصيل، بالإضافة إلى موضوعات عن الشعر النبطي والفنون الشعبية والمعالم التراثية، والأمثال والحكم وغيرها.

كما يستعرض العدد مقاربات رصينة، تدور في فلك التراث العربي والعالمي، وتبرز وجوه الاتصال والتشابه بين التراث الإنساني الذي كثيراً ما نؤكد أنه هو الذي يجمعنا مهما اختلفت بنا الدروب والاتجاهات.

المحتويات

العدد 54 – مايو 2023

مراود

الغلاف

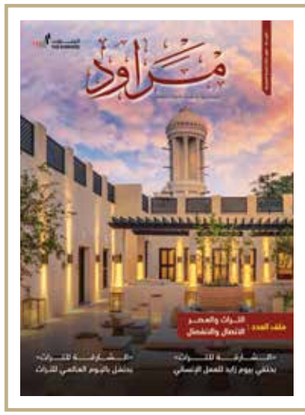

12
ملف العدد
التــراث والعصــر
الاتصال والانفصال

10
برامج وفعاليات
«الشارقة للتراث» يحتفل باليوم العالمي للتراث

78
دراسة
الشعر الشعبي والتعبير الشعوري

76
فنون شعبية
فن القادري

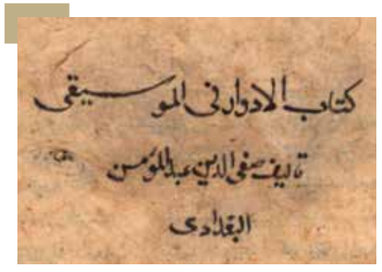

72
موسيقا الشعوب
مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ

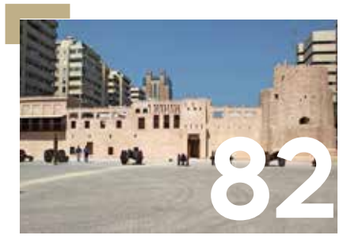

82
زاوية
جهود الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في الحفاظ على التراث التاريخي والعمراني.

88
خواطر
الكويت في الأرشيف العثماني

100
قراءة أدبية
«الموشى أو الظرف والظرفاء» كتاب للهو والعلم و «الإتيكيت»

112
-
«قصر الحصن » رمز تاريخي يسرد للأجيال نشأة أبوظبي وتطورها

92
فضاءات
حقيبة مشوار العمر

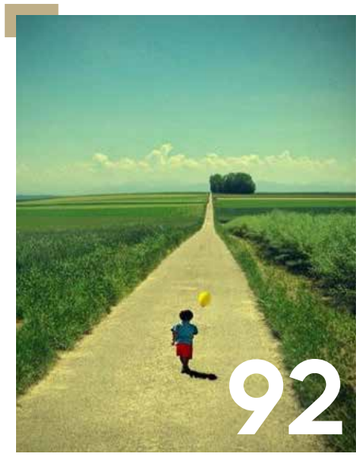

104
سوالف الهامور
«النصيحة بجمل»

96
قصة التراث الشعبي
حماية النبات والاحتفال بمواسمه

108
-
«البوتلاتش» و«الكولا».. نموذجان للهبات

116
العمارة التراثية
الفن البيزنطي من 330 إلى 1453 ميلادي

مَرَاوِد

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

رئيس التحرير
د. عبد العزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

مستشار التحرير
د. ماجد بوشليبي
كاتب وخبير ثقافي

مدير التحرير
د. منّى بونعامة
مدير إدارة المحتوى والنشر

هيئة التحرير
أ. علي العبدان
أ. عتيج القبيسي
أ. عائشة الشامسي
أ. سارة إبراهيم

سكرتير التحرير
أحمد الشناوي

التصميم والإخراج الفني
منير حمود

التدقيق اللغوي
بسام الفحل

التصوير
قسم الإعلام

صورة الغلاف: **فندق البيت بالشارقة**

حوار العدد

حلاوة اليماحي
طبيبة الوسم والخطات العشبية

124

الآراء الواردة في المقالات، والتحقيقات، والمقابلات، تُعبر عن رأي أصحابها ومواقفهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي وتوجه المجلة، ويتحمل أصحابها المسؤولية الأدبية أمام الرأي العام، والقانونية أمام الجهات المختصة.

800TURATH

+971 6 5092666
marawed_sih
www.sih.gov.ae

ISBN 978-9948-37-768-9

120

أماكن ومعالم

برج المقطع.. بوابة أبوظبي التاريخية تعانق الحداثة

إضاءة

تراث معابد أسوان يمتزج فيه المكان بالإنسان

132

128

أهمية التدوين في التراث العربي

ضوء

فنون الأداء العالمية.. تعابير متنوعة في «اليونسكو»

136

نافذة

مهرجان تشينغ مينغ

144

قصص من التراث

طائر النار

140

«الشارقة للتراث» يحتفل باليوم العالمي للتراث

نظم معهد الشارقة للتراث احتفالية متنوعة بمناسبة اليوم العالمي للتراث، بحضور الشيخ ماجد بن سلطان القاسمي، رئيس دائرة شؤون الضواحي والقرى، والدكتور عبد العزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث.

وتنوعت الاحتفالية لتشمل ندوة بعنوان «المجالس العربية»، تحدث فيها مجموعة من الباحثين في التراث، هم شيخة الجابري، وفهد المعمري، وسلطان بن غافان، وعبيد بن حامد الطنيجي، بالإضافة إلى حسن البلغوني، عضو مجلس ضاحية الرحمانية.

وقال الدكتور عبد العزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث: نعتز باليوم العالمي للتراث ونقدره، ونعتبره إحدى أهم المناسبات العالمية التي تؤكد مكانة التراث وضرورة صونه وحفظه ونقله للأجيال واستدامته، ويؤشر إلى أهمية التعاون والتنسيق العالمي في مختلف شؤون وقضايا التراث، وأن ما يجمعنا كبشر في كل الحضارات والثقافات كثير جداً، ويستوجب التركيز عليه والاحتفاء به. وقال: للاحتفال باليوم العالمي للتراث خلال شهر رمضان المبارك ميزة إيجابية طيبة، وهو تجمع إيجابي جميل، وفي هذا العام احتفلنا بالمجالس كموضوع رئيس من موضوعات الاحتفال بيوم التراث العالمي، وهو موضوع مهم، فوجودنا وحضورنا في هذا الملتقى هو مجلس، واستعراض المشاركين في الندوة عن حديث المجالس هو أيضاً من حديث المجالس، وتم تجسيد 3 مجالس، هي بريزة البدو أو الحظيرة، بيت الشعر، والمجلس النسائي، في تجسيد حي لنوعية المجالس.

وأشار إلى أن المجالس من المرتكزات الرئيسة التي تقود فيها الإمارات ملفات تسجيل عناصر التراث غير المادي في «اليونسكو»، فقد سجلت الإمارات المجالس ضمن عناصر التراث غير المادي للإنسانية فيها، وقادت دول الخليج لتنضم إلى تسجيل المجالس كعنصر مهم من عناصر التراث غير المادي في دول الخليج العربية.

«الشارقة للتراث» يحتفي بيوم زايد للعمل الإنساني

نظم معهد الشارقة للتراث في مقره، البرنامج الثقافي الاحتفائي بـ«يوم زايد للعمل الإنساني» بجلسة فكرية تستحضر مآثر الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، وجهوده الإنسانية، أدارها الدكتور منّي بونعامة، مدير إدارة المحتوى والنشر، وشارك فيها سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، والدكتور سيف البدواوي، والأستاذ عبدالله الهامور، والشاعر محمد عبدالله نور الدين. كما تضمن البرنامج إفطاراً رمضانياً لعمال المعهد ومستخدميه، وذلك تقديراً لجهودهم، وشكراً وعرفاناً على كل ما يقدمونه في خدمة المعهد ومشاريعه التراثية في كل مدن الشارقة.

«الشارقة للتراث» يشارك في مبادرة «خطار الدار»

شارك معهد الشارقة للتراث في مبادرة خطار الدار لمنتسبي دار الرعاية الاجتماعية (دار رعاية المسنين) خلال شهر رمضان المبارك.

وتضمنت المشاركة إفطاراً جماعياً مع كبار المواطنين من المقيمين في الدار، حيث تم تقديم عروض من الألعاب الشعبية، وتوزيع الهدايا لهم.

ملف العدد

التراث والعصر.. الاتصال والانفصال

العدد 54 – مايو 2023 السنة السابعة

تضمين الكلمات الأجنبية
في الشعر النبطي الإماراتي

فهد علي المعمري
باحث - الإمارات

بدأ الشعر أوّل ما بدأ عربياً محضاً، يستمد كلماته من بيئته العربية الخالصة، فكان معجماً وفير اللغة، وديوان العرب، يلوذون به ويلجؤون إليه إذا ولدت في العربية بعض الكلمات، فيكون الميزان هو الشعر، فإن كانت لهذه الكلمة أصل أو جذر أخذوها، وإن لم يكن كذلك تركوها وهجروها، ولم يلبث الإسلام أن انتشر في بقاع الأرض، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وكان من نتائج هذا الاتساع أن دخلت شعوب وأمم كثيرة في دين الإسلام، واستوطنوا أرض العرب، ومن هنا بدأت اللغة العربية تتراخى قليلاً، وتحل مكانها اللغات الدخيلة من كل أمة، فأخذتها اللغة العربية واحتوتها وأدخلتها في بنائها اللغوي، واشتقت لها الميزان الصرفي والبناء النحوي.

وبعد تقادم القرون بدأت اللغات الأجنبية تغزو اللغة العربية، وتوضح هذا الأمر جليّاً في الشعر، وبما أن الشعر النبطي في كل مكان ليس بمنأى عن الشعر العربي الفصيح، فقد تأثر أكثر من غيره في ضم هذه الكلمات في بنائه الشعري، بيد أن هذا الدخيل في اللغة ينقسم إلى قسمين رئيسين فأول هذه الأقسام هو إيراد الكلمة الأجنبية، كما هي بلفظتها الأجنبية في الشعر النبطي الإماراتي مثل كلمة كورت، وهي كلمة أجنبية تعني المحكمة ورسمتها الأصلية هي «Court»، حيث وردت بلفظها الأجنبي، ولكن بالحروف العربية، وهذا كثير، ويعود إلى انفتاح الدولة في نهاية الخمسينيات من خلال سفر المواطنين لتكملة الدراسة في الخارج، وسبب ثانٍ هو وصول شركات التنقيب إلى الدولة، ونشر لغاتها بين المواطنين الذين يعملون معهم، ومع سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، أخذت هذه اللغة تنمو وتكبر، وأصبح لها مكان واضح في الشعر النبطي في دولة الإمارات، وهذه الكلمات تنتقل إلى الشعر بلفظها الأجنبي دون التصرف بها كالتثنية والجمع؛ لأنها ليس من اللغة في شيء، أما السبب الثاني وهو المهم والأكثر انتشاراً حيث إنه دخل في اللغة، وأصبح فرداً من أسرتها، له ما لها، وعليه ما عليها، بحيث يأخذ أحكام اللغة في التثنية والجمع والاشتقاق والتصريف، مثل كلمة (تانكي) ورسمها الأجنبي «Tanki» وتعني خزان الماء، سواء صغيراً كان أو كبيراً، فتقال تانكي للمفرد، وتانكيّين للتثنية، وتوانكي للجمع، فانظر كيف أصبحت عربية محضة بهذا التصريف!

وسوف نتناول في هذا البحث الموجز الكلمة الأجنبية كما هي بلفظتها الأجنبية في الشعر النبطي الإماراتي، وشواهدها كثيرة، إلا أننا نأخذ من هذه الشواهد الدليل على وجود هذه الكلمات الأجنبية، وكيف تصرف الشعراء بها في أشعارهم، وكيف وظفوها مع اللغة العربية، إضافة إلى الكلمات التي عرّبت، وأصبحت جزءاً من اللغة التي يتحدث بها أهل الإمارات.

hospital

كلمة إنجليزية وتعني المستشفى، وقد غيرت الكلمة بعض الشيء وعرّبت إلى اللغة العربية وأصبحت تنطق (سبيتار)، وهكذا عرفت وانتشرت وأصبحت لا تنطق إلا سبيتار.

يقول الشاعر محمد الكوس:

وكم سبيتار بْجسر عالي وكم عيادة في مغانيها

ويتابع الشاعر أحمد الكندي في الكلمة نفسها فيقول:

يا حيّ من ياني زيارة وآنا مرقّد ف السبيتار

ويقول الشاعر غانم بن راشد القصيلي:

م تْعرْف هذى مدرسة لو سبيتار
مناظرِ تشْخيصها ما مثيله

fish

كلمة إنجليزية تعني السمك، ولم تعرّب، وقد ذكرها الشعراء في الشعر النبطي الإماراتي، لاسيّما الذين أخذوا من ألفاظ البحر، وعرفوا بشعراء البحر، وهناك كلمة أخرى جاءت بحروف عربية، إلا أن الكلمة تعود إلى أصلها الفارسي، وهي كلمة الماهيه ـ على وزن هاويه الذي ينقل الماء. يقول الشاعر حميد بن ذيبان:

نبتة ثرانا غاف حميّض وارطاه
لو أقرب الماهيه نستقرب الفش

camp

كلمة إنجليزية وتعني المخيّم، سواء المخيّم الحربي أو المخيّم الخاص بعمل ما، مثل العاملين في استخراج النفط، ولم تعرب بل دخلت إلى العربية بلفظها الإنجليزي، وبحروف عربية.

يقول الشاعر عمير بن حيّي الهاملي:

يا مرحبا بامبّش الخط بالعنوان
على عدّ ما تنشر من الكم كوليّه

ويقول الشاعر أحمد الكندي، وقد كثر الدخيل في شعره، وامتلأ به ديوانه، وذلك لأنه عمل لدى الإنجليز كثيراً، وقد عمل أيضاً في أحد المخيمات الخاصة بهم، فكانت لغتهم رافداً فكرياً له، ووظف الكثير من هذا الدخيل في أشعاره:

جينا من الكم الجنوبي من ليوا
في جيب للشركة أبو حيبٍ قصير

Court

كلمـة إنجليزيـة وتعنـي المحكمـة، وعرّبـت إلى (كـورت)، وتـم تداولهـا بهـذا الرسـم.

يقول الشاعر راشد الخضر:

دعواك تبغي كورت فْريز　　بين المعلْعلْ والغرابي

yes

كلمـة إنجليزيـة بمعنـى (نعـم)، يقـول الشـاعر ماجـد بـن عـلي النعيمـي:

لـو تصبر اكليـز عـن ييس　　ما ظّن أنا أصْبر عن حبيبي

Soldier

كلمـة إنجليزيـة وتعنـي الجنـدي، وقـد عرّبـت إلى اللغـة العربيـة، وأصبحـت تنطـق سـوجر، ووردت في مواضـع عديـدة في الشـعر النبطـي في دولـة الإمـارات، كـما وردت في الأمثـال، وأيضـاً في أنـواع الملابـس، فهنـاك ملابـس للنسـاء تسـمى «سكة السـوجر»، أيضاً معربـة مـن الإنجليزيـة، وتعنـي العملـة النقديـة الأجنبيـة.

يقول الشاعر سعيد الشمّام:

ما يباها سكّة السـوجر　　يبغي مخوّر بو الجناية

funch

كلمـة إنجليزيـة، وتعنـي إنهـاء خدمـة الموظـف مـن العمـل، وعرّبـت إلى العربيـة، وأصبحـت تنطـق فنـش، وتقـال عنـد إنهـاء خدمـة الموظـف بأنـه فنـش، وقـد تـم تفنيشـه أو هـذا فـلان امْفنّـش بألفـاظ عـدة.

يقول الشاعر أحمد الكندي:

يسقى يلي ياني الفنش من عند انتربوز

فـلاني بمتْحسّـف ولاني بكـرهـاني

وكلمـة إنتربـوز هـي اسـم لشركـة بـترول في منطقـة بوحصـا، وتقـع في منطقـة الظفـرة شرق مدينـة زايـد، وكان الشـاعر يعمـل في هـذه الشركـة.

spear

كلمـة إنجليزيـة وتعنـي الاحتيـاط، وقـد عربّـت إلى العربيـة بلفظـه الإنجليـزي وبرسـم اللغـة العربيـة، واسـتعملت كثـيراً حتـى إنهـا غلبـة عـلى كلمـة الاحتيـاط العربيـة الأصـل.

يقول الشعر أحمد الكندي:

ون ما حصل هذا على قاطع الأرماس

بـو حـايبٍ ممـدود واسـبيره ثنينـي

Cash

كلمـة إنجليزيـة، وتعنـي دفـع المبلـغ كامـلاً بشـكل نقـدي، وليـس مؤجـلاً عـن طريـق الأقسـاط أو عـن طريق الشـيكات، وقـد عرّبـت بلفظهـا الإنجليـزي وبرسـم عـربي هـو (كاش).

يقول الشاعر محمد بن يعروف:

جديد وخذ من معرضه يالخوي بالكاش

يقـص الـرمـال العـالية والمـلاييني

ويقول الشاعر راشد بن عبلان:

بالكـاش والاّ بـالكفـالـةْ　　خذ السلف م البنك ديّان

وبعـض الكلـمات الأجنبيـة التـي تـم تعريبهـا ودخلـت إلى اللهجـة المحليـة في دولـة الإمـارات مـع بقـاء الكلمـة كـما هـي، أو دخـول بعـض التحريـف، وهـذا قسـم، وهنـاك قسـم آخـر هـو الكلـمات الهنديـة والفارسـية والتركيـة التـي أدخلهـا الشـعراء إلى اللهجـة المحليـة كـما هـي دون تحريـف، ونذكـر هنـا بعـض هـذه الكلـمات عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر:

بايـاه

هنديـة وتعنـي الانـدهـاش، لدرجـة عـدم التمكـن مـن الإدراك، وقـد أدخـل شـعراء الإمـارات الكثـير مـن اللغـة الهنديـة في أشـعارهم النبطيـة، وذلـك لكـثرة أسـفارهم إلى الهنـد؛ بسـبب التجـارة والعـلاج.

يقول الشاعر ربيع بن ياقوت:

رحّـب وقـال تْفضّـل يْـلـس　　بسّ اندهشت وْقلت بـاياه

أچّاه ـ چيه

بالجيـم الفارسـية صاحبـة النقـاط الثـلاث مـع تشـديدها وفتحهـا، ومعناهـا في اللغـة العربيـة كـما نقـول: إن شـاء الله، وكلمـة چيـه ـ عـلى وزن كلمـة فيـه ـ تعنـي في اللغـة العربيـة (نعـم).

يقول الشاعر ربيّع بن ياقوت:

كل مـا زقرته قـال جيـه　　يثني عليّه بْكلمة أجّاه

بچّاه

بالجيـم الفارسـية صاحبـة النقـاط الثـلاث مـع تشـديدها وفتحهـا، ومعناهـا في اللغـة العربيـة الطفـل الصغـير.

يقول الشاعر ربيّع بن ياقوت:

خايف على طرفي يبكّيه　　وصيح مثْل صْياح بچّاه

خُدَا قَسَم

هنديـة، وهـي مركبـة مـن كلمتـين، الأولى خُـدَا بمعنـى اللـه، والأخـرى قسـم، ومعناهـا القسـم، وبالتـالي فـإن معناهـا في اللغـة العربيـة (قسـماً باللـه).

يقول الشاعر ربيع بن ياقوت:

أنـا حمـد عنـدي لك اخبـار　　خدا قسم ما به حكي زور

باغ

فارسية وتعني البستان أو المزرعة.

يقول الشاعر يعقوب الحاتمي:

زرعْت ف فْنون الهوى باغ　　بسـتـان متفنّـق ف لـبْـلـوغ

بازار

هندية وتعني السوق.

يقول الشاعر محمد المطروشي:

كنّي بتخت الملك في راس مقصور

فـي بنقلـه ولاّ مـن الهنـد بـازار

جوكم

وتعنـي الخطـر، وفيهـا روايـة تقـول: إن العـمال في شركـة نفـط البحريـن (بابكـو)، حـين يجلسـون للراحـة أثنـاء العمـل، يكـون واحـداً منهـم واقفـاً للمراقبـة، وحـين يـأتي الإنجليـزي مشـرف العمـل، وكان اسـمه جوزيـف، واختصـاره (جـو)، يـصرخ عليهـم المراقـب (جـو كـم) أي (جـو قـادم)، وتعنـي تفرقـوا الخطـر قـادم، ومـن هنـا تطلـق كلمـة (جوكـم) لـكل شيء فيـه خطـورة.

يقول الشاعر خافان بن يدعوه:

أقصى الهجر ساعة فلا يوز　　لـو مـا عليّـه جـوكم المـال

ويقول الشاعر محمد الكوس:

والروح في جوكم خطركم　　ف أكبر خطـر وكْبر بليّـات

الديوان

فارسية وتعني الدفتر أو السجل.

يقول الشاعر محمد الكوس:

يا حسـرتي مـا يـاني وْوفـاق

أسمي من الديوان مشقوق

كولونيا

وتعنـي العطـر، وهـو العطـر المنسـوب إلى مدينـة كولونيا الألمانية.

يقول الشاعر غانم راشد القصيلي:

ريحة الكيلون لي نـاسب ريـح غْـرقـه

ولا لقيت إلها مناسب على الدنيا مثيل

آغا

تركيّة وتعني السيّد صاحب الأمر.

يقول الشاعر سالم الجمري:

مثل م العبد سمّى الحرّ عمّه

بقـول التـرك بـزقـرهـا آغـاتي

النوخذا

فارسـيّة، وأصلهـا الناخـداه أو ناوخـدا، وتعنـي مالـك السـفينة، عرّبـت إلى نوخـذا، والجمـع نواخـذة، واسـتعملت كثـيراً في الشـعر النبطـي الإمـاراتي.

يقول شاعر مجهول:

شابكن بالفرض باصلي　　يوم قال النوخذا شيره

ومـن خـلال هـذه الكلـمات القليلـة نستطيع أن نـدرك مـدى أهميـة التـمازج اللغـوي في تـراث لغـة دولـة الإمـارات، التـي أخـذت مـن غيرهـا مـن اللغـات، وأعـادت توظيـف هـذه الكلـمات في شـتّى مناحـي اللغـة، عـن طريـق الشـعر والأمثـال والقصـص والسـرد، لتؤكـد أن اللغـة كائـن حـيّ يؤثـر ويتأثـر بمـا حواليـه مـن اللغـات، ومـا جئنـا بـه هـو شيء موجـز وقليـل، وجـاء عـلى سـبيل الاستشـهاد، وإلا فالشـواهد كثـيرة، قـد امتـلأت بهـا بطـون الدواويـن الشـعرية، وصـدور الشـعراء، وتتبعـه يسـتلزم الوقـت والأنـاة والرويّـة، وعـدم الاسـتعجال؛ لأنـه يشـكل تاريخـاً وأدبـاً مقارنـاً بـين دولـة ودول كثـيرة.

التراث والعصر

د. سالم زايد الطنيجي
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

في اعتقادي سوف تصمد قيم التراث التقليدية والثقافية في وجه التطور الراهن، والتسارع التكنولوجي الكبير، ويمكن أن تكون هذه القيم محوراً للتنمية المستدامة في العديد من البلدان.

فقيم التراث التقليدي تمثل جزءاً أساسياً من الهوية الثقافية للبلدان والمجتمعات، وتساعد على تعزيز الانتماء الوطني والاجتماعي، وتعزيز الحوار بين الثقافات. وتعتبر هذه القيم مصدراً للتفاعل والتعلم المتبادل بين الأجيال، وتساعد على تطوير التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية المستدامة والمتوازنة.

علاوة على ذلك، فإن الاهتمام بالتراث التقليدي والحفاظ عليه، يمكن أن يساعد على تطوير السياحة المستدامة، وذلك من خلال تعزيز السياحة الثقافية والتاريخية، وتشجيع الزوار على التعرف إلى تراث البلدان والثقافات المختلفة.

وبالتالي، يمكن أن تلعب التكنولوجيا الحديثة دوراً إيجابياً في تعزيز القيم التراثية، عبر استخدامها في توثيق ونشر المعلومات حول التراث التقليدي والحفاظ عليه، وتعزيز التفاعل والتعلم المتبادل بين الثقافات والأجيال.

وفي النهاية، يجب العمل على تحقيق التوازن بين التكنولوجيا والقيم التراثية، وتعزيز الحوار والتفاعل المتبادل بين الثقافات والأجيال، وتعزيز الحفاظ على التراث التقليدي، وتنميته بشكل مستدام، مع توفير الفرص للاستفادة من التطور التكنولوجي والاستفادة منه في خدمة القيم التراثية، وتحقيق التنمية المستدامة والمتوازنة للمجتمعات. وعليه، يتعين على المجتمعات والحكومات العمل بشكل جماعي لتحقيق هذا الهدف، وتعزيز التعاون والشراكة بين الأطراف المختلفة، وتبني نهج شامل ومتكامل يجمع بين التقنية والثقافة والتراث التقليدي.

والعادات والتقاليد هي القيم الثقافية التي تم توريثها من جيل إلى جيل، وتشمل العادات الغذائية والملابس والاحتفالات والتصرفات الاجتماعية. وتلعب العادات والتقاليد دوراً مهماً في تعزيز الانتماء الثقافي والهوية الوطنية، حيث يمكن أن تساعد على إيجاد شعور بالاتحاد والتضامن بين الأفراد. مع ذلك، قد يواجه بعض الناس صعوبة في تقبل بعض العادات والتقاليد، بسبب تغيرات في الأنماط الحياتية والتكنولوجيا والعولمة. وقد يتبنى الناس عادات دخيلة، وهي العادات التي تأتي من خارج الثقافة، وقد تتماشى مع أسلوب الحياة الحديثة أكثر. يعتبر الاختلاف بين العادات الدخيلة والتقاليد المحلية أحياناً مصدر للتوتر والصراعات في المجتمعات، حيث يمكن أن تؤدي العادات الجديدة إلى انحراف الشباب عن القيم التقليدية. ومن الجوانب الإيجابية للعادات الدخيلة أنها قد تساعد على تطوير الاقتصاد والتجارة والسياحة، وتحسين العلاقات بين الثقافات المختلفة.

بشكل عام، العادات والتقاليد هي جزء لا يتجزأ من الثقافة والهوية الوطنية، ويجب الاحتفاظ بها وتقديرها. ومن المهم أيضاً الاهتمام بتطوير العادات الجديدة، والتكيف مع التغيرات الحديثة في الحياة،

وذلك بحيث يتم الحفاظ على التوازن بين الحفاظ على التراث وتطوير المستقبل.

وعندما يتم تبني العادات الدخيلة، يجب التأكد من أنها لا تتعارض مع القيم والمبادئ التي تتمسك بها المجتمعات المحلية. يجب أن يتم تعلم وفهم الثقافة والتقاليد الأخرى بشكل جيد؛ لتجنب أي تبعات غير مرغوبة. ومن المهم أيضاً الحفاظ على التنوع الثقافي وتقبل الاختلافات والتنوع في الثقافات.

ومن الجدير بالذكر أن العادات والتقاليد قد تختلف من منطقة إلى أخرى حتى داخل البلد نفسه، وتتأثر بالعوامل الاجتماعية والدينية والاقتصادية والجغرافية. ومن الضروري أن يتم تقدير هذا التنوع وتعزيزه، وتشجيع الناس على تعلم العادات والتقاليد الجديدة والمحلية والدخيلة.

بشكل عام، العادات والتقاليد والعادات الدخيلة تلعب دوراً مهماً في تشكيل الهوية الثقافية والوطنية، ويجب الاهتمام بالحفاظ عليها وتطويرها. ويجب أن يتم التعامل مع العادات الدخيلة بحذر، وتقبلها إذا كانت تتوافق مع القيم والمبادئ المحلية، وعلى النحو نفسه، يجب الحفاظ على التقاليد المحلية وتطويرها، بحيث تتوافق مع التغيرات الحديثة في الحياة.

تختلف اللهجات العربية المحلية عن بعضها بعضاً، وتشكل جزءاً من الهوية الثقافية لكل منطقة أو بلد. وتعتبر اللهجات المحلية عادة مرتبطة بالتقاليد والعادات المحلية، وتعكس طريقة تفكير وحياة الناس في تلك المنطقة. وتعتبر اللهجات المحلية عادة عاملاً موحداً للناس في تلك المنطقة.

ومع ذلك، قد يؤدي التعرض للعادات الدخيلة إلى تغيير اللهجات المحلية، فقد تؤدي العادات الدخيلة إلى تغيير طريقة التفكير والحياة في المنطقة، وبالتالي تغيير اللهجة المحلية. وقد يؤدي هذا التغيير إلى فقدان بعض العناصر الثقافية الأصلية للمنطقة.

على الجانب الآخر، يمكن أن تؤدي العادات الدخيلة إلى إثراء اللهجات المحلية وتحسينها. فقد تؤدي التقاليد الجديدة إلى إضافة كلمات جديدة أو أساليب تعبيرية جديدة إلى اللهجة المحلية، مما يمكن أن يؤدي إلى تحسين التواصل والتفاهم بين الناس في تلك المنطقة. بالنسبة للعادات الدخيلة، فإنه يمكن أن تؤدي إلى تغيير التقاليد المحلية أيضاً. وقد تكون بعض العادات الدخيلة غير متوافقة مع التقاليد المحلية، وتؤدي إلى تغييرها أو تضعفها. ومن ناحية أخرى، يمكن أن تساعد العادات الدخيلة على إثراء التقاليد المحلية وتعزيزها، ولكن يجب التأكد من أنها تتوافق مع القيم والمبادئ المحلية، ولا تؤدي إلى إضعافها.

بشكل عام، يجب أن يتم التعامل مع اللهجات المحلية والعادات المحلية والعادات الدخيلة بحذر واحترام للتنوع الثقافي واللغوي، وعدم التأثير فيها بشكل سلبي. ويمكن أن يكون التعرف إلى العادات والتقاليد الأصلية والمحلية للمنطقة، وتوثيقها والحفاظ عليها، أمراً مهماً للحفاظ على التنوع الثقافي واللغوي.

بشكل عام، يمكن القول إن اللهجات المحلية والعادات المحلية تشكل جزءاً مهماً من الهوية الثقافية للمجتمعات، ويجب الحفاظ عليها واحترامها. ومع ذلك، يجب أيضاً الاعتراف بأن التعرض للعادات والتقاليد الدخيلة يمكن أن يساعد على إثراء وتحسين اللهجات المحلية والتقاليد المحلية، ما لم يؤدِ ذلك إلى تغيير أساسي في الهوية الثقافية للمنطقة.

علاوة على ذلك، يمكن للعادات الدخيلة أن تكون فرصة للتفاعل والتبادل الثقافي بين مختلف المجتمعات، وتعزيز الفهم المتبادل والتعايش السلمي بينها. ومن هذا المنطلق، يجب التأكيد على أن العادات والتقاليد الدخيلة ليست بالضرورة سلبية أو تهديداً للهوية الثقافية المحلية، ولكن يجب التعامل معها بحكمة واحترام لضمان استفادة المجتمع منها دون المساس بالثقافة المحلية.

وفي النهاية، يجب علينا جميعاً التفكير بشكل أكبر في التنوع الثقافي واللغوي، والعمل على الحفاظ عليه واحترامه، والتعرف إلى العادات والتقاليد المحلية والدخيلة على حد سواء، والاستفادة منها دون المساس بالهوية الثقافية للمجتمعات.

وفي هذا السياق، يمكن للتعليم والتثقيف أن يلعب دوراً مهماً في تعزيز الوعي بالتنوع الثقافي واللغوي، وتعزيز الاحترام المتبادل بين المجتمعات. ويمكن أن يتضمن ذلك تدريس اللهجات المحلية والتعرف إلى العادات والتقاليد المحلية، بالإضافة إلى توفير المزيد من الفرص للتفاعل بين المجتمعات المختلفة.

وبشكل عام، يجب السعي للحفاظ على التنوع الثقافي واللغوي واحترام العادات والتقاليد المحلية والدخيلة على حد سواء، وتعزيز التفاعل والتبادل الثقافي بين المجتمعات، بحيث يمكن تحقيق التنمية الثقافية

والاجتماعية والاقتصادية في المنطقة وفي العالم بأسره.

ويجب علينا أيضاً الاعتراف بأن العادات والتقاليد واللغات تتغير بمرور الزمن، ويمكن أن يتغير الاهتمام بها أو تركها بشكل تدريجي. ومن هنا، يجب التفكير في تعزيز الحفاظ على العادات والتقاليد المحلية واللغات الأصلية بطرق جديدة، وإيجاد وسائل لتطويرها وجعلها جزءاً من الحياة اليومية للمجتمعات، وتعزيز الوعي بأهميتها وإسهامها في تحديد هوية المجتمع وتميزه.

وفي النهاية، يمكن أن يحمل التنوع الثقافي واللغوي قيماً كبيرة في التعلم والتطوير الشخصي، ويمكن أن يشكل جزءاً من الثقافة العالمية والتفاعل الثقافي. ولذلك، يجب علينا جميعاً العمل على تعزيزه والحفاظ عليه واحترامه، وتعزيز التفاعل والتبادل الثقافي بين المجتمعات، وتحقيق التنمية الشاملة والمستدامة في جميع أنحاء العالم.

وفي هذا السياق، يمكن أن تلعب وسائل الإعلام دوراً مهماً في تعزيز الوعي بالتنوع الثقافي واللغوي، وتعريف الجماهير بالعادات والتقاليد المختلفة في المجتمعات، وتشجيع التفاعل والتبادل الثقافي بين المجتمعات المختلفة.

كما يمكن للحكومات والمؤسسات الدولية أن تعزز دور الترجمة والترجمة الآلية في تسهيل التواصل بين الثقافات واللغات المختلفة، وتشجيع استخدام اللغات المحلية في التعليم والحياة اليومية، وتوفير الدعم والموارد للمجتمعات الأصلية، والمحافظة على التنوع اللغوي والثقافي.

وفي النهاية، يجب علينا جميعاً أن نعمل معاً لتحقيق التنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في المنطقة، وفي العالم، من خلال تعزيز الوعي بالتنوع الثقافي واللغوي، واحترام العادات والتقاليد المحلية والدخيلة، وتعزيز التفاعل والتبادل الثقافي بين المجتمعات المختلفة، بما يحقق التعايش السلمي والتقدم الشامل.

تتنوع المعالم السياحية والسياحة بشكل كبير في العالم، وتشمل المعالم التراثية والمعالم العصرية. تحظى المعالم التراثية بشعبية كبيرة بين السياح؛ لأنها تعكس الهوية الثقافية والتاريخية للمنطقة، وتحمل قيماً تراثية وتاريخية تجذب الزوار. وتتضمن هذه المعالم الآثار والمدن التاريخية والمعابد والكنائس والقلاع والقرى التقليدية والحدائق والمتنزهات والمتاحف والمعارض الفنية وغيرها.

بالمقابل، تتميز المعالم العصرية بالحداثة والتكنولوجيا والإبداع، وتجذب الزوار بتصميماتها المميزة والجذابة، والتي تتضمن المباني الحديثة والجسور وناطحات السحاب والملاعب الرياضية والمراكز التجارية وغيرها. وعلى الرغم من تفاوت الاهتمام بين المعالم التراثية والمعالم العصرية، إلا أن كلاهما يحتوي على قيمة كبيرة في السياحة والتراث والهوية الثقافية للمجتمعات، وتستطيع كلاهما جذب الزوار وتشجيع السياحة.

ويمكن أن تكون المعالم العصرية فرصة لتطوير الاقتصاد والسياحة في المنطقة، وتوفير فرص العمل للمجتمعات، كما أنها تعكس الرؤية الحديثة والتطور المعماري في المنطقة. بينما تعمل المعالم التراثية على الحفاظ على التراث الثقافي والتاريخي للمنطقة، وتسهم في تعزيز السياحة الثقافية.

ومن المهم أن يتم الاهتمام بكل المعالم، وتطويرها بشكل متوازن وتنظيم الزيارات السياحية بالتأكيد، من المهم جداً، حيث إنهما يعتبران من أهم الموارد السياحية في أي بلد. يمكن تحقيق ذلك من خلال توفير الدعم الكافي للمعالم السياحية، وتحسين خدماتها، بما في ذلك تدريب وتأهيل العاملين فيها، وتحسين البنية التحتية المرتبطة بها.

كما يجب أن تكون الزيارات السياحية منظمة بشكل جيد ومتوازن، حيث يتم توفير برامج سياحية شاملة ومتنوعة تلبي احتياجات السياح المختلفة. كما يمكن تنظيم الزيارات السياحية، بشكل يضمن الحفاظ على المعالم السياحية وحمايتها، بما في ذلك التوعية بأهمية المحافظة على التراث الثقافي والتاريخي للبلد.

والخدمات السياحية عبر الإنترنت، ويمكن أن تساعد التكنولوجيا الحديثة على تعزيز تجربة السياح، وتحسين جودة الخدمات المقدمة لهم، مثل استخدام التطبيقات الذكية والوسائط المتعددة لتوفير معلومات مفصلة عن المعالم السياحية وطرق الوصول إليها.

وفي النهاية، يجب على الحكومات والمؤسسات السياحية العمل على تعزيز الوعي بأهمية المعالم السياحية والحفاظ عليها، وتشجيع المسؤولية المجتمعية للمواطنين والزوار في هذا الصدد. فالمحافظة على المعالم السياحية وتطويرها بشكل مستدام يمثل مصلحة الجميع، ويساعد على تعزيز السياحة والتنمية الاقتصادية في البلدان.

علاوة على ذلك، يجب توفير الحماية القانونية للمعالم السياحية، وذلك بإقرار القوانين واللوائح التي تحظر أي نوع من أنواع التدمير أو التشويه للمعالم السياحية، سواء كان ذلك عن طريق التعديات أو التلوث أو أي نشاط يمكن أن يؤثر سلباً في المواقع الأثرية والتاريخية.

كما يجب توفير التمويل الكافي للمعالم السياحية، وذلك بتوجيه الاستثمارات اللازمة لتطويرها، وتحسين خدماتها، وتعزيز الجودة والتميز في الخدمات المقدمة للسياح. ويمكن تحقيق ذلك من خلال التعاون بين الحكومة والقطاع الخاص والمجتمع المحلي، وتشجيع الاستثمارات الخاصة في مشاريع سياحية مستدامة.

وفي النهاية، يجب العمل على تحقيق التنمية المستدامة للسياحة والمعالم السياحية، وذلك بتحقيق التوازن بين الاحتياجات السياحية وحماية البيئة والتراث الثقافي والتنمية المجتمعية. ويجب توعية الزوار بأهمية المحافظة على البيئة والثقافة المحلية، وتشجيعهم على المشاركة في العمل التطوعي للحفاظ على المعالم السياحية وتطويرها بشكل مستدام.

إشكالية العلاقة بين التكنولوجيا الذكية والموروث المجتمعي

د. عادل الكسادي
باحث ومحاضر
بمعهد الشارقة للتراث

مرّت المجتمعات البشرية في تطورها التاريخي بمراحل تطورية عدة، من اختراعات وابتكارات وأساليب إنتاج، وعقائد وفنون ونظم معرفية واجتماعية، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من تغيرات سريعة، إثر الثورة الصناعية الرابعة وما بعدها، المتمثلة في ثورات الاتصالات وأساليب الحياة الذكية وأجهزتها الإلكترونية التي تعتمد في أدواتها وتقنياتها على أجهزة بالغة التطور، وشديدة التعقيد.

وأصبحت كفاءة المجتمعات تقاس بمدى كفاءة شبكة اتصالاتها، بعد أن باتت هذه الشبكة بمنزلة الجهاز العصبي للمجتمع، ومن دونها تتفكك أوصاله، ومن ثم تتعذر عملية توجيهه وحشد قدراته. كما أصبحت نظم الاتصالات أهم عناصر البنى التحتية في عالم اليوم، وأصبح مدى كفاءتها أهم مؤشر لقياس مدى جاهزية المجتمع لدخول عصر اقتصاد المعرفة، وهي بلاشك أهم ملامح العصر المعولم في عصر ما بعد الحداثة أو الحداثة العالية.

وقد حققت التطورات التكنولوجية التطبيقية قفزات هائلة، ذلك أنه من الجيل الثاني من التطبيقات الأكثر حداثة وثورية في تكنولوجيا الاتصال، والتي تنطلق من تمكين المستخدم ليس فقط من التفاعل مع المواد المطروحة على مواقع الإنترنت، وإنما أيضاً هي تفسح له في المجال لتطويرها أو تعديلها أو عرضها لكل المستخدمين، والمشاركة في صياغتها، هذه الخاصية أعطتها بعداً تشاركياً، سمح للفاعلين بإنشاء مواقع تتيح للجميع إمكانية صياغة محتواها وبنائه؛ أي أنها أصبحت مصنعاً للمواد التفاعلية، تغير معها دور المستخدم من «زبون» مستهلك لمحتوى المعروض في المواقع، إلى «مشارك»، أو بصيغة أخرى تحولت هذه المواقع إلى مصنع للمواد التفاعلية، تغير معها دور المستخدم إلى «شريك».

إن التكنولوجيا وحدها لا تكفي من حيث الأثر الاجتماعي الذي تحدثه على منظومات العلاقات الاجتماعية والموروث المجتمعي، فلابد من التمييز هنا بينها كتقنيات وتطبيقات متاحة، وبين استخدامها وشحنها بالمحتوى، الذي هو أهم من التكنولوجيا نفسها في إحداث الأثر، لقد وجد دائماً في كل تجارب التغيير، وفي كل الثورات والانتفاضات عبر التاريخ، أدوات للفعل وللتواصل بين القادة والنخب والمجتمعات، لكن الفرق الجوهري بين ما كان يحدث في الماضي وما يحدث اليوم، هو أن التقنيات قد أتاحت للمتواصلين الزخم والسرعة، فالفرصة ليست متاحة أمام النخبة فقط لتشبيك المعلومات والأفكار والتجارب ونقلها بسرعة، ولكنها أيضاً متاحة لكل الأفراد بصفتهم مواطنين، لمخاطبة بعضهم بعضاً، ومساءلة القادة والمسؤولين.

وكما نعرف في علم الديالكيك تلك العلاقة الجدلية بين التطور التقني والتطور الثقافي، بدأ تأثير الثورة الرقمية في سائر النشاط الإنساني، وفي العادات والتقاليد، وصاحب كل تلك التغيرات التقانية تغيرات في نمط حياة الإنسان وطريقة عيشه، ونمط مستحدث لأساليب التواصل الاجتماعي، كما صاحب استخدام تلك الأجهزة الذكية بروز مشكلات اجتماعية، كضعف وشائج الترابط الاجتماعي، وفتور العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة، كما تظهر أحياناً كثير من الخلافات الزوجية، نظراً للاستخدام المفرط لتلك الأجهزة، وانشغال الزوج أو الزوجة بالتواصل مع زملائه وأصدقائه ومجموعات التواصل الاجتماعي، وإهمال الزوج أو الزوجة واجباتهم والتزاماتهم الأسرية، وكذلك الأخطاء التي تتم ممارستها بين الأزواج في وسائل التواصل الاجتماعي.

إن التكنولوجيا الرقمية هي نتاج عقول شركات عالمية، لها أهدافها وغاياتها، ولا شك فإن من ضمن تلك الغايات التأثير في العقول والمعتقدات ومنظومة القيم بما فيها العادات والتقاليد، وكذلك التأثيرات العميقة التي تحدثها عبر العمليات النفسية والإعلامية المتطورة، وهذا أمر بدهي؛ فالشركات والجهات المخططة والمصنّعة لها سياساتها وأهدافها التي لا يدركها الإنسان المستهلك والمستخدم لكل تلك الابتكارات والتقانات الحديثة في شتى مجالات الحياة. والتكنولوجيا بشكل عام، والمرقمنة على وجه الخصوص، تعتمد على الآلة أكثر من اعتمادها على الإنسان، وهو الأمر الذي يؤدي إلى ضعف العلاقات الاجتماعية، بما تشمل من العادات والتقاليد، ومنها ضعف الأدوار الأسرية التي تقوم بها الأسرة في عمليات التنشئة الاجتماعية. وربما يؤدي الانفتاح غير العقلاني على التكنولوجيا الذكية إلى تهديد الموروثات المجتمعية، وهنا تأتي أهمية الدور الذي تقوم به الأسرة والمؤسسات التربوية والإعلامية في القيام بدورها الأخلاقي والتربوي، ولا ننسى أن أجهزة الذكاء الإلكتروني التي باتت تستخدم على نطاق واسع لها مقومات إيجابية، تمكن الاستفادة منها في تعزيز العلاقات الاجتماعية، ونشر الممارسات الإيجابية.

إن تقانات العصر الرقمية الراهنة أصبحت تفرض نفسها بقوة داخل مؤسسات المجتمع الثقافية والاجتماعية، وفي الوقت الذي أصبح إدخال تلك التقانات في مجالات الحياة المختلفة أمراً لا مناص منه لإحداث التغيرات الهيكلية لمصلحة التطور الصناعي والتقني، فإنه من الطبيعي بالتوازي مع تلك العملية العمل لحفظ الهوية، وتعزيز عناصر الموروث الثقافي لدى الأجيال بشتى الأساليب والسبل التعليمية والثقافية والترفيهية، وترسيخ حضورها في ظل تحديات العالم الرقمي، والمطلوب هو الحرص على إدخال الحداثة بإدخال تقانات العصر، جنباً إلى جنب مع التمسك بموروثنا الثقافي والاجتماعي على حد سواء.

ولاشك في أن المجتمعات العربية تتفاوت في استجابتها لتلك التغيرات، واستخدام الإعلام الرقمي، كما تتفاوت الاستجابة أيضاً بين الأجيال، فالأجيال الشابة أكثر تفاعلاً واستجابة لمؤثرات الثورة الرقمية، وعلى الرغم من ذلك تظل العوامل والنوازع الدينية والعرفية والثقافية تمثل جداراً صلباً ضد تلك الموجة المفرطة من الإعلام الرقمي، وذلك الفضاء المفتوح من الفوضى الإعلامية العابرة لكل القيم والعادات والتقاليد المميزة للإنسان العربي، فهذا الإنسان بطبيعته عصي على كل أشكال التغريب الثقافي والتفسخ الأخلاقي الذي تبثه العشرات من القنوات، التي تهدف إلى إشاعة الممارسات المهددة لمنظومات القيم والعادات والتقاليد.

العادات والتقاليد
في الإمارات بين الدخيل والأصيل

فاطمة سلطان المزروعي
رئيس قسم الأرشيف الوطني

تم بناء الحضارة على مجموعة من المعارف والعلوم التي بدأت كخرافات وخوارق للعادة، لم يعترف بها إلا قلة من العلماء، ثم تطورت إلى قيم وتراث معرفي تم توارثه من جيل إلى آخر، حتى جاء من طوّرها ونقلها إلى علوم ومخترعات واكتشافات، ساعدت الإنسان على أن يعيش حياة أكثر رفاهة وصحة وسعادة. وهذا صحيح، فالإنسان حصاد معارفه، كما قال جيمس بيرك، في كتابه القيّم «عندما تغير العالم»؛ لذا من الأهمية أن ننظر اليوم نحو حصادنا، سواء المعرفي من العلوم أو من العادات والتقاليد، فهي زرع الأجداد وغرس الآباء، فبارك الله في هذا الغرس والزرع الذي علمنا أن نعيش على أرض الصحراء أقوياء متحدين، نعمرها ونبنيها.

هذا الغرس المبارك الذي جعلنا وطناً وأمة على خريطة الكون، ننعم بالسعادة والخير العميم. إنه تراث من القيم الأصيلة والمعارف الحياتية والعادات العميقة، هذا التراث الذي فيه عبق الماضي الجميل للآباء والأجداد، والذي نعيش في تفاصيله كافة رحلة تحكي عن الإنسان وكفاحه الشريف المتواصل مع كل أجزاء الحياة من الطبيعة القاسية مروراً بلقمة العيش التي يركض نحوها في معارك شبه يومية لا تتوقف... لابد أن نؤمن بحتمية التراث وقيمته وعمقه، وقبل كل هذا أهميته لنا، وأنه جزء من المعاصرة والحداثة، وأنه لا يمكن الفصل بينهما، والمجتمع الإماراتي كغيره من المجتمعات العربية لديه عادات وتقاليد أصيلة، شكلت هويته وعلاقاته بين أفراد مجتمعه، هذه العادات توارثها الإماراتيون جيلاً تلو الآخر، حرصاً منهم على الحفاظ عليها وحمايتها من التلاشي والاندثار، لقد اهتم الإماراتيون بهذه العادات الموروثة الأصيلة ونقلوها لأبنائهم، فصارت هذه العادات بمثابة قانون ودستور في الأخلاق والصفات الحميدة التي تحكم تصرفات الفرد في تعاملاته وعلاقاته، وصارت تعرف بعادات السنع في دولة الإمارات، وهي اليوم جزء من مكونات الشخصية الإماراتية، هذه العادات والتقاليد التي تعرف باسم «السنع»، وتشمل مختلف القواعد التي تنظم سلوك الأفراد خلال تعاملاتهم اليومية، مثل احترام الأكبر سناً، والشجاعة والنخوة والشهامة والإخلاص للآخرين، وكرم الأخلاق والأمانة والتطوع والضيافة والتطوع وآداب المجلس، وآداب الطعام والترابط والتكاتف وآداب التحية والسلام، واحترام المهنة والعمل اليدوي، وحب الغير والإيثار، لقد سعى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، إلى الاهتمام بالتراث، والعمل على نقله من جيل إلى جيل، ومن أقواله: «لابد من الحفاظ على تراثنا؛ لأنه الأصل والجذور، وعلينا أن نتمسك بأصولنا وجذورنا العميقة».

مما لا شك فيه أن المجتمع الإماراتي كغيره من المجتمعات تعرض لنقلة نوعية بالشؤون العلمية والمعاصرة والتكنولوجيا، ورغم انفتاحها والتصاقها بالتسامح، إلا أنها حافظت على صلة القربى بين أفرادها، فهذه الأرض على اختلاف بيئاتها، قد أثرت في الإنسان الإماراتي، ورغم دخول الحياة الحديثة بعد مرحلة قيام الاتحاد وقيام الدولة، واختلاطه بجميع فئات القادمين إليه، وتغير ظروف المنطقة السياسية والاجتماعية وغيرها، فهناك العديد من التحديات التي تواجه المجتمع الإماراتي، منها تعدد الثقافات في مجتمع الإمارات، أو ما يسمى بالتركيبة السكانية، لقد أثر في عادات وتقاليد المجتمع، لقد أدى إلى دخول عادات خليطة، من جنسيات متعددة، كان لها الأثر السلبي في عادات أهل المنطقة كلها، فهناك تأثير في الملبس وفي بعض الألفاظ الدخيلة وفي المأكل، فبعض الملبس قد يكون محبباً وواجباً اتباعه، وفي المقابل هناك ما يجب حذفه والتخلي عنه من ممارسات لا دخل لها بالعادات ولا بالتقاليد، كما أن للتقنيات الحديثة أثراً في عادات أهل الإمارات، وانتشار الهواتف النقالة، قللت من زيارات الأقارب والأهل، واقتصر هذا الجانب على إرسال الرسائل الالكترونية والمكالمات السريعة فقط، كما أن الإنترنت قد أسهم في كثير من السلبيات على العادات والتقاليد، ففي وقت كان الرجل لا يجرؤ على النظر إلى امرأة تحرم عليه، نجد اليوم أن التواصل الإلكتروني أصبحت هناك موضوعات معتادة بين الجنسين، كما أن هناك برامج ومواقع إلكترونية صارت تدعو إلى ما هو بعيد عن الأخلاق والقيم الأصيلة، لقد تأثر المراهقون

بهذه الوسائل لدرجة تصعب السيطرة عليهم، كما أننا نلاحظ أن هناك تقلصاً كبيراً في دور المؤسسات المجتمعية والتربوية، رغم أن الأسرة هي النواة الأساسية لزرع هذه القيم في نفوس أفرادها الذين هم جزء من المجتمع، ولكن تأتي مؤسسات أخرى مثل المدرسة لها أدوار بارزة في المجتمع، شعارها (التربية ثم التعليم)، فقد كانت للمعلم هيبته، ونشأت هذه الهيبة منذ عصر (الكتاتيب) أو المدارس الدينية، أما اليوم فلم تعد هناك هيبة للمعلم أمام طلابه، ويقاس على تقلص دور المؤسسة، تقلص دور المسجد والجيران والمؤسسات المجتمعية على اختلافها.

يبدأ غرس (السنع) من قبل الوالدين في نفوس أبنائهما، وتربيتهم على التعامل والتخاطب والتصرف في المجتمع والمدرسة والحياة، فتكبر البنت على تعليمها وتسنيعها من أمها، بينما ينتقل الابن بعد السابعة إلى مرافقة والده والاختلاط بالرجال، وخدمتهم وتقليد تصرفاتهم، فينشأ رجلاً تأدب وتدرج في مراحل السنع، وكان للمسجد دور كبير في صقل سلوك الناشئة، لقد تخلت المساجد اليوم عن وظائفها المتعددة التي كانت منوطة بها في الماضي، وأصبحت مكاناً يرتاده الناس لأداء الفريضة، إذ كانت للمطوع هيبة، وتقديره في الحي الذي يؤم فيه، فكان المعلم والمربي بعد الوالدين، ثم يأتي دور المجتمع الذي يتعامل أفراده كأنهم أسرة واحدة، فيجد الشاب نفسه محاطاً بسور منيع من موانع الانحلال والخروج على الأعراف والتقاليد، ولكن نلاحظ هذه الأيام انسلاخ الشباب من جذورهم وعادات آبائهم، ليعتنقوا عادات وتقاليد غيرهم، ممن لا ينتمون إلى المجتمع الإسلامي، بحجة مواكبة التطور والوصول إلى العالمية، وهذا مفهوم بعيد كل البعد عن الصحة، فلا يمكن أن تصل إلى مكانة عالية ورفيعة وأنت تفتقد عاداتك وتقاليدك، والأرض التي تربيت عليها. إن الوصول إلى العالمية يتطلب التقليد في الفكر والثقافة والعلم والتطور التقني والابتكار، وليس في الأفكار السطحية والقشور،

لقد كانت الأدوار التي كان يقوم بها أفراد المجتمع في السابق تصب في إصلاح وتهذيب وتسنيع الشباب الذين هم رجال المستقبل، فكان هناك الأب والمطوع والمدرّس والموجه وغيرهم، كل يقوم بدوره مما يتناسب مع إمكاناته وقدراته لغرس القيم الشخصية والاجتماعية في نفوس أبنائنا.

وتلعب وسائل الإعلام دوراً كبيراً في بث أسوأ الصور عن المجتمعات الخليجية، فقد كانت الدراما الخليجية تركز على سلبيات التعامل الاجتماعي، وتضخم من المشكلات الأسرية، فتنقل صورة دراما مبالغ فيها قائمة على الظلم والتفكك الأسري، وتمرد الأبناء على الآباء وعلى العادات والتقاليد وعلى الشريعة الدينية.

إن غياب دور الأسرة في غرس الأخلاق الحميدة والقيم العالية ومظاهر السنع، وترك هذه المسؤولية للمربيات الوافدات أدى إلى التأثير في تربية الطفل، وإكسابه الكثير من العادات والقيم الدخيلة على مجتمعنا، سواء من الإعلام أو من المدرسة أو حتى من الأصدقاء، ومن خارج المنزل، إن غياب دور المربي الذي كانت تقوم به كثير من المؤسسات في السابق، مثل المطوع والمساجد والمجالس وأصحاب العلم والدين والخبرة والتجارب وغيرها، كانت تلك المحاضن بمثابة مدارس ينهل منها الطفل، إذ قيل سابقاً إن (الميالس مدارس)، بمعنى كانت المجالس وغيرها بمثابة المحاضن الطبيعية التي كانت تمارس دورها في التربية والتعليم، ولا تقل أهميتها اليوم عن دور المدارس الحديثة والجامعات، إننا اليوم نشهد ضعفاً في التواصل بين أفراد الأسرة، وتحول نمط الأسرة من الأسرة الممتدة، حيث يعيش الأجداد والجدات مع الآباء والأعمام والعمات في بيت واحد، يحقق التواصل بين الأجيال، ويعلم السنع على الأسرة النووية الصغيرة المكونة من الأب والأم، وما نتج عنها من خلل نتيجة لانشغال الوالدين بوظائفهما، وترك مسؤولية التربية والتنشئة إلى العناصر المساعدة في المنزل، من خدم ومربيات، حيث تتسرب للطفل ثقافات غريبة عن مجتمع الإمارات وعادات وافدة تضعف من روح الانتماء والمواطنة.

إن التراث لم يكن جامداً أو عالقاً في زمن تلاشى، كما قد يظن البعض، التراث يعاني لدينا حالة عدم الفهم لوظيفته، ومدى جسارته وقوته؛ ليكون جسراً متيناً نحو المعاصرة والحداثة، بكل ما تعني الكلمة. من هذا المنطلق، أتعجب من التنكر والنسيان لحضارتنا وتاريخنا (تراثنا) في هذا الجيل، حيث أصبح تقمص المظهر والتصرفات الغريبة من حيث الملبس والكلام هو الدليل على التمدن والتطور.

إن غرس الانتماء والحب والفخر للتاريخ العربي والتراث لدى الشباب، هو الخطوة الأولى والمثالية لبناء حضارة عربية تسود العالم بوساطة السلام، لدينا اليوم عشرات العشرات من المؤسسات والهيئات التي تم إنشاؤها من أجل حماية التراث ونشره، وما على هذه الهيئات إلا تطوير أساليبها، وتغيير نمط عملها ليكون أكثر إنتاجية وفعالية، وتصميم برامج تستهدف أطياف المجتمع المختلفة، وخاصة الفتيات والشباب وجذبهم ببرامج مشوقة ومسابقات وفعاليات فيها الترفيه والتسلية والتعريف بعمق حضارتنا وإرثنا الإنساني والفكري، إن السنع في دولة الامارات العربية المتحدة لم يكن مجرد مجموعة عادات وتقاليد يتسم بها المجتمع، بل إنه يشكل الهوية الوطنية الحقيقة، والإرث الذي امتد من الأجداد إلى الأسلاف ليصل إلى أجيال الحاضر والمستقبل.

العادات والتقاليد

في الإمارات بين سنع الأولين و«إتيكيت» الآخرين

مريم سلطان المزروعي
كاتبة - الإمارات

كانت العادات والتقاليد في الإمارات متنوعة ما بين مجموعتين: بدو، وغواصي وصيادي اللؤلؤ (براً وبحراً)، وتطورات بتطور الحياة، حتى شكلت مجتمعاً عصرياً متعدد الثقافات، فأصبح هناك مزيج جميل متناغم يربط بينهما باختلافات طفيفة، وإذا جئنا إلى تعريف العادات والتقاليد لغة واصطلاحاً، فالعادات مفردها (عادة)، وتعني تلك الأشياء التي استمر الأفراد على فعلها أو القيام بها أو الاتصاف بها، حتى أصبحت معروفة؛ أي ما يعتاده الإنسان ويعود إليه مرات كثيرة، بينما التقاليد ومفردها (تقليد)، فتعني ما نقلهُ الخَلفُ عن السَّلف؛ وهي ما يتناقله الأشخاص من اعتمادات وممارسات وطرق السُّلوك ومظاهره العامة، وهو أيضاً أن يقلد الأفراد طرق الجيل الذي سبقه، ويسير عليها في جميع مجالات وعادات الحياة اليومية.

ولقد دقق دارسو الفولكلور الأوائل في البحث عن فروق دقيقة ما بين مفهومي (العادة) و(التقليد)، وكثيراً ما كانا يُعدان مترادفين؛ حيث إن فريقاً من الفولكلوريين الأوائل يعّدون (التقليد) عادة ميتة، فقدت معناها، وباتت تمارس من دون وعي بمدلولها، وتشيع وسط الدوائر الأكثر بساطة، واتجه البعض في العقدين الأخيرين إلى إسناد مكانة عالية للتقليد، وقدرة على توجيه العادة؛ بحيث جعلوه قريباً مما نسميه اليوم: (القيمة أو المعيار)، إن التقليد ليس شيئاً ملموساً كالعادة؛ لأنه ليس فعلاً، وليس مقرراً كالقانون، فاعتبر أنه لابد أن يكون مستمداً قوته وسطوته من مصدر خارج البشر؛ لذلك فالتقليد عنصر دائم غير قابل للتغير، وإنه مرداف للثبات والاستمرار في حياة الجماعة، بينما العادة تأتي عندما يكون الفرد مرتبطاً مع الآخرين، ويأتي بأفعال ينتج عنها عادات كالعادات الاجتماعية أو العادات الشعبية، والعادة دائماً ما ترتبط بظروف المجتمع الذي تمارس فيه؛ لذلك هي مرتبطة بالزمن أو بموعد أو بمناسبة زمنية معينة، وتتصف بالقدم في التاريخ والزمان وبصفة العمومية، مجالات العادات والتقاليد مختلفة ومتنوعة، تشمل حياة الإنسان البيولوجية على السواء كالميلاد والموت،

وعادات متعلقة بالتعاون في أثناء المناسبات الاجتماعية الأخرى كالأعياد ومناسبة عقيقة المواليد، والأقارب أو الأرحام أو الأنساب، والضيوف واستقبالهم، وعادات الزواج وتقاليده من الماضي إلى الوقت الحالي ببيئاته المختلفة، والعلاقات مع الجيران والسنع وتربية الأبناء وآداب المجالس واحترام الضيف، والمجتمعات المحلية والقرية والمدينة، والمناسبات المرتبطة بتتابع العالم، والمواسم وفترات الانتقال والأوقات الحرجة، والتاريخ والذكريات والأنساب والخرافات والأساطير والقصص، وقديماً كانت العادات تدل على التعاون والألفة، كعادة جمع الحطب، والأغاني التي تغنى عندما تذهب النساء، يقول الشاعر: «الضو إذا شبت فنصف الكرامة.. والنصف الثاني ما تيسر من القوت»، عند لقائي السيدة تقول موزة عبدالله الكعبي من مدينة العين: «عاداتنا وتقاليدنا نحن متمسكون بها، وقد توارثناها من أهالينا، ونقلناها لأبنائنا وبناتنا، فأيام الأعياد لدينا طقوس نقوم بها قبل العيد وبعده، كنا نجتمع نحن النساء لخياطة وحياكة الملابس، وتتحنى البنات والنساء، وقبل العيد

بيوم نقوم بغسل الزوالي (مفردها الزولية: السجاد)، والفتيات الصغيرات يساعدننا في تنظيف المنزل، ومسح الدرايش (مفردها دريشة: النافذة)، وتنظيف كل شيء حتى نشعر بأجواء العيد، كما كنا نستيقظ يوم العيد في الصباح الباكر، فتذبح الذبائح وتقسم، ونعّد الأكلات الشعبية كالهريس والفريد أو الثريد والخمير والجباب واللقيمات، وقبل أن يذهب الرجال إلى المصلى، كنت أرى والدي، طيب الله ثراه، كان يجهز أواني العيش (الأرز)، حتى يوزعها على الفقراء والمساكين كزكاة الفطر، فقد كنت أسمعه يقول لنا إذا لم نعطِ الفقراء من طعامنا فلن يقبل صيامنا، وهذه سنّة عن رسولنا الكريم، وأمر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة، وكان الرجال قبل الذهاب إلى صلاة العيد يأكلون التمر، وبعد صلاة العيد يجتمع الرجال والنساء كذلك، ويبدؤون بمعايدة بعضهم بعضاً، وزيارة كل بيت، ولا ننسى العيدية التي تعطي للأطفال دراهم، أو حلوى بينها الملبّس، وكل على قدر استطاعته، ويستمر العيد مدة ثلاثة أيام، كما كانت تُصنع الدرفانة (الأرجوحة) للعب البنات، وتكرر في عيد الأضحى إلا أن في عيد الأضحى لابد من ذبح الأضاحي، فهناك من يذبح خروفاً أو شاة أو ماعزاً أو جملاً، في الوقت الحالي ولا أعرف السبب، ربما تطورات الحياة التي نعيشها حالياً غيرت في طقوس العيد، فقد قلت الزيارات، كما أصبحنا نعتمد في خياطة ملابسنا على العمالة الآسيوية، وأضيفت لمسات جديدة وعديدة على زي المرأة الإماراتية، فقد كنا نلبس المزرى والكنادير المخورة المطرزة بخيوط الفضة والبرقع الذي اليوم لا تلبسه إلا كبيرات السن، دخلت علينا عادات لا أعرف من أين جاءت».

وعند لقائي الوالدة فاخرة محمد: «لاحظنا في الفترات الأخيرة، وللأسف، أن الجيل الجديد لا يعرفون لغتنا المحلية الجميلة، بل يتحدثون معنا بالإنجليزي، وكلمات قليلة بالعربي، حتى عندما يلقون علينا التحية (هالوو، هاي) بدل كلمات الترحيب التي متعارف عليها (يا مرحبا) التي لها دلالة قوية ترحيبية للضيف، كما لا يعرفون كيف يرحبون بالضيف أو كيف يردون على العرب عندما يهنئونهم بالعيد، سواء العيد الصغير (الفطر)، أو العيد العود (الأضحى)، وكذلك العباءة التي كانت سوداء لا تضاف إليها أي لمسات، اليوم أصبحت ملونة بالأبيض والأزرق والأخضر والأحمر، أشبه بألوان قوس قزح». من الملاحظ في الوقت الحالي هناك فرق كبير ما بين جيل الماضي والجيل الحاضر في نواح عدة، فهناك فروقات في الإمكانات والقدرات والتفكير والتحمل والصبر وغيرها من الجوانب، كذلك في فهم كثير من جوانب الحياة المختلفة، العادات والتقاليد والأعراف كثيرة، وأغلبها لها جوانب إيجابية، ولها مدلولات اجتماعية وتربوية وتكافلية واقتصادية، وإذا جئنا نسأل أغلبية الجيل الجديد نجده لا يعرف عنها شيئاً، حتى إن هناك العديد من المفاهيم والمصطلحات التي لا يفهمها وسيستغربها، هناك بعض من العادات والأنشطة التي لا تزال موجودة وهناك عادات أخرى على وشك الانقراض، كما أن عادات دخيلة على مجتمعنا في الوقت الحاضر، بدأت بالظهور ربما لعدد من العوامل التي فرضها المجتمع بوضعه الحالي.

يذكر الوالد خميس المزروعي في أحد لقاءاته: «في الماضي كان البيوت متقاربة، وعددها قليل، فتعد بأصابع اليد، لكنهم متكاتفون ومتعاونون ومتحابون، وكل واحد له مهام يقوم بها ودور، فأحدهم يذبح الذبيحة للضيوف ويقدمها لهم، على الرغم من الفقر والحاجة، ولا يردون ضيفهم، فهو ضيف للجميع، وأذكر أنه جاء رجل بدوي من منطقة بعيدة إلى آخر في البادية أحواله المادية صعبة، بل هو فقير، وليس لديه إلا عدد قليل من الضأن، ولا يعرفه، لكن من باب الكرم استضافه، وقام صاحب البيت بذبح ما عنده من الغنم وسلخها وطبخها في بيته إكراماً لضيفه، على الرغم من حاجة أبنائه والعوز، ولم يكن لديه ما يؤكل فقام بأخذها من الجيران على سبيل السلف أو القرض، على أن يتم تعويضهم في المستقبل، وهي من العادات الجميلة التي أصبحت قليلة اليوم، وعندما يحل الضيف على أحد الجيران يقدم له التمر والقهوة، والغداء أو العشاء، حسب وقت قدومه، ويجلسون يتبادلون أطراف الحديث دون نميمة ولا يغتابون أحداً، كما أن الضيف عندما يذهب إلى مكان آخر، يجد عندهم غداء في اليوم نفسه، فلا يأكل من هذه الوجبة حتى لو كان به جوع؛ لأنه يدرك أن أصحاب الوجبة الثانية سيعرفون أنه سبق وتناول وجبة الغداء في البيت الأول، وإذا أكل مرة ثانية، فإن ذلك يعني أن أهل البيت الأول لم يقوموا بواجبه، ولم يضيفوه بالشكل المطلوب، إن تناول وجبتين في اليوم الواحد فيه عدم احترام للمضيف، حتى لو كان في أماكن مختلفة، إن إكرام الضيف واجب ومن عاداتنا، ومن العادات الأخرى التي بدأت بالانقراض عندما يسكن أو يحل شخص على مجموعة من الجيران يقوم جيرانه بالواجب، من خلال إقامة مناسبات له ولأهله، يتم فيها ذبح ذبيحة وتقديم الدعوة للجيران؛ لأنهم يدركون بأن الجار له الحق في الجيرة، كذلك يقوم بالمثل الجار الجديد، وكل على حسب استطاعته، أيضاً كانوا يتعاونون في بيوت بيوتهم؛ بحيث يكونون بالقرب منهم، تجمعهم الألفة والمحبة والرحمة، لكن الذي حدث الآن أنه قل التواصل، وضعفت صلة الأرحام، على الرغم من أنه في الماضي كانت لديهم اكتفاء ذاتي، إلا أنه الآن زادت الأموال، لكن لم تعّد تكفي، وأصبح التبذير كثيراً.

الخلاصة لابد من جمع وتوثيق التراث، ممثلاً للعادات والتقاليد والأنشطة الاجتماعية المختلفة، التي قد لا يدركها أغلب أفراد الجيل الذي يعيش في وقتنا الحالي، من أجل التعرف إليها، وتعلم الكثير من جوانبها الإيجابية؛ لأنها إذا لم يتم توثيقها للأجيال القادمة، فسوف تتلاشى وتندثر وتصبح من المعلومات والمهارات والعادات والتقاليد المنقرضة التي لم تتم الاستفادة منها، كذلك مواجهة التغيرات التي تطرأ على مجتمعنا من مواقع التواصل الاجتماعي كالإنستغرام والسناب شات والتك توك، وغيرها من البرامج التي لا تنتهي والتي لا حصر لها، والتي تؤثر في سلوكات الأجيال القادمة، واكتسابهم صفات وسلوكات غريبة ودخيلة علينا.

حول جدلية التراث والعصر

محمد نجيب قدّورة
كاتب وباحث - فلسطين

الكلام العلمي غير الشعارات الكرنفالية، حيث البحث العلمي يقتضي مشروعات ووسائل تعرف، سوف يكون لها مستقبل أثرها الحاسم في تطوير ما نقوم به اليوم من أعمال هي امتداد للأصالة، فلا تكون المعاصرة انقطاعاً أو انقلاباً حتى في التحولات السريعة الجذرية.

إن أي دراسة لأيّ من محاور حول التراث، لابدّ أن يكون لهذا المحور أو سواه وعيه بأن التاريخ سلسلة متصلة متواصلة، فالحاضر امتداد لما كان، والذي نحن عليه فيما نعيشه هو بدء المسيرة المستقبلية، إلا أننا لدينا ما يبرر التمسك بروح الانتماء للماضي، رغم سباقنا للزمن باتجاه الفجر الواعد الجديد، ولا عجب إذا عرفنا أن مسلكياتنا الاجتماعية والثقافية تجسد ماهيتنا وطموحاتنا النابعة من دواخلنا، مع الحذر الشديد من علاقات الاتصال بالعالم الخارجي، إلا في نطاق الحاجة والضرورة، فنحن لا نشعر بأننا أمة اليوم التي نشأت بمحض المصادفة أو الطفرة، حيث مستقبلنا موقف ومنهج، موقف نتخذه ونحن لا نتصور المستقبل بعين الماضي بقدر ما نتأمل ماضينا بعين المستقبل، وهذا هو ما يجعل نظرتنا إلى الحياة الاجتماعية والثقافية نظرة الماضي المستمر، ثم العبور الى الحاضر المستمر، الطبيعي أن نرى السفينة في الماء، ومن الخطر أن نرى الماء في السفينة.. فليس الماضي أكذوبة، إنما هو أصالة ربطها الإمام الشافعي بقوله:

المرء يعرف في الأنام بفعله
وخصائل المرء الكريم كأصله[1]

أجل، ليس ماضينا أكذوبة، أو مجرد أيّام في ذاكرة منسية، لكنهُ تجربة نتعلم منها، فلا نقع في الأخطاء، نستقبل الألم بصمت عندما نعالج أخطاء الماضي، ونحن لا ننتظر السعادة حتى تأتي مبتسمة، بل نحن نبتسم لنكون سعداء، فسقوط المطر هو أجمل بداية لاستيعاب التحول والتأقلم معه، ما دمنا مؤسسين على قيم ومبادئ تراثية راسخة في عاداتها وتقاليدها، وفي زيها ولهجتها، وفي أهدافها الإنسانية المستجدة.

التراث دروع

إن تراثنا سجل حافل بالدروع الحضارية، التي لا تزال تشعرنا بأننا أسرة واحدة متحابة، يتجلى ذلك عندما تذكر شخصية مؤثرة في وجداناتنا، فتاريخنا لم يرحل إلى غير رجعة، ابن ماجد وزايد وابن ظاهر وسلطان، عندما تسمع أسماء كهذه تثير بنا صورة التراث الممتد في عصرنا، وهذا ما سطره الشيخ زايد في أقوال مأثورة، حيث قال:

«إن تراثنا يجمع بين أصالة الماضي، وروعة الطموح المستقبلي لجيلنا الذي يحرص على تعانق الماضي مع الحاضر، آخذاً من ذلك الماضي نوراً يضيء به هذا الحاضر حتى تبقى شخصية المجتمع براقة محافظة على أصولها وتراثها». ومن قوله: «أمة بلا ماض ليس لها حاضر أو مستقبل»[2].

أجدادنا واكبوا دائماً التطورات الرائدة مرسخين ما يشرفهم، معبرين عن ملامحهم أسمى تعبير، ونحن عندما نقوم بإحياء فعاليات التراث لا نقصد حذافيرها، بل نريد أن نحافظ على جوهر الفكرة، على أن تستكمل في المجالس والمدارس والثقافة التراثية بما يضمن روح الوجود الحضاري المعاصر.

السنع نموذجاً

أقول:

هيَّ المجالس مدارسْ هيَّ مصانع الرجالِ
والشرط فيها الدرايه بالراي والاحتفالِ
اذكرت زايد بمجالس والحل عنده حلالي

أجـل لم أنـس حديـث خـالي، عندمـا كان ضابطـاً في قـوه دفـاع أبوظبـي، وهـو يـردد أشـعاراً للشـيخ زايـد فيهـا احتفـاء بسـنع القهـوة بقولـه:

يا محتوي حسنات الخصال أطبـاع وسـلوكٍ لطيفـه
قم سوّلي من البن فنيال وضيف الذي تبغي تضيفه
يا نـور عينـي ما لك أمثال ولا لي أنـا دونـك نكيفـه
روياك تفرج ضيقة البال وبسمة ثناياك الخفيفـه

فالمجالـس التراثيـة مسـتمرة، مـا دام وراءهـا وجهـاء وشـيوخ يحرصـون عـلى فـك الصـوع، وتهدئـة الـروع عـلى قـول الدكتـورة غايـة الظاهـري، بـل هـي القهـوة المحبوبـة السـمراء عنـوان الأصالـة والكرامـة في العـادات والتقاليـد التـي تعتـبر درعـاً منسـوجّة مـن حديـدة الفكـرة الموصوفـة بفناجـين السـيف والضيـف والجاهـة والكيـف، ولـو أردنـا المعيـوف والمهيـوف لوجدنـا ذلـك في توصيـف حـالات شرب القهـوة المهيلـة في مجالـس العـزاء أو الفـرح أو المسـامرة.

ويعتقـد الـكل أن سـنع القهـوة تـراثي، لكنـه معـصرن؛ لأن القهـوة تحولـت مـن مـشروب محـلي إلى مـشروب عالمـي، ظـل مقياسـاً للسـلام والضيافـة والأصالـة الدالـة عـلى الهويـة الخالـدة، فـلا عجـب لـو سـمعنا عـن العـادات والتقاليـد أنهـا في أيـد أمينـة، بمـا فيهـا مـن أمثـال تمجـد مـكارم الأخـلاق، مـما هـو كثـير في سـنع الإمـارات.

دعوا القلق واستمروا

كان مجـرد سـؤال يسـتحق التوقـف عنـده: هـل تصمـد قيـم الـتراث التقليديـة في وجـه التطـور الراهـن ومـا يشـهده العـصر مـن تسـارع كبـير في التكنولوجيـا التـي تعمـق الفجـوة مـا بـين القديـم والجديـد؟ وهـل العـادات واللهجـات والمعـالم الأثريـة تعيـش أزمـة وتحديـات بـين المعـاصرة والتقليـد؟

إلى محبـي الـتراث والباحثـين عـن الحقيقـة العائمـة أقـول: مـن أولهـا اطمئنـوا، دعـوا القلـق، وابـدؤوا الحيـاة، نحـن نعمـل لمرقـى، نحـن نتعلـم لنسـلك الطريـق إلى مـا فيـه الخـير... أجـلّ الأمـم ترقـى بالعلـم، ولكنهـا تسـود بالأخـلاق، لكـن لِـمَ أتعـب نفـسي في تفسـير المعنـى المجهـول، وجميـع صفـات السـلوك البـشري منـذ الأزل تثبـت ألّا خـوف عـلى فقـدان المـوروث؛ لأن المـوروث المـادي والفكـري يبنـي عليـه أفضـل مـا توصلـت إليـه الاجتهـادات والابتـكارات والطمـوح فلـولا القواعـد لمـا رفـع معـمار.

أجـل نحـن نـربي أبناءنـا لزمـان غـير زماننـا، لا عجـب إن اختلفـت الأذواق عـلى ألّا نتنـازل أو نتنـاسى أن المنظومـة الأخلاقيـة مهـما حصـل مـن تطـور ورقـي وتحـول تبقـى هـي هـي، قـد تلمـع وتعطـر وتطعـم، لا حـرج ولا مانـع، فالاختـلاف شيء منطقـي، لـن نناقـش في هـذا السـياق، قـد يقـول قائـل: ولمـاذا تتعـب نفسـك وأنـت تبرهـن عـلى إثبـات نظريـة قبـل وضـع الفرضيـات؟ أليـس في سـؤالك تلويـح وتلميـح للسـؤال التـالي: مـاذا لـو تعرضـت قيمنـا التراثيـة في السـلوك والهويـة لأزمـة ثقـة بـين مـا كنـا ومـا يجـب أن نكـون؟ أقـول أنـا أعـي حجـم الانفجـار المعـرفي والسـلوكي، إنهـا لثـورة هائلـة سريعـة التأثـير في التفكـير والتدبـير، عفـوك أيهـا الدهـر، أنـا أدرك أنـك لـن تتوقـف تقديـراً لمشـاعر خـوفي، أنـت مسـتمر لنكـون شـيئاً مفعـولاً، والاسـتمرارية محفوفـة بالأخطـاء والعـثرات، ثـم نـرى أنفسـنا بعـد حـين نجـد الحلـول المتاحـة.. سأسـتدعي السـؤال تـارة أخـرى، مـاذا لـو أن الإنسـان ظـلّ بدائيـاً، أليـس مضحـكاً في مشـهد مسرحـي؟ لقـد تكيـف إنسـاننا الأول فاسـتأنس واسـتزرع واخـترع، وكان في كل قفـزة يطور دون خسـارة، يـدوّر المـادة الخـام مـا بـين الزراعـة والصناعـة والتجـارة، الفكـرة هـي ذاتهـا لكـن الإمسـاك بطـرف الخيـط مختلـف.. أجـلّ الدراسـات والنظريـات لا تبـدّل ولا تحـوّل ولا تطـوّر بقـدر مـا تفتـح آفاقـاً لسـلوك متكيـف يـؤدي مهمـة سـابقة بأسـلوب جديـد قابـل للتعديـل، الطبيعـي أن نكـون نحـن متأثريـن ومؤثريـن. نكـون لنـا طابعنـا الخـاص كقـول شـاعرنا حاتـم الطـائي، رمـز الكـرم عنـد العـرب:

أضـاحك ضيفـي قبـل إنـزال رحلـه
ويخصـب عنـدي والمكـان جـديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنمـا وجـه الكـريم خصيـب

لكل امرئ من دهره ما تعود

مـا دمنـا دخلنـا في قضيـة العـادات والتقاليـد، فنحـن العـرب لنـا أسـناعنا وسـلوكاتنا في إلقـاء السـلام، وفي إكـرام الضيـف والجـار، فـكل هـذا يجعلنـا متحابـين متكاتفـين، فـلا يجـوز أن يبيـت أحدنـا شـبعان، وجـاره جوعـان، فـما بالـك برائحـة القـدر؟! صحيـح أن حيـاة المـدن حصـل فيهـا مـا حصـل مـن تباعـد وأسـفار ووظائـف، إلا أن هـذه المفاهيـم لم تفقـد مـن النفـوس.. ولنـا شـواهد عـلى هـذا في اسـتمرار المجالـس، وصـلات الرحـم، ومراعـاة المواقيـت لأداء الصـلاة والـزكاة والصدقـة والحـج والفزعـة في الدفـاع عـن الأوطـان.. حتـى العـادات والتقاليـد ترقـى وتتحـضر في تغـّير المـادة وتزويقهـا وتكيفهـا مـع مـا كنـا عليـه، فـلا نضيـع المـاضي المـوروث ونحـن نتعايـش مـع الواقـع المعـاصر... لأن العـصر في نهايـة المطـاف، هـو مـا أراده

لنا الآباء والأجداد من أمنيات يستمر ذكرهم بها أنهم زرعوا فأكلنا، ونحن نزرع ليأكلوا، ثم لا بأس أن أمازح قائلاً: الرسل بشر، وليسوا ملائكة، ابنوا علاقاتكم على هذا الأساس.. تقبلوا الاعتقاد لأنكم لن تغيروا حقيقة أن الرسل ليسوا ملائكة بين الناس.

العجينة أم القالب

قال لي أحد الأصدقاء في المجلس الأدبي: انظر لم يعد الشعر العمودي هو الرائج السائد، فقد نافسه شعر التفعيلة، وشعر التفعيلة نافسه الشعر المنثور، قلت: القالب غالب، ما رأيك بإجراء مقارنة بين هذه المفاهيم الأدبية وبين أجناس أخرى من الصناعات كالأشربة والأطعمة والأدوية، بل لا بأس القول في السيارات والطائرات والسفن.. ستقول لي كلٌ يؤدي دوره ومهمته، وأنا أقول لك في الأدب كذلك، لكل فن مستحدث مهمته وقالبه، واختلاف الرأي والمزاج لا يفسد للودّ قضية.. صمت صديقي برهة، ثم قال: ألا تلاحظ أن هناك خطراً على لهجاتنا ولغاتنا.. قلت: الخطر الخطر... يا أخي انظر إلى الموضوع من ناحية أخرى في بقعة ضوء، وتساءل: كم سنفيد من تواصلنا مع اللهجات واللغات، ولا أعني هنا إقصاء الآخر، أو إلغاءه، أنا أقول لنتأمل كم قطع العرب في الجاهلية أشواطاً ليصلوا إلى لهجة قريش، ثم غدت لهجة قريش هي لغة القرآن والحديث والأدب، لكن اللهجات لم تمت، اللهجات تتفاعل، فيتم التعديل والتصنيع والتدوير لخلق لهجة بيضاء سائغة للجميع، هي ليست لهجة ثقافية، لكنها واقعية، وإن كانت مستغربة أثناء التواصل بها من جنسيات غير عربية، أنا أوازن كثيراً في دراساتي اللغوية بين ما كان وما هو عليه الآن من مفردات ومصطلحات، صارت لدينا الآن من بدهيات التواصل الاجتماعي الشفوي والمرئي والمكتوب في مفردات حمالة المعاني في التذوق الأدبي، والتضخم الاقتصادي، والمجلس الاتحادي، وكسر الخاطر في التعامل أو جبره.

نعم، هناك فروقات في الحياة العمرانية فرضتها طبيعة المراحل، الشارع في المدن القديمة ضيق الزقاق، والبيت القديم نوافذه إلى الداخل، والمجلس من أسس البيوت القديمة... الآن الشوارع العريضة المتعددة المسارات المتفرعة بين المباني المراعية لمواقف السيارات، وممرات المشاة والدراجات، العمائر امتداد عمودي في الغالب، نادر في الأفق إلا في أحياء شعبية أو قصور ذلك أن المدن فيها الأسواق الحديثة التي لم تغفل وجودها في الأرياف والقرى، كل ما تحتاجه بين يديك.

لماذا الاحتفاء بيوم التراث العالمي:

لم يكن الأمر كرنفالياً كما ذكرت بادئ ذي بدء؛ لأن البشرية أدركت أن الآثار شهادات، والحضارات منجزات،

وما لم يمح كلياً يعاد تصوره في الترميم، كلنا نتفاعل مع لحظات وقوفنا على الأطلال، لن ندّعي عدم التأثر، لا، علينا أن نتأمل أديم الأرض؛ لأنه بقية أجساد، علينا أن نتمعن في بناء الحصون والقلاع والأهرامات، لندرك كم كان هؤلاء البناة جبارين أو مغفلين، فلا تجني على نفسها براقش.. لننظر إلى صور منذ مائة عام، لنفهم أن الصورة بالأسود والأبيض قيمتها مضاعفه لقدمها، لا لشيء آخر، فالحديثة ملونة وأجمل.. يوم التراث العالمي لم يرد نقل الماضي إلى الحاضر، بقدر ما أراد لنا المقارنة ودفعنا لنبدع، فماذا كنا لو لم يقل أحدهم: افتح يا سمسم في حكاية خرافية، وماذا كنا لو لم يتخيل أحدهم بساط الريح يطير؟

قيمة تراثية معاصرة

ولأن تشكيل الدراية لا يتم بالحصول على الشهادة، كان لابدّ من المجالسة والمعايشة والتجربة والاستماع والحضور والتفقد: أين فلان؟ اسألوا عن أخيكم، ادعوا له، لم أستغرب عندما كنت أرى الطيور تحتسي الماء وترفع رأسها إلى الأعلى، فقد نستطيع إيجاد مسامك السلمون في المياه العذبة، لكن نزولها وصعودها في رحلة العمر بين المنبع والمصب والمحيط سيجعلها ألذّ وأطيب.. أجل يستحق التراث منا التقدير؛ لأنه دافع رابط، وشأن نابض، فلو أخذ الناس مشورة أهل الرأي قبل الذهاب إلى المحاكم، لأراحوا واستراحوا. أجل لا خوف ولا فزع من فقدان قيمة تراثية؛ لأن الإنسان هو الإنسان، والحياة في تطورها هي ما يعطيه مفاتيح حديدية لأبواب لم تعد خشبية.. سيقال هذا تراخ منك واستهانة.. وسأقول: الخطب جلل، لكن ما العمل إلا أن نتفاءل وننظر إلى المرآة كي نرى ما خلفنا بين لحظة وأخرى، ولو في يوم أو بعض يوم.. ولا بأس أن نقود السيارة بعيون مختلفة الاتجاهات.. ونحن متجهون لنبارك لرجل التراث العربي الدكتور عبد العزيز المسلّم، ونسأله عن العلاقة بين التراث والعصر، لا شك في أنه سيؤكد العلاقة ليست جدلية، كما استنتجت من تحليلاته وتعليلاته.

أذكر أن رجل التراث العربي بشهادة جائزة العصر أرادني أن أقول: إن الخروج من عنق الزجاجة يتم إما بتصغير المشكلة الجدلية، وإما بقطع عنق زجاجة، فلا مشكلة أن التراث يصبّ في بحر العصر، ليعيد دورته في الطريق إلى المستقبل الأمثل.

1. ديوان الشافعي ص 37.

* ص 61 تراث مجتمع الإمارات وأصالته، عن كتاب «مجتمع الإمارات الأصالة والمعاصرة»، للمؤلفين د. محمد توهيل سعد، ود. يوسف محمد شراب، مراجعة د. سعيد حارب.

تراثنا والتحولات الاجتماعية

ومدى سطوة التكنولوجيا عليها

حوار : د. فهد حسين

لكل مجتمع عاداته وتقاليده، ولكنها تتغير بحكم الزمان والمكان، وطبيعة التواصل مع الثقافات الإنسانية الأخرى، في الوقت نفسه هناك حساسيات وجدانية ومعرفية لدى الشعوب بأهمية تراثها وما يحتضنه من عادات وتقاليد، وكيفية العمل على بقائها والمحافظة عليها، في وقت بات التداخل بين المجتمعات مؤشراً واضحاً على عملية التغيير والتحول في أنماط الحياة اليومية، لذلك حاولنا التواصل مع بعض أعضاء مختبر سرديات البحرين، الذين لهم اهتمامات بالتراث ولديهم اشتغالاتهم الأدبية بين القصة والرواية وأدب الطفل والمسرح، وها نحن نطرح الأسئلة على كل من الدكتور عباس القصاب (ناقد مسرحي)، وشيماء الوطني (قاصة وروائية)، والدكتور جعفر الهدي (قاص وروائي وباحث)، وآية السيد حميد (قاصة)، وزهراء المبارك (قاصة وروائية وكاتبة مسرح ومهتمة بالتراث والحكاية الشعبية)، وعباس عبدالله (قاص وروائي)، وجعفر الديري (قاص وشاعر)، وزكية شبر (قاصة وباحثة)، وفي حوارنا معهم أبعدنا الألقاب العلمية والأدبية، رغبة في أريحية اللقاء، والبعد عن الرسميات، وهذه هي الأسئلة:

السؤال الأول: في سياق تداخل كثير من المفردات غير العربية على ثقافتنا وتراثنا الذي تربينا عليه، كيف ترى انتشار مفردات غير عربية بيننا؟ وما طبيعة نتائج هذا الدخول في عصرنا، وتأثيره في الأجيال القادمة؟

بدأت آية السيد حميد بقولها: يعود انتشار الألفاظ غير العربية بيننا إلى تأثير الهيمنة، فبات من المستحيل تقريباً التحدث عن كل شيء بمفردات عربية فقط؛ لأن العالم ظهرت فيه أشياء جديدة تحمل أسماء جديدة، ولم يتم تعريبها أو تم التأخر في تعريبها، مثل (سيفون) الحمام، أطلق عليه المجمع اللغوي اسم ثجاجة، ولا نجد أحداً يستخدم هذا الاسم لتصالح الناس على اللفظة الأجنبية، ومن تبعات هذه المشكلة الآن أن كلامنا صار يغلب عليه استخدام الألفاظ الأجنبية، وإن كان لها تعريب، فتراجعت مكانة اللغة، وتلاشى استخدام بعض الألفاظ، وهذا سيؤدي إلى اتساع الفجوة بين اللهجات العربية والفصحى، وبالتالي محدودية فهم استخدام العربية الفصحى.

أما جعفر الهدي، فبين قائلاً: لا شك في أن التمازج الحضاري أخذ مساحة أكبر عن العصور الماضية لأسباب متعددة، أهمها وجود جاليات أجنبية بأعداد كبيرة في شتى الأقطار العربية، وتعد ظاهرة دخول المصطلحات الأجنبية في لغتنا العربية ظاهرة قديمة، لكنها وصلت حداً غير مسبوق، فالعولمة الاقتصادية فرضت هذا التداخل بسبب وجود الجاليات وبقاءها فترات طويلة، واستخدامها اللغة العربية، وتأثيرها وتأثرها بها. لقد شهدت السنوات الخمسون الأخيرة من القرن العشرين دخول مصطلحات أجنبية كثيرة، بسبب تأثير الاستعمار، لكن اللغة العربية بوصفها لغة حيّة ومتطورة تمكنت من استيعاب هذه المصطلحات، بل كانت اللغة العربية قادرة على استيعاب المصطلحات العلمية التي فرضت نفسها، من خلال دخول الآلات والصناعات الحديثة التي نستخدمها في كل موقع من حياتنا. وأنا لا أرى أي خوف على لغة الأجيال القادمة، لتعدد قنوات دخول المصطلحات الأجنبية، حتى مع توجه شرائح اجتماعية عديدة لتعليم أولادها في مدارس وجامعات أجنبية؛ وما نؤكده أن اللغة العربية قادرة على استيعاب المصطلحات الجديدة، وهو جزء من نظرية حياة اللغة، فاللغة كائن حي يولد ثم ينمو ثم يشيخ، ولاتزال لغتنا العربية في ريعان شبابها ونموها بحيث تتمكن من استيعاب وتطوير المصطلحات بما ينسجم وقواعدها وأسسها.

وتشارك شيماء الوطني بالقول: تداخل المفردات غير العربية في ثقافتنا ليس بالأمر الجديد، فمنطقة الخليج العربي ومنذ القدم، وبحكم موقعها على خريطة التجارة، كانت حاضنة للعديد من اللغات والمفردات التي دخلت إلى قاموس اللهجات المحكية من كلمات هندية وفارسية وتركية، وحتى إنجليزية، بعد اكتشاف النفط، فكيف لنا اليوم ومع المد الهائل لوسائل التواصل الاجتماعي والتطور التكنولوجي أن نوقف تداخل المفردات غير العربية إلى لغتنا، وكل ذلك يحدث بكبسة زر واحدة؟! لا أجد غضاضة في تعلم لغات غير العربية، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في «استبدال» كلماتنا بكلمات دخيلة دون مسوغ، حتى وإن وجد لها بديل أو مرادف مناسب، بعضهم، وعن فهم خطأ يعتقد أن رطانته بكلمات أجنبية تدلل على مستواه

أ. آية السيد حميد

د، جعفر الهدي

الثقافي أو وجاهته الاجتماعية، وهنا مكمن الخطر والخلل في المسألة برمتها، وتمتد هذه الإشكالية حين يبدأ تأثيرها في الأجيال القادمة التي تربت على أساس يزدري لغتها الأم، ويرى في اللغات الأخرى دليلاً على التطور والوجاهة والثقافة، وبذلك ينشأ لدينا جيل هلامي دون هوية راسخة، ولا شخصية واضحة الملامح!

وأكد جعفر الديري، أن تداخل المفردات غير العربية مع ثقافتنا وتراثنا، لا ضير منه، بل ربما أعطى انطباعاً بجلالة قدر اللغة العربية، ومقدرتها على هضم مختلف الثقافات، ورحابة النفوس وتقبلها الآخر المختلف، شرط أن يكون الناس على قدر من المسؤولية والإحساس بالواجب، متيقّظين للغتهم الأم، واعين ضرورة الحفاظ عليها، فاللغة تعني التراث والتقاليد والقيم، وليست لغة للحديث والكتابة وحسب، أقول ذلك دون أن أخفي قلقي على هذا الجيل والأجيال الآتية، فما بين انصراف واضح عن القراءة والتثقيف، وبين انشغال بالأجهزة الإلكترونية ليل نهار، يبدون غير مبالين ولا حتى أنهم فاهمون خطورة هذا الأمر.

وتشير زكية شبر إلى أن اللغة عنصر أساسي في المجتمع، فهي أداة تربط الأجيال ببعضها، من خلال نقل الثقافات والعادات، وهي وسيلة للتواصل اللغوي، فاللغة نظام معقد من الرموز، وهي المنفذ للدخول لعمق الثقافة والبنى الاجتماعية، وأمام الانفتاح الثقافي، نجد أن العولمة لعبت دوراً مؤثراً في اللغة، فالإنسان مخلوق اجتماعي، وأمام الموج اللامتناهي من المفردات الدخيلة والأجنبية، نجد أن هناك تأثيراً سلبياً للعولمة على اللغة، حيث قامت بتغيير المفاهيم، واصطناع مفاهيم جديدة، كما نجد أن العولمة فرضت لغات أجنبية كلغة أساسية للدراسة واكتساب العلم، لذلك نستطيع القول إن العولمة هي استعمار ثقافي يدخل الى نسيج المجتمع، من خلال فرض أدوات تفكير مختلفة ودخيلة على المجتمع، فإذا كانت اللغة هي المقوم الأساسي للمجتمع وإنجازاته فالعولمة أداة تفكير تفرض التعدد اللغوي، فنجد بعض المجتمعات العربية تعاني أزمة تواصل بين الأجيال، فالأبناء يتحدثون لغة أجنبية لا يجيدها الأب، كما أن انتشار العامية بسبب تداخل اللهجات، أبرزت لنا لغة جديدة تجمع مفردات عدة، وهنا لا نستطيع تجاهل دور التطور التكنولوجي ووسائل التواصل الاجتماعي في التأثير في العلاقات الاجتماعية، حيث يسود ظاهرة الصمت والقطيعة التواصل داخل الأسرة الواحدة، والعيش في عوالم افتراضية؛ لذلك نستطيع القول إن اللغة في زمن العولمة وسط موج التدفق اللغوي مهددة بالاندثار، نتيجة إشكالية التواصل اللغوي، ونحن بحاجة لحماية لغتنا .

وأوضحت زهراء المبارك: بعض المفردات قديمة جداً من عمر الوجود البريطاني وقبله البرتغالي، وبسبب التجارة من الهند وإليها، وكذلك الألفاظ بعض الكلمات الفارسية، ذلك بسبب العلاقات البشرية التي تؤكد فهم بعضها بعضاً من خلال التخاطب، وقد تطغى بعض الكلمات على غيرها لكثرة التداول، وحضورها في المعاملات، وخصوصاً أن المصطلح الرديف لدينا يعتبر غير حاضر في الكلام المحكي. أما الكلمات المستحدثة الجديدة الدخيلة، فهي نتيجة حتمية لتغير نمط حياة المجتمع، والتعامل مع وسائل التواصل الاجتماعي، وكذلك الاختلاط في الجامعات والأعمال، وتأثير المدارس الخاصة في الأجيال، والتربية الأسرية التي تتعامل

أ. شيماء الوطني

مع الطفل كريبوت يحفظ ويتحدث ويتخاطب بلغة غير لغته، وهذا في رأيي تسطيح للهوية التي يلحظ على الأجيال الجديدة تبايناً واضحاً في العلاقات والتعامل، وعدم استطاعتهم تكوين علاقات مجتمعية، ما يجعل بعض أفراد المجتمع في حالة عزلة مستقبلاً، فضلاً عن دور منصات التواصل الاجتماعي.

وبيّن عباس القصاب: إن تداخل المفردات غير العربيّة على لغتنا ليس بأمر طارئ عليها، فهذه الظاهرة طبيعية تنتج عن تلاقي الحضارات والأمم، وتلاقحها، وتظهر مدى التفاعل الأممي الذي ينبئ بحيوية هذا المجتمع أو ذاك، ولغتنا العربيّة لم تنج من هذا التداخل، بدءاً من تشابك اللهجات العربيّة فيما بينها، ثم دخول الألفاظ والكلمات الأعجمية، وذلك ما توقف عنده علماء اللغة في دراسة بنية الشعر الجاهلي لغوياً، وبعد ذلك مباحث القرآن الكريم والسنة النبوية، وأحاطت بها المعاجم العربيّة ذات الثقل العلمي الوازن، ويكفينا وجود عدد من الألفاظ غير العربيّة التي جاءت في القرآن الكريم كحالة طبيعية على الرغم من اتساع اللغة العربية وشمولها. إلا أن طبيعة هذا التداخل اليوم تشكل تهديداً للهوية العروبية، حيث تشكل اللغة أحد أهم عناصر الهوية الجامعة للأمة، وما يمكن أن يؤدي هذا التزاحم بين اللغات في مجتمع ما إلى انزياح اللغة الأم؛ ما يؤدي إلى خطر محدق على الأجيال القادمة، إن تغلغلت اللغة الأجنبية بمفرداتها وألفاظها كبديل للغة الأم، وتفرضها علينا من خلال التركيبة الديموغرافية في المجتمع، أو ما تفرزه وسائل التواصل الاجتماعي، وهذا سينتج جيلاً منفصلاً عن أمته، متبرئاً من هويته، متبرماً من ثقافته، وقيمه، ومبادئه، وبذلك تكون ثقافتنا العربية معرضة للإلغاء أو الانكفاء؛ لتكون ثقافة الخاصّة من الناس لا كلهم، وهذا يكفي لاضمحلالها.

أما عباس عبدالله فقال: في مجتمعنا البحريني خاصة، وهو الذي ولدنا وترعرعنا فيه، كنت منذ الصغر كأي فرد يماثلني سناً، ألتقط المفردات من أفواه الأكبر سناً مني، سواء في البيت أو في المدرسة أو في الشارع، ومن ثم أتداولها للإشارة بها لما تعنيه حتى أصبحت من المسلّمات عندي، ولكني حين خضت مجال الكتابة، وما تتطلبه لتطوير أدواتي وكذلك شروط بعض جهات النشر، وجدت نفسي أمام موج متلاطم من الكلمات الغريبة الدخيلة على اللغة العربية من لغات أخرى هندية وفارسية وإنجليزية، بل تركية أيضاً، وقد كنت أحسبها عربية أصيلة، ولكنها بلهجة أهل القرى لذلك لا يتفقون جميعهم على المفردة ذاتها في تسمية بعض الأشياء. حتى اكتشفت أننا نستعملها على علتها ودون أن نعرّبها، وقد جاءتنا نتيجة تعامل آبائنا وأجدادنا مع جاليات تلك الدول، سواء في الحضر أو في السفر، وسهولة التحدث معهم فنقلوها لبيئتهم العربية، وسرت بين أفرادها، رغم توافر التسمية العربية، ويسر نطقها وتداولها، وعلى سبيل المثال لا الحصر، خاشوقة، وهي لفظة تركية تعني ملعقة. وهناك ألفاظ كثيرة جاءت من الهندية والفارسية والإنجليزية.

السؤال الثاني: كيف يمكن لعاداتنا وتقاليدنا التي تربينا عليها الصمود أمام التطور التكنولوجي في حياتنا اليومية؟

بدأ جعفر الهدي مجيباً عن السؤال: لا شك في أن التطور التكنولوجي أحد التحديات، ويتمثل هذا التحدي من خلال إدخال كثير من المصطلحات والتعابير للغة

أ. جعفر الديري

العربية، وهذا يؤكد ضرورة الاهتمام بجوانب القوة الدائمة للغة، ومن بينها العادات والتقاليد، وإحياء الموروث الحيوي المجدد للغة، ذلك لا يعني أننا نطالب بالجمود على المصطلحات القديمة التي لم يعد لها أي أثر أو فائدة في الحياة، ولكننا نعرف أن العادات والتقاليد ركيزة من ركائز حيوية اللغة وديمومتها.

وبيّنت شيماء الوطني: في البداية، وقبل أن نشرع في وضع خطط مستقبلية للحفاظ على العادات والتقاليد، علينا أولاً أن نكون واقعيين، وأن نبدأ في غربلة كثير من موروثاتنا التي لا تتناسب مع هذا العصر، وبعد ذلك إما أن نطورها بما يتناسب مع متطلبات العصر، أو نحاول إيجاد أرضية مشتركة مناسبة، وخصبة تتعايش فيها العادات والتقاليد مع متطلبات الحياة العصرية بمرونة ودون أن يلغي أي طرف الآخر.

وعلق عباس عبدالله: إن أكثر ما أثرت فيه التكنولوجيا وتطورها في عاداتنا وتقاليدنا في حياتنا اليومية، هو الانفتاح على العوالم الأخرى، والاطلاع على ثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وحياتهم اليومية. مع قلة غياب التواصل المباشر بين أفراد المجتمع واعتماد السواد الأعظم على الرسائل النصية أو الصور والمقاطع المرئية في تعاملهم مع الآخرين. وأوضحت زهراء المبارك: لا أرى تعارضاً مع بقاء العادات والتقاليد في موازاة التطور التكنولوجي، بل العمل الحثيث على تكنولوجية العادات والتقاليد (والقصد هنا جعل التكنولوجيا أداة طيعة لترسيخ ونشر العادات مع تحديثها)، ولا ننكر أن تحديثها وإدخال بعض الطقوس أو الفعاليات من هنا وهنا جعل منها عادات هجينة، ولكن حرص المجتمع على بقائها؛ لأن في الغالب هي عادات أصيلة لها مناسباتها الدينية التي يرتبط بها المجتمع ارتباطاً وثيقاً، ما جعل هذه العادات تتكرر كل عام، وينتظرها الجميع، ويعد لها برامج خاصة، ولها طقوس معروفة في كل دولة، بحسب طريقتهم وعاداتهم، وهي عادات جماهيرية يتشارك فيها الجميع.

ورأت آية سيد حميد أن: التطور التكنولوجي وجد ليخدم الإنسان، فيفترض أن تستخدم التكنولوجيا في الحفاظ على هذه العادات والتقاليد، بنشرها والتباهي بها، وتثقيف الناس عنها، وليس بإحلال أشياء أخرى محلها، فهي ستصمد إذا امتزجت مع هذا التطور، أما جعفر الديري، فقد بيّن إن العادات والتقاليد تمتلك في داخلها عُنصري البقاء والفناء، فمتى كانت منسجمة مع الطبع الإنساني السليم، ضمنت لنفسها البقاء، أما إذا كانت صادرة بفعل الجهل وقصر النظر فالأولى بها أن تموت، كما نجده في عادات وتقاليد بعض القبائل الهمجية، أما كيف نحافظ على عاداتنا وتقاليدنا المستمدة من تراثنا العربي والإسلامي، فسبيل ذلك التعليم والتثقيف، وسبق أن قرأت سيرة رفاعة رافع الطهطاوي الرائد الكبير فوجدته دائم القلق على أبناء المحروسة من الجهل والأميّة المتفشّيان، على رغم ما أحدثه عهد محمد علي باشا من نهضة عمرانية؛ لأنه كان يرى أن عمارة العقول أولى بالاهتمام، ومن شأن التعليم أن يخلق أجيالاً واعية بلغتها العربية وقيمة تراثها وحضارتها، فلا تنسلخ عنه، بل تهضم الجديد، وتستفيد منه في بنائها وتكاملها.

وعلق عباس القصاب موضحاً: وفقاً لما سبق لا يمكن لنا أن نتساهل في التعاطي مع هذا المشكل أو تجاهله باعتباره ظاهرة طبيعية، ونغض الطرف عن مآلاته

أ. زهراء المبارك

الخطرة، حيث إن عاداتنا وتقاليدنا، لا يمكن أن تصمد طويلاً أمام الطفرة التكنولوجية المتسارعة التي استحوذت على سير حياتنا، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من سلوكنا، وخصوصاً المتعلقة بالاتصال، وتناقل المعلومات والأفكار والمشاعر أيضاً، وهذا التغلغل التكنولوجي له كبير الأثر في إعادة التشكل اللغوي لدى الفرد والجماعة، بحيث ظهرت ألفاظ غير عربية، تخمرت في اللاوعي، وأصبحت جزءاً من استعمالاتنا اللغوية، حتى أصبحت مفرداتها كأنها من صميم اللغة العربية، وبذلك اندرس كثير من العادات والتقاليد الموروثة وانطفأ أوارها، ولنعترف أن عاداتنا وتقاليدنا لم تعد باستطاعتها مقاومة التحديث، إلا في التراث المادي بصورة نسبية، وتكون بالمحاكاة والتقليد الظاهري، بينما الاستعمالات اللغوية التراثية في ضوء التلاقح الحضاري أمست شبه مختفية إلا بين كبار السن، وفي بطون الكتب التراثية المتخصصة. إن التحديث اليوم يجتاح كل المجالات الحياتية؛ حيث تبرز بعض الاتجاهات الفكرية والفلسفية، وأخص منها الحداثية التي ترى ضرورة اللحاق بقطار المعاصرة، وترك الماضي حتى لا تتسمر أقدامنا في وحل التخلف، بينما هنالك تيار آخر يدعو إلى التأصيل والالتزام بالأصالة والرجوع إلى الموروثات الشعبية التي تعزز الهوية الأصيلة والثقافة العربية بمعناها العام.

وعلقت زكية شبر قائلة: يعتبر التراث والثقافة من أهم أعمدة الحياة، وروح البقاء لأي شعب من الشعوب، فالتراث وحدة أساسية قابلة للتغيير، ولكنها ليست قابلة للفناء، فالتراث هو العناصر المتناقلة من جيل لآخر، الشفاهي الذي يشمل (الحكاية والشعر والأغاني) والحضاري من إبداعات الشعوب، وإن الحفاظ عليها هو حفاظ على روح الوطن والشعب، ويكون الحفاظ على الموروث الثقافي والشعبي عن طريق دراسته وتحليله وتفسيره، فقد أصبح هذا الموروث في ظل العولمة والتكنولوجيا يحتاج لجهود من الباحثين والدول لتسويقه ونقله من بلد لآخر، وقد تواجهه معوقات، منها قلة الإمكانات والموارد البشرية، والقوى الكبيرة المؤهلة والمدربة، ومقومات مادية وتكنولوجية لجمع وتصنيف وأرشفة وتوثيق التراث وإعادة صناعته وإخراجه من الإطار التقليدي إلى نماذج تطبيقية، وذلك من خلال تسويق التراث ونشره، ويمكن أن نعطي مثالاً على الصين، قدمت نماذج من فولكلورها وموروثها الشعبي عبر التسويق له. وهناك دول لم تستثمر تراثها بشكل جيد.

إن التراث والموروث الثقافي يحقق للفرد حاجات ضرورية لا تتحقق إلا ضمن بنية ثقافية ذات استمرار وتجديد، وذات ممارسات ومعايير تجعل هذه التقاليد والأعراف تنتقل من جيل لآخر عن طريق التربية والنظم والقوانين، وبذلك تصبح العادات الاجتماعية ممارسات حياتية يومية، نماذج يتبعها أعضاء المجتمع، ويتمثلونها ويتكيفون معها؛ لذلك تصبح للمعايير الثقافية القدرة على حفظ رمزيتها، وهذا ينطبق على الموروث الشعبي، إن الثورة الرقمية أصبحت جزءاً من الحياة اليومية، وتغلغلت إلى أدق تفاصيل الحياة؛ لذلك ظهرت أهمية استخدام الثورة الرقمية لتوفير قاعدة معلوماتية واسعة، سهلت الحصول على المعلومات، وقدمت فرصة ذهبية لكل الشعوب للمشاركة، وتقديم أرصدتها الحضارية والثقافية، عن طريق نشر تراثها وموروثها الشعبي، وبالتالي إعادة إنتاج ونشر

د. عباس القصاب

الموروث الثقافي، ليتم تقديمه كسلعة ثقافية لها دور رئيس لبناء حالة ذهنية كمصدر للمعرفة.

السؤال الثالث: ما الطرائق التي تمكننا من التلاقي والتواصل بين عاداتنا والعادات الدخيلة؟

بادرت زهراء المبارك بالقول: نحتاج إلى عملية انسجام وإذابة وتناسق وتلاقح، لكيلا تكون العادات الدخيلة نشازاً في حضرة العادات الأم، بل التطور مطلوب.. والتحديث جاء بما يتماشى مع رؤية أجيال جديدة، والتغير الطبيعي لحالة المجتمعات، حاولت الأجيال الحالية ومن سبقها، تبتكر وتكتشف جماليات بعضها، وأخذ إضافات من مجتمع مغاير ومختلف، وأصبحت لازمة لعاداتنا وتقاليدنا، التي كرست نتيجة وعي المجتمع ورغبته في الحفاظ عليها ما أمكن، ومع وجود طرف مجتمعي بإمكانه التطوير والإبداع بشكل تراثي مستحدث.

وشاركها جعفر الديري مؤكداً بالقول: في كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز، يكشف الطهطاوي عن تواصله المباشر مع الفرنسيين، حين تم ابتعاثه للدراسة هناك، فكتب عن كل ما وقعت عليه عيناه، وكل ما وصل إلى علمه، من عاداتهم وتقاليدهم وآدابهم، كذلك تواصل مع تراثهم وثقافتهم وتاريخهم، من خلال ترجمة مؤلفات مفكريهم وكتّابهم، فحاول أن يبين العادات الحسنة لدى الفرنسيين، وذكر إسهام المرأة الفرنسية على وجه الخصوص، لكن رفاعة لم يكن يملك ما يمتلكه أبناء اليوم من وسائل تواصل وتلاقٍ، ومنها الكتاب الإلكتروني، وهو هبة ربانية ونوع من التواصل والتلاقي بين كتّاب وقرّاء من الشرق والغرب، فعلينا في رأيي القاصر أن نقوم بالرحلة نفسها التي قام بها الطهطاوي، دون أن نتجشّم عناء المشقّة التي لاقاها، فنحن نستطيع السفر والتعرف إلى عادات الناس وتقاليدهم، ونحن في بيوتنا، نستطيع التأمل فيها ودراستها، وتطويرها فكراً وعملاً، أمّا أن أغلق علي بابي، وأقول إن كل ما لدي من عادات وتقاليد يكفيني، فأمر لا ينفي أن لدى الآخرين المختلفين عادات وتقاليد حسنة يمكنني الاستفادة منها.

أما عباس القصاب، فقد تطرق إلى أنه من طبيعة المجتمعات الإنسانية حدوث التغييرات الإيجابية أو السلبية فيها، وهنا يختلف المنظار الذي يشخص به حقيقة ذلك التغيير، ولا يمكن الفصل فيه بسهولة، حيث إن المجتمعات تنقسم على نفسها في تعاطيها مع التحديث أو التأصيل، وربما يتراشق أبناؤه بقساوة في تفسير ظاهرة التغيير الاجتماعي، وتصل إلى حد الاتهامات المتبادلة في مقاربة، ما يحدث على المستوى الثقافي، ما يستدعي ذلك إيجاد مخارج للتلاقي والاتفاق، بحيث يعمل على وضع صيغة توافقية تأخذ بالتحديث مع المحافظة على ثوابت الأمة وأسسها، وعدم الاستعجال في ترسيم ثقافتنا؛ حتى لا تنشأ ثقافة هجينة تائهة بين التأصيل والتحديث، وعدم التزمت في التعاطي مع البنى الثقافية المتقابلة، وإلغاء المختلف، بل يسعى المعنيون بهذا الجانب من مختلف الرؤى إلى أن يعدوا الدراسات البحثية العلمية الرصينة، بتعدد أشكالها؛ لتكون بمثابة مرجعيات موضوعية يستفيد منها الجميع في تعزيز العادات والتقاليد المجتمعية السليمة المتناغمة مع التحديث باستعمال كل الإمكانات المتوافرة، ومواجهة العادات أو فلنقل بصورة أدق السلوكات الدخيلة، بإيجاد البديل المناسب أولاً الذي لا يتعارض مع ثقافتنا وعاداتنا

أ. عباس عبدالله

وتقاليدنا السليمة، وهذا لا يتم إلا عن طريق التوعية المكثفة بمختلف الوسائل التكنولوجية والإعلامية المتاحة التي تصل إلى كل فرد بطريقة لبقة مناسبة لجيل اليوم، ومقنعة له.

وأشارت شيماء الوطني: لابد لنا من تحديد ما سيعود علينا من فائدة وراء ذلك التلاقي والتواصل، فليس كل تواصل قد يعود علينا بفائدة، بل إن بعض ذلك التواصل قد يؤدي إلى نتائج عكسية تؤدي إلى التغريب والبعد عن الأصالة، وتترك المجتمع بمن يعيش فيه في حالة أشبه بالمسخ، وبلا هوية واضحة. ولعل أفضل طريقة لذلك أن نأخذ من العادات الدخيلة ما يعزز من عاداتنا الأصيلة دون أن يغيرها أو يلغيها، ولا يكون ذلك إلا بأن نعتز أولاً بعاداتنا، ولا نتنكر إليها أو نخجل منها، وأن نعتبرها جزءاً من هويتنا، وما يميزنا، وبالتالي نحافظ عليها وفي الوقت ذاته نعززها بما يتناسب مع روح العصر. وقدم عباس عبدالله مداخلته حول السؤال قائلاً: لم أفهم هذا السؤال جيداً، لكنني سأجيب حسبما أظنه يأخذني. فالعادات الدخيلة لا نسعى نحن للتمكن من التلاقي معها، بل هي تأتينا كالغزو الذي نحذره ونسايره مجبرين لنخرج منه بأقل الضرر؛ وأضرب لذلك مثلاً، حين نجد أن أبناءنا يهوون الألعاب الرقمية التي تجتاح عالمنا وتحاصرنا دون أن نستطيع تجنبها نلجأ لتحجيمها عبر تخصيص وقت محدد لممارستها في أوقات فراغهم، وفي الوقت ذاته ندعوهم ونحثهم على ممارسة ما اعتدنا عليه من رياضات وألعاب حركية. ونوفق وقتنا بينها. ومثال آخر ربما يعزز الفكرة التي أريد إيصالها، قد يعجب أمرؤ في بلاد قصية بما هو بعيد عن عاداته وتقاليده فيطوعه ليتناسب مع ما تربى عليه في مجتمعه، قبل أن ينقله لوطنه؛ كي يتقبله أفراد مجتمعه، ولا يحاربونه عليه.

وتؤكد زكية شبر أنه يتم التواصل بين الثقافات ضمن عملية تبادل المعلومات، وكسر الحواجز الثقافية مع المحافظة على الاحترام المتبادل للثقافات الأخرى، لقد هيأت تكنولوجيا الاتصال والنقل فرصاً للالتقاء والتواصل، فالبرامج الرقمية والعولمة قللت من التنوع الثقافي، ومن أهم مهاراتي التواصل بين الثقافات هو فهم الثقافة الأخرى ثم التعاطف، وهو أمر يتطلب القدرة على تبني وجهة نظر الآخر، واتباع اللامركزية، وإدراك الفروقات بالتأقلم مع المجموعات المتنوعة ثقافياً، كذلك التسامح والمرونة الإدراكية والتكيف مع ظروف وآراء الآخرين واحترام الفروقات.

كما بينت آية سيد حميد، أنه يجب أن نأخذ من العادات الدخيلة الجيد، ونرفض السيئ أو الذي يتعارض مع عاداتنا، كما يجب تعزيز عاداتنا في كل المحافل كالمدارس، وفي الاحتفالات والمناسبات والأمسيات، بل حتى في بيئات العمل إن أمكن كي لا يغفل عنها الكبار، ويكتسبها الصغار، وفي الوقت نفسه عقب جعفر الهدي قائلاً: هناك طرق متعددة للتلاقي والتواصل بين عاداتنا الحسنة والحيوية والعادات الآتية من الثقافات الأخرى، ومن أبرز طرق التواصل، البحث عن القواسم المشتركة بين عاداتنا وعادات الجاليات وإبراز عاداتنا وتقاليدنا بطريقة واعية وصحيحة، بحيث يتمكن الوافد والمقيم من فهم معاني هذه العادات ومضامينها، ومن المهم أيضاً أن نحرص على إحياء العادات والتقاليد في عقول الأجيال القادمة، ليس لمجرد ممارسة هذه العادات، وإنما لجعل هذه العادات جزءاً من حياتنا.

العادات وتحول المجتمع

د. فهد حسين
أكاديمي وناقد - البحرين

ربما يتساءل البعض عن طبيعة عادات الناس وتقاليدهم وأعرافهم التي يمارسونها يومياً، سواء تلك التي لا تزال في محراب الشفاهية، أو التي دونتها الكتابة، وباتت في سجل التاريخ المتجدد، هل هي قيم ومبادئ؟ هل هي سلوكات وممارسات؟ هل هي أفكار وتطلعات؟ هل هي حالات مجتمعية اجتماعية وثقافية؟ أو هي ماذا؟ .

وبالإمعان في طبيعة كل هذا، سنجد أنها تدخل في فضاء كل هذه التي ذكرت وغيرها، إذ لا يمكن لأي إنسان العيش في مجتمع هو في الأصل مكون من بشر يمارسون حياتهم وفق معطيات ومتطلبات تم الاتفاق عليها ضمنياً من قبل أفراد تعيش في مجتمع واحد أو في مكان واحد، وممارستها تعد نوعاً من التواصل الاجتماعي والثقافي والحضاري بينها؛ لذلك لا يوجد مجتمع إنساني أو حتى الكائنات الأخرى إلا بوجود عناصر تكوينية تشكل الحياة بين الأفراد، وتسهم في بناء المجتمع، وتكشف ضمن العلاقات فيما بينها عن طبيعة التواصل وعوامله التي تشيده وتبنيه. من هنا وهناك عادات وتقاليد متفق عليها بين أبناء المكان الواحد، وبين الجنس الواحد، وبين الكائنات ذات الخصائص المتقاربة أو المتشابهة.

وقد بيّن علم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا أن الإنسان اجتماعي بطبعه، واجتماعيته هذه تأتي من تلك المعارف والعادات والتقاليد والأعراف التي استقاها ويستقيها كل يوم من معين الحياة الاجتماعية والثقافية التي تتعدد روافدها، وتتنوع صلاحية ما تقدمه للفرد، ومدى قبول هذا المجتمع أو ذاك من هذا المعين، الأمر الذي جعلنا نحاط بالعديد من الأعراف والمعارف، نمارس بعضها، ونتمثل بعضها الآخر، ونقيس طبيعة حياتنا على بعضها الثالث، ونقتبس من رابعها ما يصلح لمواصلة يومنا، بالإضافة إلى تلك المعارف الثقافية التي كلما تشربناها استطعنا أن نغربل ما نمارسه من عادات، وما ننشره من ثقافة، حيث لا ينبغي على الإنسان أي يفقد ما بناه الأولون والأجداد والآباء، وما قدموه عبر حياتهم التي كونت خبراتهم وتجاربهم، إنما المحافظة على هذه المكتسبات من جهة، واكتساب معارف وقيم وأعراف جديدة من جهة أخرى، إيماناً بأن كل هذه المكتسبات هي ذات صفة مسبية، وخاضعة للتغيير كلما تطور المجتمع وتلاقى مع الآخر وامتزج معه وأخذ منه.

ولكن مع تمسكنا بما لدينا من عادات وتقاليد، لايزال التباين بين الأجيال في المجتمع الواحد ماثلاً بين الحين والآخر، كلما دار حديث عن عادات المجتمع وممارسة التقاليد والأعراف، وكأن لسان الحال يقول: كان جيلنا في الماضي أفضل من جيلكم، كانت حياتنا أفضل من حياتكم، كانت الحياة بسيطة وليست معقدة كما هي الآن، كانت الصداقات والعلاقات الاجتماعية أفضل كثيراً مما هي عليه الآن، كانت أبواب البيوت قديماً مفتوحة، الزيارات سهلة من دون تعقيد بين أفراد الحي الواحد، أما الآن فكل شيء بات معقداً وصعباً، بل حتى التعليم يقول الجيل السابق: نحن الأفضل، على الرغم من القسوة والشدة التي يمارسها المعلم ضد طلبته، وغيرها من العادات والسلوكات والمعارف، وهذا أمر طبيعي بين البشر، حيث كل مرحلة زمنية يعتقد ممثلوها أنها الأفضل وأنهم الأجدى بالمسؤولية وبناء المجتمع، وأن عاداتهم هي التي صنعتهم هكذا رجالاً أقوياء قادرين على مواجهة أي عراقيل في الحياة.

إذا كنا نؤمن بمبدأ التغيير والتحول، فإن ما كان في الماضي ليس شرطاً أن يكون في حاضرنا، ولا في المستقبل؛ لأن المجتمعات هي مجتمعات ديناميكية، تتصف بالحركة والديمومة المتغيرة، وهذا يأخذنا للتواصل مع الآخر الذي كان بيننا أو كان بعيداً في المكان؛ أي حتى أفهم طبيعة تلك اللغة التي يتحدث بها رجال الماضي، وأعي طبيعة ثقافاتهم وحالاتهم الاجتماعية، أن أغوص في حيثيات هذه الفترة الزمنية، والوقوف على ما أنتجته من معارف، وما شكلته من عادات وتقاليد تمكنت في تلبسها في عقول ووجدان هذا الجيل أو ذاك، وهنا ليس المعني مجتمعاً معيناً، بل أي مجتمع إنساني سبق الجيل الحالي، بمعنى أن التواصل مع الثقافات الأخرى، ومع الحضارات الإنسانية المختلفة، ومع الشعوب والملات والطوائف والمذاهب والديانات السماوية والوضعية، يشكل عتبات مهمة للتواصل، ومن المؤكد أن المجتمعات المتواصلة فيما بينها تأخذ من بعضها بعضاً، وبخاصة بعد الثورة المعلوماتية والتكنولوجية، والتواصل الاجتماعي الافتراضي الذي قرب المسافات وقلل من مساحة الزمن، وعدد التنوع في العلاقات الاجتماعية والصداقات بين الأفراد، من هنا فالتواصل أياً كان نوعه ثقافياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو رياضياً، سيكون له الأثر، ولكن هذا الأثر قد يكون سلباً في المستقبل، وقد يكون إيجاباً، إذ يعتمد على قيمة الذي تم استقباله، وأهميته في حياة الإنسان الذي كان محتضناً إياه، وأرسله، أو عرضه للآخر.

ولو أخذنا اللغة على سبيل المثال التي نتحدث بها، وقلنا إن دخول مفردات غير عربية يسهم في ضعف لغتنا أو تهجينها، وهذا أمر في اعتقادي غير سليم؛ إذ علينا أن نفرق بين دخول مفردات في معجمنا اللغوي، وبين مفردات غير عربية بات وجودها أمراً ضرورياً لا مناص منه، وبين مفردات يتداولها بعض الشباب المراهق ادعاء وغطرسة وتفوهاً بين الأقران أو عند نواصي الشوارع، أو في المقاهي ومحال تجمعهم؛ لهذا نحن لا نخاف من تلك التي تدخل من أجل جعل لغتنا لغة عالمية أو منتشرة بين الأقوام والشعوب، كما كان في القديم، وفي القرون السابقة كما هو في تلك العلاقة الثقافية والفكرية بين الحضارة العربية والحضارات الأخرى، كاليونانية والرومانية والفارسية والهندية، أو ما برز بشكل واضح عبر وسائل الإعلام البسيط في القرن التاسع عشر، وما ظهر في القرن العشرين، ومدى انتشار العديد من المفردات التركية بحكم السيطرة العثمانية على العالم العربي طيلة القرون الأربعة، تلك المفردات التي أصبحت من مفردات اللهجات والكلام اليومي في بلاد الشام والعراق ومصر، بل حتى عادات اللباس والهندام.

ولكن الأمور بدأت في التلاشي والضمور والانتهاء، بحكم قوة اللغة العربية، وصلابة مفرداتها، وأهميتها بالنسبة إلى الإنسان العربي، كما هو حاصل اليوم بعد انتشار المدارس الأجنبية الخاصة في كل بقاع العالم العربي، وتعدد اللغات الأجنبية التي يتعلمها الطلبة العرب، ويمارسونها تحدثاً في حياتهم اليومية، بل نادى البعض خائفاً في بعض المؤتمرات الخاصة باللغة العربية بضرورة مواجهة الخطر الذي تقوده فئة الشباب التي أدخلت بعض الأرقام والحروف الأجنبية في كتاباتهم وخطاباتهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي، لكن هذه الظاهرة وإن استمرت فسيأتي اليوم الذي يعيد الفرد التفكير في مواجهة توظيفها كل حين طالما لدينا القدرة الثقافية والمعرفية والوجدانية تجاه لغتنا، فلا خوف عليها مما يمارسه الشباب غير الواعي تجاه لغته.

وهذا يقاس على العادات والتقاليد التي تربينا عليها، وجاءتنا بالتواصل من الآباء والأجداد، هل ستكون مندثرة في يوم من الأيام، ونعيش على فتاتها التي نراه في بعض المناسبات؟ إنني أرى عكس ذلك تماماً، فطالما آمنا بأن لنا تراثاً كبيراً وضخماً وقيماً، وفيه من الزاد المعرفي والاجتماعي الذي يطوّر الإنسان ويحافظ عليه من سقطات الزمن، فستبقى العادات ماثلة أمامنا في كل حين، وهناك أمثلة كثيرة في المجتمع حاول أصحابها أن يؤقلموا بعض العادات بحسب التحولات التي تطرأ في المجتمع، وها نحن قبل أيام ودعنا شهر رمضان المبارك، وقد تفاعلنا مع عادات وتقاليد وممارسات كانت ولاتزال موجودة في هذا الشهر منذ خلقنا، وقد رأينا آباءنا يتفاعلون معها ويمارسونها، مثل: افتتاح مجالس الذكر، التواصل الاجتماعي ليلاً الذي يأخذ طابعاً مختلفاً عن أشهر السنة، الأكلات التي لا نراها كثيراً إلا في هذا الشهر، طبيعة الحياة في الشوارع والأمكنة، الملابس التي ترتديها النساء، فرحة الأطفال بالنصف من رمضان (قرقاعون)، توزيع بعض الأكلات بين بيوت الجيران، ومع كل هذا هناك تغير في أمور أخرى، كإعداد بعض الأكلات الشعبية التي كانت تعد من قبل الأمهات في البيوت، أصبح إعدادها في المطاعم، كذلك إعداد سفرة الفطور التي كانت بسيطة قديماً، أمست متنوعة الأكلات وفيها ما لذ وطاب من المشروبات (أنواع من العصائر، والمياه المعدنية، والمشروبات السكرية)، وتلك الأواني التي تتغير بين عام وآخر، وغيرها، كما تغيرت عادة تناول السحور الذي لم يعد في المنازل عند كثير من العائلات، بل يأتي عن طريق الطلبات الهاتفية التي قربت المسافات، وقللت من الزمن، وخففت من الأعباء الجسدية اليومية التي كانت تعانيها النساء طوال الشهر.

وهناك ممارسات أخرى بعيدة عن شهر رمضان، مثل تغير بعض عادات وطقوس الزواج، فإذا كان للخطابة دور مهم، وكذلك الداية المعنية بالفرشة وترتيبات العرس وليلة الدخلة، قبل ثلاثين عاماً أو أكثر، لم يعد هذا الطقس منتشراً كثيراً بين العائلات، وكذلك التعليم الذي كان محصوراً على الذكور بحكم عادات وتقاليد المجتمع، بات التعليم لكل أبناء المجتمع مكفولاً بحكم القوانين والتشريعات والدساتير، وخروج المرأة للعمل، إذ أصبحت تخوض غمار كل مجالات الحياة، بعيدة عن أعمالها المنزلية. وهذا يعني أننا نرحب بالتلاقي مع عادات الشعوب، ومع التحولات والتطورات في المجتمعات الإنسانية، لكن لم يكن هذا الترحيب عشوائياً، أو بعيداً عن الدراسة والتحليل والفحص، وفي الوقت نفسه نحافظ على ما لدينا من موروث تاريخي وشعبي وثقافي مع غربلته بين الحين والآخر لنجعله متفاعلاً ومتواصلاً مع الآخر.

لا ينبغي لنا رفض ما يأتي من الآخر إلا بعد فحصه ودراسته وتحليله، وبيان مدى أهميته بالنسبة لنا، وانعكاساته على أفراد المجتمع، وعلى البنى الاجتماعية والثقافية، ومدى التوافق في ممارسته وغيرها، ثم نأخذ ما يتوافق ومنهجياتنا وطرائقنا وتطلعاتنا، ومدى الانسجام مع ما لدينا من أطر تحمي عاداتنا وتقاليدنا، وتشكل أعرافنا، فنحن لا نرفض دور التكنولوجيا مثلاً في حفظ التراث، ونشره وتداوله، ولا نرفض حفظ مروياتنا الشفاهية، فهذا العالم الافتراضي أعطانا مجالاً رحباً، لكي نعيش حياة أخرى نتفنن فيها ونربط ماضينا بحاضرنا وبمستقبلنا، وفي الوقت الذي نعمل على تدوين هذا التراث وحفظه من الضياع، نعمل أيضاً على دراسته وتحليله ومقارنته بالتراث الإنساني الآخر، هكذا علينا أن نؤمن بأهمية التطور التكنولوجي وعلاقته بالتراث الإنساني، وما يقوم به المشتغلون.

علاقة الطارف بالتليد

د. مهدي الشموط
محاضر لغة عربية
في كليات التقنية العليا

تشكّل العادات والتقاليد في المجتمعات العربية ركناً شديداً، وحصناً منيعاً، يحتمي به التراث وحماته من لوثة الحداثة التي تحاول أن تعصف بكل قديم، تحت مزاعم التطور والنهضة التي يحاول أدعياؤها أن يبدؤوا من منطلق القطيعة مع الماضي، ويعتمدوا على الانطلاق من جديد ونسيان الماضي، والتنكر إليه؛ بدعوة أن التراث وأنصاره كانوا سبباً في تخلّف الأمة وتراجعها، ما يدفع أنصار التراث ومريدوه إلى أن يصفوا من ينكر التراث بالابن العاق الذي يتنكر لأصله ووالده وآبائه.

ومن الجدير بالذكر أن علاقة الطارف بالتليد من العلائق التي بقيت محط اهتمام عند النقاد والشعراء منذ القدم؛ فانقسموا إلى فريقين: فريق يتحيز للقديم لأصالته وعراقته وتفتق المعاني فيه، وفريق يتحيّز للجديد الذي ينطلق دون التفاتٍ للماضي الذي أصبح تكراره عيباً في نظر بعضهم، ولابد من التجديد في الخطاب العربي شعراً ونثراً على مستوى الشكل والمضمون.

ربما يكون ما سبق مدخلاً للحديث عن العادات والتقاليد التي تواجه تحديات كثيرة مقابل العادات الدخيلة التي تسربت إلى أبنائنا وبناتنا وتشبّعوا بها، نتيجة التطور التكنولوجي وقدرة الأجيال على التواصل مع غيرهم، ما نتج عنه دخول عادات دخيلة إلى المجتمعات العربية التي لم يعرفها جيل الآباء ممن لم يسافروا إلى الغرب، ولم يشاهدوه؛ فقديماً كانت العادات الدخيلة تأتي إلى المجتمعات العربية عن طريق الاستعمار، ومن خلال المستشرقين والرحّالة الذين ينقلون عادات الشعوب إلى غيرهم، ويشيرون من طرف خفي إلى انتقاد تلك العادات والتقاليد، واعتبارها حجر عثرة في وجه التطور، وأن الأجيال الحديثة يجب أن تكون (open mined) كي تفكر خارج الصندوق، مستشهدين لذلك بالتطور الغربي الذي كان ثورة على القديم بكل ما فيه، حسبما يظنون.

وكي تصمد العادات والتقاليد في وجه العادات الدخيلة لابد من أن تشير إلى أن قوة الحاضر تأتي من الماضي، وأن الأمم الناضجة هي التي تحافظ على عاداتها وتقاليدها، وتأخذ النافع وتترك الضار، وليس أدل على

ذلـك مـما فعلـه النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في خطبـة الـوداع، عندمـا قـال: «وإن مآثـر الجاهليـة موضوعـة غـير السـدانة والسـقاية»، وقولـه أيضـاً «إنما بعثتُ لأتمم صالـح الأخـلاق». فالسـدانة والسـقاية كانتـا مـن أهـم العـادات التـي تنظـم مواسـم الحـج، ولهـا طقوسـها الخاصـة مـن سـقاية الجيـج وخدمـة البيـت الحـرام؛ لذلـك اسـتثناها النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مـن المآثـر المتروكـة، وأبقـى عليهـا، وكأن ذلـك إشـارة منـه، عليـه السـلام، إلى أن نأخـذ مـن الـتراث الصالـح ونـترك الفاسـد. وهـذا بالطبـع إشـارة إلى أن المجتمعـات الواعيـة حـين تُغـيّر يكـون التغيـير في الفاسـد فقـط، والإبقـاء عـلى الصالـح والمحافظـة عليـه.

أمثلة على العادات التي تواجه عادات دخيلة:

كثرت العـادات الدخيلـة عـلى المجتمعـات العربية، بـدءاً من أعيـاد الميـلاد وعيـد الأم، وعيـد الحـب إلى الأكل والـشراب، فصـارت كثـير مـن الأسر تعتمـد في طعامهـا عـلى الوجبـات الجاهـزة كالبيرغـر والشـاورما، وغـير ذلـك مـما نتـج عنـه تغـير في نمـط الحيـاة مادياً ومعنوياً، فقـلّ الاجتـماع على المائـدة، وعمـت الفـوضى الأسر؛ فأصبـح لـكل فـرد ميولـه الخـاص في الأكل والـشرب؛ فصـار «سـتاربكس» المـكان الأكـثر لقـاء بـين الكبـار والصغـار، وأصبحـت الأمريكانـو والإسبرسـو والكبتشـينو مـن المشروبـات المفضلـة، ثـم انتقلـت العـادات الدخيلـة إلى قـص الشـعر والملابـس، وهـذان الحقـلان خطـران بنظـري؛ لأن المظهـر فيهـما يعـبر عـن الجوهـر؛ فأصبحنـا نحكـم عـلى الشـخص مـن لباسـه وقصـة شـعره، ثـم انتقلـت العـادات الدخيلـة إلى عـادة الحديـث بلغتـين معـاً (عربيـزي)، وقـد شـكا كثـير مـن الآبـاء تعلّـق أبنائهـم باللغـة الإنجليزيـة، وعزوفهـم عـن الحديـث بالعربيـة، مـا اضطـر الجهـات الرسـمية إلى ضرورة إطـلاق مبـادرات منهـا «بالعـربي أجمـل»، وإلـزام المـدارس والجامعـات تدريـس مسـاقات تنطـق بالعربيـة كاللغـة العربيـة والثقافـة الإسـلامية والدراسـات الإماراتيـة، ثـم انتقـل الموضـوع إلى أبعـد مـن ذلـك، وهـو تسـويغ الخطـأ تحـت مسـمى الحريـات (حريـة الطفـل، حريـة المـرأة، حريـة التديـن)، وهـذا المثـلث بنظـري حـق يـراد بـه باطـل، فالعـادات تعلـم الأطفـال احـترام الكبـير وتوقيـره، والحريـة بنظـر المروجـين لهـا تريـد للطفـل أن ينسـلخ مـن عاداتـه، ويتمـرد عـلى أهلـه ومدرسـه ومجتمعـه، والعـادات أيضـاً تحافـظ عـلى المـرأة واحتشـامها، والعـادات الدخيلـة تريـد لهـا الخـروج مـن أسرتهـا، والديـن فيـه أوامـر ونـواهٍ، جـاءت لمصلحـة المجتمـع، وعـلى مـن ينكـر علينـا تلـك العـادات أن يعلـم أنهـا تناسـب العـربي المسـلم، وهـي مـن المسـلّمات التـي لا يجـوز إنكارهـا، وعلينـا أن نحترمهـا ونقدرهـا، وهـذا بالطبـع يقودنـا إلى السـؤال المحـيّر وهـو: هـل تصمـد قيـم الـتراث التقليديـة في وجـه التطـور الراهـن، ومـا يشـهده العـصر مـن تسـارع كبـير في التكنولوجيـا التـي عمقـت الفجـوة مـا بـين القديـم والجديـد؟

والإجابـة عـن هـذا السـؤال بدهيّـة: نعـم، ولكـن؛ أي أنهـا سـتصمد، ولكـن صمودهـا يحتـاج إلى جهـود جماعيـة تقـوم عليهـا مؤسسـات ورجـال لا يلهيهـم بريـق الحداثـة عـن واجـب الـتراث، وحمايـة المـوروث مـن أيـدي العابثـين، وليـس أدل عـلى ذلـك مـما تفعلـه دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة، مثـلاً مـن العنايـة بـ«السـنع»، والاهتـمام بالعـادات، والإبقـاء عـلى اللهجـة المحليـة، والانطـلاق منهـا إلى اللغـة العربيـة الفصيحـة، وربـط الحـاضر بالمـاضي، مـن خـلال المراكـز المعنيـة بالـتراث، وتشـجيع دراسـته والكشـف عـن المعـاني الجميلـة فيـه، وحاجـة الأجيـال الواعـدة إليـه؛ فهـو الحبـل المتـين الـذي يربـط الأجيـال بأرضهـم، ويعلمهـم أن الآبـاء قدمـوا الغـالي والنفيـس للوصـول إلى هـذا الواقـع الجميـل الـذي يعيشـونه.

ومـن المهـم أن نشـير إلى الجهـود الرسـمية التـي تتبناهـا إمـارة الشـارقة، وكان آخرهـا - حسـب علمـي - منـح دبلومـات في الـتراث الثقـافي (وهـو مؤهـل مهنـي يعنـى بجمـع وصـون وتدويـن الـتراث الثقـافي غـير المـادي، وكذلـك الـتراث العمـراني، وإدارة المتاحـف، وترميـم المخطوطـات وصيانتهـا)، مـن معهـد الشـارقة للـتراث؛ وهـي دراسـات متخصصـة تمنـح الـدارس فرصـة قـراءة الـتراث بعمـق وتدويـره، وإعـادة إحيائـه؛ لنتعلـم منـه الـدروس كي لا ننـسى أن وراء كل عـادة موروثـة قصـة نجـاح كان الأهـل يفعلونهـا بدافـع الحاجـة، ومـن أمثلـة ذلـك: الكـري ورحلـة المقيـظ وأكلـة الهريـس، وكل ذلـك يحتـاج منـا إلى أن نؤصـل لـه، كي يبقـى علامـة فارقـة أن رحلـة الوصـول سـبقها تعـثر، وربمـا سـقوط ثـم نهـوض، ثـم إصرار ثـم عمـل، ثـم متابعـة، وأن الأمـم الحيـة هـي التـي تعنـى بماضيهـا وتجـدده وتحافـظ عليـه، وتنطلـق منـه وتتمثـل قـول القائـل:

فخير الناس ذو حسب قديم
أقام لنفسـه نسباً جديدا
وشـر النـاس ذوو خمـولٍ
إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا

وهـذا يضعنـا أمـام مسـؤولية الكشـف عـن مواطـن الجـمال في المـاضي، والجلـوس كثـيراً مـع الأجيـال الحديثـة؛ لنعلمهـا أن الوفـاء للـتراث لا يعنـي التخلـف والرجعيـة، وأن العـادات الدخيلـة عـلى مجتمعاتنـا تصلـح لغيرنـا، وربمـا لا تصلـح لنـا، وأرى أن ذلـك يحتـاج إلى كثـير مـن القناعـة والإصرار والإيمـان بـأن الحيـاة تراكميـة، وأننـا يجـب أن نبـدأ مـن حيـث انتهـى الأجـداد، فنكمـل مسـيرتهم، ونحافـظ عـلى إرثهـم، ونبقـي عـلى أثرهـم؛ فالحسـب الجديـد الـذي أشـار إليـه الشـاعر يعنـي تكملـة مـا بنـاه السـابقون بعيـداً عـن المفاخـرة بالمـاضي، مـع الركـون إلى مـا بنـاه الآبـاء، والاكتفـاء بمـا فعلـوه، فكـم تـرك السـابق للاحـق مـن أشـياء تحتـاج إلى نظـر وتبـصر ووفـاء وعزيمـة، تجعـل العلاقـة بـين الطـارف والتليـد في أبهـى صـورة، وأجمـل حلـة!

التراث والتآخي مع العصر

خالد صالح ملكاوي
باحث وإعلامي - الأردن

يخطئ من يحشر التراث في قوقعة ماضويته، واعتباره عنصراً جامداً، يُخشى عليه من أي هبوب رياح العصر الذي يناصبه وهم العداء، في ثيمة إشكالية تعيش منذ عقود طويلة، متجاهلاً أن ثمة حياة تكمن في جوهر التراث، لا يلمس شغافها إلا من آمن بأن حياتنا نحن - البشر - تزهو وتزدهر حين نحتضن الماضي والحاضر معاً، نبحث في مكنوناتهما وعن مختلف عناصر عيشنا وتطور حضارتنا، وتأصيل هويتنا، فالتراث حي، وهو مورد متجدد، له حيويته التي تدلف بدينامية إلى مفردات العصر ومجالات الحياة فيه، فنجني ما نؤسس به للمستقبل.

ليس من الصعب علينا أن نرى في العلاقة بين التراث والمعاصرة في مختلف جوانبهما علاقة عداء أو قطيعة، بل هي لن تكون، ولا ينبغي أن تكون، لاسيما أن الوسطية التي تحملها أمتنا منهجاً ثابتاً في كل مناحي حياتنا، وتجعل منها ميزاناً دقيقاً نزن به أمورنا كلها، إنما هي منهج ثابت ننطلق منه في كل جوانب حياتنا العلمية والفكرية والفلسفية والتطبيقية. فنحن لا نتعصب للقديم لمجرد قدمه وأصالته، ولا نسلم زمام سيرورتنا للتقليد الأعمى دون إمعان النظر فيما ينقل إلينا أو يلقى علينا، ولا يمكن أيضاً أن ننسلخ من هذا التراث العريق أو نقف منه موقف القطيعة، ونعمل في الهواء الطلق، فمن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل، بل علينا أن نأخذ من الماضي بتراثه العريق النافع والمفيد الذي ننطلق به في الحاضر، ونؤسس به للمستقبل. وفي الوقت عينه، فإنه لا يمكن أيضاً أن نرفض المعاصر لحداثته، وأن ندعو إلى الانكفاء على الذات والتقوقع حولها، فثقافة أخرى تعني عقلاً آخر، وإضافة جديدة، ولا بد من إعمال الفكر وإمعان النظر في كل ما هو عصري، فنأخذ منه النافع والمثمر والمفيد، وما يشكل إضافة حقيقية لثقافتنا، ويتناسب مع قيمنا وأخلاقنا وحضارتنا، ونتجاوز ما لا يتسق مع هويتنا الثقافية وقيمنا الراسخة.

ولا تنفصم عرى التراث بالعصر؛ فالحفاظ على التراث والتاريخ له تأثيره على الحياة العصرية عبر تعزيز التفاهم الثقافي والتعاون بين الثقافات المختلفة، وتشجيع السياحة الثقافية وتطوير قطاع السياحة في المجتمعات التي تمتلك تراثاً ثقافياً غنياً. كما يمكن أن يحفّز الحفاظ على التراث والتاريخ على الابتكار والإبداع وتطوير مهارات جديدة في مجالات مختلفة، مثل الصناعات اليدوية والتجارية والفنية، ويقود حركة عمرانية لبناء المتاحف والمراكز الثقافية، كما هي الحال في الإمارات العربية المتحدة، إذ نشهد سلسلة من المتاحف ذات المعالم العمرانية المميزة، مثل متحفي اللوفر وجوجنهايم في أبوظبي، ومتحف الشارقة للحضارة الإسلامية، ومتحف المستقبل في دبي.

وثمة أمم غير أمتنا اتخذت من المنهج التوفيقي بين التراث والعصر سبيلاً في سيرورة عيشها وتطورها، ونجحت في التوفيق بين التراث والعصر، فحافظت على هويتها الثقافية، وفي الوقت نفسه حققت تقدمها التكنولوجي والاقتصادي.

وقد تكون الأمة اليابانية مثالاً واضحاً في ذلك؛ فاليابان تعد واحدة من أفضل الأمثلة على كيفية الحفاظ على التراث والعصر في الوقت نفسه؛ إذ تحافظ على جلّ تقاليدها القديمة وحرفها اليدوية وفنونها وكثير من طقوسها وعاداتها، وتحتل مركزاً متقدماً في مجال التكنولوجيا والابتكار والاقتصاد المتطور. فهذه الأمة قررت وسعت إلى اعتماد تراثها العريق أساساً ومنهجاً لبناء شخصية الفرد والوطن هناك. وبالفعل تحقق لها ما تريد؛ فحققت في زمن قياسي من التطور والنماء والتحديث ما لم تحققه أمة أخرى. وبحسب المؤرخين والمختصين، فإن هذا لم يكن ليتحقق وبهذا الإدهاش لو لم يتمسك اليابانيون حكومةً وشعباً بالموروث التراثي الياباني الضارب في عمق التاريخ.

وتعد كوريا الجنوبية واحدة من الدول الرائدة في مجال التكنولوجيا والابتكار، بينما تحتفظ بثقافتها التقليدية الغنية. كما تتميز فرنسا بثقافتها الفريدة والغنية، وتعتبر العاصمة باريس واحدة من أشهر المدن السياحية في العالم، إذ يتم الاهتمام بشكل خاص

بالمعـالم التاريخيـة والفنـون التقليديـة، ويتـم الحفـاظ عليها بدقـة. فيما تمثـل الإمارات العربيـة المتحـدة مثـالاً مشرقـاً في التوفيـق بـين الـتراث والعـصر، حيـث تعتـبر دولـة ذات ثقافـة غنيـة وتاريـخ قديـم، بينـما تحتـل مكانـة رائـدة في الابتـكار والتطـور التكنولوجـي.

هـذه الأمـم اسـتطاعت أن تثبـت أنـه يمكـن تنسـيق علاقـة الـتراث مـع العـصر، عـبر التحفيـز عـلى الإبـداع والابتـكار في تعزيـز الـتراث، وجعلـه جـزءاً حيويـاً مـن حياتنـا المعـاصرة، وذلـك باسـتخدام الـتراث مصـدراً للإلهـام والابتـكار في مجـالات مختلفـة، مثـل الفـن والعـمارة والتصميـم والموضـة والطعـام والأدب، وغيرهـا مـن المجـالات الإبداعيـة، بمـا يسـهم في الحفـاظ عـلى الـتراث وتعزيـزه في المجتمـع، وفي الوقـت نفسـه يغـدو معـه الـتراث مكونـاً حيويـاً ومبتكـراً في حياتنـا المعـاصرة، سـيما عندمـا يتـم اسـتخدام الـتراث بطريقـة مبتكـرة ومسـتدامة، إذ يمكـن أن يصبـح الـتراث جـزءاً أساسـياً مـن الثقافـة والاقتصـاد والسـياحة وغيرهـا مـن المجـالات المهمـة في العـصر القائـم.

توازن المعالم التراثية العصرية

تعتـبر كل مـن المعـالم التراثيـة والمعـالم العصريـة جـزءاً أساسـياً مـن تـراث البشريـة، وتعـبر عـن الثقافـة والتاريـخ والتطـور في مجـالات مختلفـة. غـير أن ثمـة تـوازن دقيـق بـين المحافظـة عـلى المعـالم التراثيـة وتطويـر المعـالم العصريـة، وهـو مـا يعـرف بتـوازن الـتراث والتطويـر. فلهـذه المعـالم دورهـا المهـم في تعزيـز الوعـي بالثقافـة والتاريـخ والهويـة الوطنيـة، وتحفيـز السـياحة الثقافيـة والاقتصاديـة، وتحسـين جـودة الحيـاة في المجتمعـات المختلفـة. لذلـك، يجـب الحفـاظ عـلى هـذه المعـالم وإدارتهـا بشـكل مناسـب، حتـى يمكـن للأجيـال القادمـة الاسـتمتاع بهـا والاسـتفادة منهـا. ولكـن، في الوقـت نفسـه، ينبغـي الاهتـمام بالمعـالم العصريـة، والتأكـد مـن أنهـا تحـترم الثقافـة التـي تقـام في مجتمعهـا.

وتتميـز المعـالم التراثيـة بجمالياتهـا الفريـدة وتصاميمهـا الفنيـة الجميلـة التـي تعكـس تاريـخ وثقافـة المنطقـة التـي تقـع فيهـا، كمـا تحتـوي هـذه المعـالم عـلى قيـم تعليميـة وتثقيفيـة وروحيـة تسـاعد عـلى الحفـاظ عـلى الـتراث، وتنقـل الخـبرات والحِكـم القديمـة للأجيـال الجديـدة. وإلى جانـب ذلـك، فـإن المعـالم العصريـة تمثـل تحـولاً مهـماً في التصميـم المعـماري والتكنولوجيـا، وتشـكل تجربـة جديـدة وممتعـة للـزوار. وبالإضافـة إلى ذلـك، فـإن المعـالم العصريـة يمكـن أن تكـون مرنـة وتتكيـف مـع احتياجـات المجتمـع الحديـث وتسـهل حياتنـا اليوميـة، إذ يتـم تطويرهـا لتلبيـة الاحتياجـات الحديثـة وتحسـين جـودة الحيـاة.

تعتـبر دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة مـن الـدول التـي نجحـت في المواءمـة بـين الـتراث والعـصر بطريقـة متميـزة، حيـث تمكنـت مـن الحفـاظ عـلى تراثهـا الثقـافي والتاريخي، وفي الوقـت نفسـه اسـتيعاب التقنيـات الحديثـة والابتكارات التكنولوجيـة، إذ هـي تتطلـع إلى مـشروع حضـاري شـامل يسـتوعب الحديـث دون إخـلال بالأصيـل، بمـا يحفـظ للوطـن وجـوده وللمواطـن هويتـه وللمجتمـع تماسـكه. وتسـجل مدينـة دبي تميـزاً في ذلـك، إذ تسـعى في نهضتهـا لإحـداث تـوازن بـين حـاضر الإمـارة وماضيهـا، لتعزيـز مكانتهـا الثقافيـة والحضاريـة والعصريـة جنبـاً إلى جنـب مـع حفـظ

الـتراث وصـون مفرداتـه، وتعـد المبـاني التاريخيـة أحـد أبرزهـا.

فتحقيـق التـوازن بـين الحفـاظ عـلى المعـالم التراثيـة وتطويـر المعـالم العصريـة يعـد مـن الأمثلـة البـارزة في تجسـيد التناغـم بـين الأصالـة والمعـاصرة، إذ يمكـن بنـاء مبنـى عـصري يتميـز بالتكنولوجيـا الحديثـة والتصميـم الفريـد بجـوار معلـم تاريخـي، واحـترام تصميـم المبنـى التاريخـي والحفـاظ عـلى شـكله الأصـلي. ومـن الأمثلـة الجيـدة لهـذا التـوازن، مدينـة دبي التـي تجمـع بـين المعـالم التراثيـة والعصريـة بشـكل متناغـم، فهـي تضـم بـرج خليفـة العالمـي، الـذي يعـد أعـلى بـرج في العـالم، وتضـم كذلـك معـالم تراثيـة مثـل بـرج السـاعة في ديـرة، وحـارة البسـتكية.

اللهجات العربية والمفردات الدخيلة

تعـد اللهجـات العربيـة مـن أبـرز المظاهـر الثقافيـة في العـالم العـربي، وهـي تشـكل عنـصراً مهـماً في الـتراث والهويـة العربيـة، وهـي جـزء لا يتجـزأ مـن الـتراث اللغـوي والثقـافي العريـق، وتعكـس هـذه اللهجـات تنـوع الحضـارات والتقاليـد في العـالم العـربي. ومـع التطـور التكنولوجـي وتزايـد التواصـل والانفتـاح الثقـافي، تزايـد اسـتخدام المفـردات الدخيلـة والأجنبيـة في الحديـث والكتابـة باللغـة العربيـة، وذلـك لتلبيـة احتياجـات المجتمـع الحديـث، وهـو مـا يثـير الكثـير مـن التسـاؤلات حـول صمـود اللهجـات العربيـة في وجـه هـذه المفـردات الدخيلـة.

وتختلـف اللهجـات العربيـة مـن بلـد إلى آخـر، وحتـى داخـل البلـد الواحـد قـد توجـد العديـد مـن اللهجـات المختلفـة، تبعـاً للاختلافـات الجغرافيـة والثقافيـة والتاريخيـة والاجتماعيـة. وعـلى الرغـم مـن تلـك التنوعـات، إلا أن اللهجـات العربيـة تشـترك جميعهـا في الأسـاس الـذي يجعلهـا قـادرة عـلى الصمـود في وجـه المفـردات الدخيلـة، فجميعهـا تشـترك في قواعـد لغويـة واضحـة، وتمتلـك مفـردات خاصـة بهـا. وبالتـالي، فـإن صمـود اللهجـات العربيـة يـأتي مـن قوتهـا ومتانتهـا، والتـي تمكنهـا مـن التكيـف مـع التطـورات الحديثـة في اللغـة العربيـة دون فقـدان هويتهـا وتميزهـا.

فاللغـة العربيـة هـي لغـة قديمـة تمتلـك قواعدهـا الخاصـة وهيكلهـا اللغـوي الـذي يتسـم بالمنطقيـة والتماسـك، وهـذا يجعلهـا قـادرة عـلى اسـتيعاب المفـردات الجديـدة والاندمـاج بهـا بشـكل سـلس دون التأثـير في هيـكل اللغـة الأسـاسي، فعـلى الرغـم مـن تعـرض اللهجـات العربيـة للتأثـيرات الخارجيـة عـبر العصـور، إلا أنهـا اسـتطاعت الحفـاظ عـلى هويتهـا اللغويـة، تبعـاً لأساسـها، اللغـة العربيـة، التـي تمتلـك ميـزة الانسـجام والتماسـك الداخـلي، إذ يمكـن لمتحـدثي اللهجـات المختلفـة في الـدول العربيـة التواصـل والتفاهـم بشـكل جيـد، وهـو مـا يشـكل مزيـداً مـن الصمـود والمتانـة لهـذه اللهجـات

الصراعات الثقافية والتحولات العصرية

د. أحمد علواني
كاتب - مصر

إن الثقافة هي الطرق أو الأنماط أو السلوكات التي يمارسها البشر، في حياتهم، وفي كلامهم، وفي أدبهم، حتى اعتادوها أو مارسوها وتوارثوها جيلاً بعد جيل، حتى صارت مرجعيات ثابتة، وتقاليد سائدة، ومن ثم فمن يخرج عليها يُعدُّ غريباً عنهم، أو مخالفاً لتقاليدهم وثائراً على أعرافهم وأنساقهم الثقافية.

وتمثل الثقافة عملية تطور فكري وقيمي وروحي وذوقي وفني تنعكس على الإنسان، حيث يرى مايك فيزرستون أن مصطلح الثقافة هو «مصطلح إشكالي جداً، إنه مفهوم خلافي بالضرورة، ويغطي مدى واسعاً من المعاني. إنه يستخدم بأشكال مختلفة ليشير إلى قواعد وأفكار ومعتقدات وقيم ورموز ولغات وشفرات.. وكذلك هي في الرأي الأنثروبولوجي «طريق كامل لحياة الجماعة، والناس، والمجتمع»، وبهذا المعنى الأخير (الثقافة) كطريق كامل للحياة «تحمل مجموعة عامة مشتركة من المعاني والعقائد والقيم بين الناس التي تتلاحم في كلٍّ متكامل»[1].

ولا شك في أن لكل عصر طابعه الخاص، وفي عصرنا الذي نحياه نشهد تغيّرات وتحولات في الثقافة والذوق، فقد تنوعت ألوان التحضر والتمدن في المجتمع. وظهرت تغيّرات اجتماعية وتحولات ثقافية، وامتزاجات ذوقية في المأكل والمشرب والملبس. فالثقافة الرسمية التي كانت تُعلي من شأن المثالية والتناسق والذوق الرفيع اختلطت وامتزجت بالثقافة الشعبية، ولا شك في أن الإعلام والدعايات والإعلان تلعب دوراً مهماً في التحفيز على هذا الاختلاط، وما نشأ عنه من انقلاب الذوق العام، وما يرتبط به من مظاهر الحياة العصرية من موضة ومظهر وفن وأثاث ومعمار ومفروشات.

لقد أصبحت العلاقات الاجتماعية تتحكم فيها الرموز الثقافية المتغيرة إلى حد أننا لم نعد نستطيع العثور عن نمط مثالي أو معياري نقيس عليه أو نلتزمه، حتى إن الثقافة الرفيعة أو ثقافة النخبة لم تستطع أن تحافظ على سمتها الأصيل، ولكن تم تهجينها بالثقافة الشعبية، فامتزجت الطبقة الأرستقراطية مع الطبقات الشعبية، وأخذت تشاركهم في أذواقهم الجماهيرية. ويظهر ذلك في الاحتفالات أو الكرنفالات والأعياد والمناسبات، وما تجلى فيها من تغييرات عكسية تخالف الثقافة الحضرية أو المدنية الرسمية الراقية.

والآن تتقاطع وتتناقض وتتعارض طرائق حياتنا اليومية مع عاداتنا وتقاليدنا، وأنساقنا الثقافية الرفيعة، فأصبحت ثقافتنا هشة أو سطحية أو ضحلة. فمثلاً إذا نظرنا إلى العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية فسنجدها سطحية، فاقدة جوهرها، لم تعد مبنية على مبادئ منظمة أو قواعد ثابتة. صارت الصلات والروابط

الاجتماعية تمجد الماديات، وتهتم بالمتع الحسية والمظاهر الجسدية، فانحرفت المجتمعات بذلك عن مراعاة الذوق الخاص والفكر، وركزت على السعادة الجسدية المباشرة من ملبس ومأكل ومشرب وجنس واحتفالات وكرنفالات شعبية.

وإذا نظرنا إلى الإعلام فسنلحظ أن وسائل الإعلام تحولت من منابر تبث الثقافة الرفيعة إلى منابر دعائية إشهارية وأبواق تروج للثقافة الاستهلاكية، فإذا نظرنا إلى التلفاز ــ وهو أبرز الوسائل الإعلانية عن السلع الاستهلاكية ــ فسنلحظ أنه صار لا يقدم لك معلومة مباشرة عن المنتج المعروض وحسب؛ بل يركز على تقديم صور خيالية تصور لك الحياة الواقعية في ظل هذا المنتج، وهو يحاول الترويج له من خلال الإعلان عنه بأشكال وأساليب جديدة، وغالباً تكون مقبولة؛ لأنها تصور للمُشاهد نمطاً حياتياً ممتعاً يظهر في الإعلان، وسيتحقق في ظل شرائه السلعة المعلن عنها.

لقد صارت وسائل الإعلام المتنوعة تركز على بث خطاب ثقافي شعبي استهلاكي، ما أدى إلى تشويه الذوق الراقي المثالي، وتدمير الأنساق الثقافية التقليدية أو محو الثقافة الرفيعة، وحدوث فوضى ثقافية، وهذا كله من ملامح عالم ما بعد الحداثة، فمن بين «الصفات أو الملامح النظرية الرئيسة المرتبطة بما بعد الحداثة في الفنون نجد محو الحدود بين الفن والحياة اليومية وانهيار التميز التراتبي بين الثقافة الرفيعة والثقافة الجماهيرية والشعبية، وخلط الأسلوب وتفضيل الانتقائية وخليط من الشفرات والقواعد؛ جد في هزل، مزج المختارات الأدبية، السخرية، الهزلية، واشتهار الثقافة السطحية الضحلة، وانحدار وتدهور الأصالة والعبقرية في الإنتاج الفني، وادعاء أن الفن يمكن أن يكون تكراراً فقط»[2].

إن الشخصيات العامة أو المشاهير ونجوم المجتمع من الرموز الاجتماعية المؤثرة في اتجاهات واختيارات النشء والشباب خاصة، ويظهر ذلك بوضوح أيضاً في التلفاز والإعلانات حيث يتم اختيار شخصيات مجتمعية من فنانين ومطربين ونجوم مشهورين يتحولون إلى أبواق إعلانية، وذلك من أجل تأييد وتعضيد السلعة المُعلن عنها؛ لأن ظهورهم لحظة الإعلان عنها سيساعد على الترويج للسلع والمنتجات الغذائية والملابس والمأكولات والمشروبات ومنتجات العناية بالجسد. فلم يعد الفرد/ المشاهد/ المستهلك - أمام كل هذه المؤثرات الثقافية - يسأل نفسه أي ملابس مناسبة

سيرتدي، بل صار منشغلاً بكيف يلبس الآخرون ليفعل مثلهم، وهنا يقلد دون وعي أو إدراك، ولكن يسير خلف موضة عالمية تدمر العادات والأعراف والتقاليد القومية في البلاد العربية.

صار المجتمع يتلقى كل ما يفد إليه، ويقلد دون وعي، ففي العروض المسرحية والغنائية، قديماً كان يتلقى الجمهور ما يشاهد أو يسمع من فن بروح مقدرة، فيتفاعل مع ما يسمعه أو يشاهده باستجابات تتصف بالانضباط والانتظام، ولا شك في أن استجابته تعكس ثقافته الرفيعة وطبقته الأرستقراطية، في حين أن الجمهور الآن تغير وتحول بفعل التحولات الثقافية، فصار عبارة عن غوغاء صاخبة، ترقص وتصفق وتصفر وتصيح وتهلل في ردود واستجابات همجية أو غوغائية، تعبر عن ثقافة ضحلة.

وفي الإعلانات التلفزيونية يتم إرسال رسالة مشفرة داخل الإعلان الذي لا يتعدى كلمات بسيطة يستقبلها المتلقي في ثوانٍ معدودات مثلاً: «استرجل و...»، «استمتع و...»، «قرمش...»، «هيخبطك...»، أو ... كل هذه الشفرات الإعلانية تحفز على ثقافة الاستهلاك، وغالباً تُعرض خلال متابعتك البرامج التلفزيونية المشهورة، أو أثناء الفاصل خلال بث فيلم أو مسلسل... صارت كل هذه الأشياء بمثابة ممارسات مسيطرة على منطق الإنسان، عندما يريد أن يلبس أو يأكل أو يشرب أو حتى يتكلم، وكل هذا يؤدي إلى الفقر الروحي

وطغيان اللذة بصورها وأنماطها المتنوعة، وهذا جعلنا نعيش في مجتمع هجين، فأفراده يرتدون أزياء غريبة، ويمارسون سلوكات دخيلة، ويوظفون في كلامهم مفردات أجنبية، ويقومون بأفعال متحررة من الالتزامات الدينية والاجتماعية.

كما أن المناسبات والأعياد الدينية صارت مناسبات استهلاكية، حيث ارتبطت هذه الأعياد في أذهان كثيرين بألوان معينة من الأطعمة والحلويات، فالعيد الأضحى يرتبط بأكل اللحم والفتة والكوارع، والمولد النبوي الشريف يرتبط بالحلوى وعروس مصنوعة من الحلوى (عروس المولد)... وبذلك انتصر الاستهلاك على الدين، وصارت المناسبة الدينية مناسبة استهلاكية.

إن أنساقنا الثقافية تتحدد بالقيم الدينية والأخلاقية، وتتأثر أيضاً بالعادات والتقاليد الاجتماعية، فمما لا شك فيه أن القيم الجمالية تلعب دوراً شديد التأثير في أنساقنا الثقافية، بل قد يتصادم العنصر الجمالي مع القيم الدينية والأخلاقية والعادات والتقاليد، ويظهر ذلك في سعي المرأة إلى تجميل جسدها؛ لأنها تنفعل بالجميل، وتحرص على أن تكون جميلة، خاصة إذا افتقرت إلى الملاحة الطبيعية، فهنا تجتهد لتصنع ملاحة شكلية، فتشتري مستحضرات التجميل، وتذهب إلى بيوت الأزياء، والكوافيرة لصناعة جمال جسدي، وبذلك تتصادم ثقافة التجميل للجسد الأنثوي مع قيم الدين، وما يحث عليه من احتشام وزهد.

(1) مايك فيزرستون: ثقافة الاستهلاك وما بعد الحداثة ـ ترجمة: أ.د. فريال حسن خليفة ـ مراجعة: أ.د. فتحي عبدالله دراج ـ مكتب الأسرة ـ سلسلة العلوم الاجتماعية ـ 2010 ـ ص253.

(2) مايك فيزرستون: ثقافة الاستهلاك وما بعد الحداثة ـ مرجع سابق ـ ص48.

«تراث العربية»

وتحديات العصر!

إيهاب الملاح
مدير تحرير سلسلة «عالم التراث»
الصادرة عن معهد الشارقة للتراث

-1-

أحب لغتنا العربية حباً جماً، وأراها من أجمل لغات الدنيا، وأثراها، وأبقاها أيضاً. أُنتج بها في وقتٍ من الأوقات ثقافة أصيلة وعظيمة في جوانبها الإيجابية، ومثلت حلقة أصيلة من حلقات الحضارة الإنسانية، أفادت مما سبقها، وأثرت فيما أتى بعدها من الحضارات التي استلهمتها، وتمثلت منجزها وطورته، ثم تجاوزته أيضاً!

وضمن إشكال «التراث والعصر»، أو تحدي قيم التراث الأصيلة والخصوصيات الثقافية في وجه التطور الراهن، وما يشهده العصر من تسارع مذهل وغير مسبوق في التطور التكنولوجي الذي عمق الفجوة ما بين القديم والجديد، تعترضنا قضايا وأسئلة عديدة، تتعلق بهذه العلاقة الملتبسة الشائكة بين هذا التطور المتسارع الذي يسم عصرنا في كل شيء، ويحيله إلى قرية كونية صغيرة عنوانها «العولمة»، والخصوصيات الثقافية والحضارية للأمم والشعوب المختلفة على وجه الكرة الأرضية.

قضايا عديدة ترتبط بحاضر اللغة العربية وإرثها، وفي غالب معالجة هذه القضايا يتسم الحديث عنها بكونه «أيديولوجيّاً» بامتياز، من دون التعامل معها باعتبارها لغةً حية متجددة متطورة مثل سائر اللغات في العالم، لها تاريخها الكبير والعريق، ولها حاضرها الواقعي المتعين، ويمكننا استشراف مستقبلها الزاهر إذا اعترفنا بالواقع التطوري للغة العربية، مثلها مثل غيرها من لغات الدنيا.

- 2 -

ومن بين تلك الأسئلة الشائكة ما يتصل بكيفية الحفاظ على إرث لغتنا العربية العريق الممتد، ومواكبتها التطور العصري، من دون إخلال ببنيتها ونظامها وخصوصيتها التي تكسبها تماسكها واختلافها وتمايزها عن غيرها من اللغات.

ومن بين هذه الأسئلة أيضاً ما يتصل بمواجهة تحديات صعبة، بل خطرة فيما يتصل بتطورها على مستوى التركيب والمفردات، وكذلك فيما يتصل باللهجات والمحكيات المتفرعة عن مستوياتها الفصيحة، فضلاً على الدعوات المتطرفة والانفصالية الخاصة باستبدال أشكال وتراكيب ومفردات وحروف (خارج الحرف العربي ومحدداته ونظامه) بالنظام المعروف الذي يعطي للعربية سماتها وخصائصها.. إلخ.

ففي ظني، لم تعد المسألة اللغوية ترفاً، ولم تعد قضية اللغة العربية وإرثها والاهتمام بها والعمل على ترسيخها في وجدان وعقول المتحدثين بها، مجرد شكليات أو استكمال مقررات دراسة أو «سد خانة»، كما كان يعتقد أو يظن البعض.

لقد أصبحت اللغة العربية قضية وجود حضاري وثقافي وهوياتي، خاصة بما تمتاز به من هندسة نظام وتركيب وتعدد وتنوع في إطار نظامها الحاكم، إنها الآن في بؤرة اهتمام وتركيز النخب الحاكمة والمثقفة في عالمنا العربي، وجمهور المتحدثين بها.

وليس أدل على ذلك من الاهتمام الكبير الذي توليه دولة الإمارات (وبخاصة الشارقة)، ومؤسساتها المعنية بالنهوض باللغة العربية (مجمع الشارقة للغة العربية)، والمحافظة على إرثها الزاخر، بالتوازي مع جهود تطويرها وإغنائها المستمرين عبر المجامع اللغوية

المختلفة وجهود الباحثين واللغويين والمهتمين في جميع أنحاء العالم العربي.

سنحاول أن نقارب في هذا المقال، والذي يليه، بعض التحديات التي تواجه إرث لغتنا العربية العريق، وسبل مواجهة هذه التحديات.

- 3 -

في البداية، ينبغي التأكيد على حقيقة مفادها أنه لا أحد يختلف على متطلبات التطور اللغوي وتحديث اللغة، من حيث تنمية الثروة اللغوية وتوسيعها بالقياس والاشتقاق والتعريب.. إلخ، وكذلك تحديث المفردات ومواكبة التطور العلمي والتقني والحضاري، كل هذا لا خلاف عليه فيما أظن. وربما يكون أحد أهم مظاهر طرق التفكير القديمة، هو عجزنا الواضح عن تطوير وتنمية لغتنا العربية في أهم ثلاثة محاور، هي: عمليات الإثراء المعجمي للغة، وعمليات التبسيط النحوي، وتنمية معاجم المصطلحات العلمية الحديثة، وتضمينها المعاجم العامة.

لكن المعضلة دائماً تكمن في الكيفية التي تتم بها هذه الأمور، خصوصاً أننا في حاجة ماسة وضرورية إلى النهوض بالتعليم في بلادنا نهوضاً جذرياً وحقيقياً وملموساً، وضمناً طرائق تدريس اللغة العربية وبرامجها المقررة، فجزء رئيس من المشكلة اللغوية عموماً تتعلق بالكيفية التي يتم بها وضع هذه البرامج فضلاً على تحديد الهدف منها والمستهدف بها.

وكذلك الشخص المؤهل لتعليم اللغة العربية، ليس لغويّاً فقط إنما ثقافيّاً أيضاً، واستيعابه علوم ومعارف العصر وتطوراته المذهلة، وانعكاس ذلك على طرائق تدريسه للعربية، والخروج من نفق اختزال اللغة في تدريس «النحو» فقط، والتركيز عليه باعتباره هو معيار الكفاءة اللغوية!

عندما تحدث العلامة ابن خلدون مثلاً عن النحو العربي، لم يكن يتحدث عنه باعتباره معرفة مطلوبة لذاتها، إنما باعتباره واحداً من أركان العربية الأربعة التي لا يكتمل الإلمام الصحيح إلا بها؛ أي أن ابن خلدون كان يمتلك النظرة الوظيفية التي نبحث عنها الآن! فالنحو ليس منفصلاً عن الصرف ولا الأصوات ولا المفردات، إنما تتضافر هذه المستويات بكاملها لإنتاج الدلالة أو المعنى، وهذا ما يجب أن نركز عليه في تدريسنا للغة العربية في مراحل التعليم الأساسي والثانوي (قبل الجامعي).

- 4 -

من ناحيةٍ أخرى يفرض السؤال نفسه: هل نحن حريصون على إشاعة ما تنجزه المجامع اللغوية العربية من توصيات وقرارات، وما تنشره من أبحاث ودراسات، خاصة في مجالات تيسير اللغة متناً وقواعد وكتابة ورسم

حروف، والتوسع في القياس والاشتقاق والتعريب، وصياغة معاجم لغوية في ضوء المنهج العلمي الحديث للتأليف المعجمي، ووضع معجماتٍ متخصصة في شتى العلوم والفنون والاهتمام بدراسات اللهجات؟

ويستتبع هذا السؤال سؤال آخر: متى يصبح للغتنا العربية معجم عصري، يستوعب جمعاً ميدانياً واسعاً للغة، يتضمن كل ما تم إنجازه في إطار لغتنا العربية عبر العصور، منذ أغلق باب الاستشهاد، وحرمت المعاجم والقواميس الآلاف المؤلفة من المفردات والمصطلحات والتراكيب التي جاءت نتيجة للتفاعل اللغوي والترجمة والتعريب والاشتقاق والتيسير والتوسع في الدلالة والاستخدام عبر قرون طويلة متصلة، مما تمتلئ به كتب الرحلات العربية، والعلم العربي، والفلسفة العربية، والإبداع الأدبي والثقافي العربي عبر العصور، ولم يتضمنه حتى الآن معجم أو قاموس!

قبل رحيله في واحد من اللقاءات التي جمعتني به في منزله، أخبرني الناقد والمجمعي الراحل الدكتور صلاح فضل (رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، أن هناك نشاطاً محموماً الآن يدور في معظم المجامع اللغوية، لجمع وتصنيف تراث اللغة العربية، ويأتي على رأس هذا النشاط مبادرة صاحب السمو حاكم الشارقة، الذي لولاه ولولا جهوده ما تم إنجاز ما يقرب من الأربعين مجلداً كاملاً من «المعجم التاريخي للغة العربية»، هذا المشروع القديم الذي أحياه سموه، وبتوجيهاتٍ منه جرى العمل على قدم وساق، وتم إخراج الأجزاء الـ34 الأولى (إذا لم تخني الذاكرة) على أن يتم إنجاز بقية الأجزاء والحروف خلال خطة زمنية تراوح بين ثلاثة وخمسة أعوام بحد أقصى.

- 5 -

لقد ظللنا سنواتٍ طويلة نفتقد هذا المعجم التاريخي، الذي يتتبع تطور الدلالة للكلمة منذ استخدامها لأول مرة، مستعيناً بالشواهد والنماذج التي ينطق بها هذا الاستخدام، وما طرأ على المعنى أو الدلالة من تغيرٍ أو تطورٍ. ومثل هذه المعاجم العصرية والتاريخية لا تنهض بها إلا الهيئات والمؤسسات الكبرى، لأن الجهد الفردي مهما بلغ حجمه وعظمت أدواته ووسائله يظل عاجزاً وقاصراً عن النهوض بمثل هذه الأعمال الجليلة، الباقية الجدوى والفائدة.

ولا ينفصل ذلك أبداً عن مواكبة المسار الموازي للمعجم

التاريخي للغة العربية، في صنع معجماتٍ عصرية حديثة تستوعب التطور اللغوي المذهل، وتضطلع بها اللجان المتخصصة في المجامع اللغوية العربية كافة، ذلك أن المجامع اللغوية لا تستأثر وحدها بخدمة اللغة، لأن لكل لغة حياة أطول وأعرض وأقوى وأنشط مما يجري في نطاق مجمع علمي أو لغوي، لها حياتها في البيت والمدرسة والجامعة والمنتديات، في الحقول والمصانع والشركات، في الأسواق والمتاجر، في المكاتب والدواوين، في الصحف والمجلات، في المسرح والسينما، في الإذاعة والتلفزيون ووسائط «السوشيال ميديا»، في كل تلك المجالات والدوائر تحيا وتتطور، تخلق وتبتكر، تسير مع الزمن وتحاول أن تسد حاجات العصر، ومتطلبات الحضارة، وعلى المجامع اللغوية العربية أن تتابع هذا السير وترقب خطاه، فتلاحظ وتسجل وتقرّ ما استقام من الألفاظ والتراكيب وترفض ما اعوجَّ...

(وللحديث بقية)

تراث الوداع في خطر..

كيف غيّرت التكنولوجيا أحزاننا؟

د. أحمد إبراهيم الشريف
كاتب - مصر

يستحق موضوع «التراث والعصر» قراءات ودراسات متعددة، وذلك لما استجد عليه، فقد تغير كل شيء في السنوات الأخيرة، فمنذ انتشرت التكنولوجيا، واتسعت دائرتها، ودخلت كل بيت لم تعد الأمور، كما كانت، فقد تأثرت حياتنا بشكل كامل، كل شيء تغير وتبدل فيما يتعلق بالحياة والموت، وكان التراث أول المتأثرين، خاصة التراث المعيش، الذي توارثناه عن آبائنا وأجدادنا، ومارسناه بوصفه «حياة»، ولعل أعظم التغيرات تلك المتعلقة بطقوس الزواج وطقوس الموت والفراق والوداع.

كان الوداع في صعيد مصر مرتبطاً بالحزن الذي يسكن القلب، والدموع التي تسقطها العين، والسواد الذي يصبغ ملابسنا، والصمت الذي يلازمنا، وانكسار العين، وتكشيرة الوجه، ومفارقة الابتسام، وانحناء الجسد، وعدم المشاركة في الأفراح والاتراح وتأجيلها، والزهد في الطعام والنساء، وكل ما يدل على الحياة، هكذا كان على مدى قرون طويلة.

والوداع نوعان، وداع سفر وغربة، ووداع موت وانتهاء، ولكل نوع منهما طقوسه؛ الأول يصحبه بكاء ونشيج، لكن يخفف منه ما يتم تبادله من رسائل مكتوبة تأتي كل حين، ويخفف منه أيضاً «أمل» بالعودة عن قريب أو بعيد، لكن مع هذا كان الأطفال الذين سافر آباؤهم للعمل متأثرين جداً، ويظهر عليهم أن شيئاً ما ناقص في حياتهم، وأن الأمور ليست على ما يرام.

أما فراق الموت، فكان يظهر أثره في حال أهله، ولا يفارقهم أبداً إلا بعد فترة طويلة، وما أن يستعيد البيت توازنه حتى يفاجأ بفراق جديد يجدد كل شيء.

طقوس الوداع في حال السفر والغربة

عندما نعرف بسفر قريب لنا، في البداية نفرح؛ لأن سفره سيمثل نقلة اقتصادية في حال الأسرة، فعمله سيساعد على تحسين الوضع المالي، لكن ما إن يقترب موعد سفره حتى يبدأ أهله في الشعور بالتوتر، وتبدأ أمه في البكاء، وتبدأ الزوجة التزام الصمت الحزين، وفي ليلة السفر، يتوافد الناس على بيته يسلمون عليه، ويحمّلونه سلامات وخطابات لذويهم الذين سبقوه إلى البلد المسافر إليه، وما أن يخلو البيت من الناس حتى يخيم جو قابض على كل شيء، ويسيطر حزن غريب، وبينما ينام الجميع تظل الزوجة والأم تمسحان دموعهما.

في الصباح عندما تأتي السيارة التي تقله إلى المطار، يبدأ البكاء ويرتفع صوت النشيج، ويمسك طفل صغير برقبة الأب لا يريد أن يفارقه، وتخرج النساء من البيوت يودعنه ويسلمن عليه، وتنطلق السيارة تثير التراب، بينما المسافر يعدهم ويؤكد أنه ما أن يصل حتى يرسل خطاباً يطمئن الجميع على حاله.

طقوس الوداع في حال الموت

أما في حال الموت، فإن الوضع يختلف بصورة كبيرة، فأهل الميت يعرفون أنه لن يعود مرة ثانية؛ لذا

لحظات قليلة ويخرج الميت من البيت، فيضج الجميع بالبكاء والعويل، وتندفع النساء من البيت خلف الميت لا يردن خروجه، ويتدخل أحد الرجال ليفصل بين النساء والنعش، ويسمح للنساء بمتابعة النعش حتى المسجد وصلاة الجنازة، بعدها يمنعن من مواصلة الرحلة للمقابر.

كان الرجال يستحبون في رحلة الميت إلى المقابر أن يسيروا به ويحملوا نعشه على أكتافهم؛ كي يحصلوا على الأجر والثواب من الله، سبحانه وتعالى، وفي أثناء رحلتهم يقف كل من يمرون عليه في القرى المجاورة، إن كان جالساً انتصب واقفاً، وإن كان يعمل توقف عن عمله، ويشارك في الجنازة حتى ولو لمسافة قصيرة، وفي أثناء كل ذلك يتقدم الجنازة رجل يحدو ويقول «الله الدايم هو الدايم ولا دايم غير الله»، ويردد الناس خلفه مثل قوله.

بعد عملية الدفن وطقوسها، التي تبدأ بإنزال الميت إلى قبره، بينما حفار القبور يستقبل الجسد، ويقول «اللهم صلِّ على سيدنا النبي»، ويعلو صوت بكاء النساء اللواتي استطعن أن يتبعن الميت، وينشج أقرباؤه من الرجال بالعويل، ويقول لهم الناس اصبروا وصابروا، وبعد إعادة التراب إلى القبر مرة ثانية، وقراءة الفاتحة والدعاء للمتوفى، يعود الناس إلى بيوتهم يقودهم الحزن، ويبدأ العزاء ثلاثة أيام بلياليها، لا

فإن حزنهم كبير، وألمهم أعمق، يبدأ الأمر بصرخة تطلقها امرأة مكلومة، دقائق قليلة ويتجمع أهل القرية جميعاً أمام بيت المتوفى، بينما يشتد الصراخ، فكل النساء القادمات ما أن يدخلن البيت حتى يرتفع نحيبهن، ويعلو صوتهن.

أما الرجال فبعضهم يدخل للمساعدة في الغسل، وبعضهم يذهب لإحضار الكفن والجلوس لتجهيزه، وبعضهم يذهب إلى المقابر للمساعدة في حفر القبر، وشخصان يدخلان بالنعش الخشبي، ويتركانه عند مدخل البيت، والمتبقون يجلسون في انتظار خروج الجنازة، بينما الأطفال يمرون على القرى البعيدة، كي يخبروا أقارب الميت بالخبر، وتتوالى الوفود القادمة تثير مزيداً من الصراخ والبكاء والحزن، وكل فترة ينطلق صوت في الناس «وحِّدوه»، ويرد الجالسون «لا إله إلا الله».

يتخللها سوى قراءة القرآن الكريم، بينما النساء في الجانب الآخر من البيت لا يتوقفن عن رثاء الميت بالقول الموزون «العديد»، وما يثيره من حزن وكآبة.

في الأيام الثلاثة يتوافد الجميع على العزاء، وأهل الميت يستقبلون الجميع، والناس تساعدهم في قضاء حوائجهم، هم لا يذهبون إلى أرضهم، ولا يفعلون شيئاً، يقوم الناس بذلك، وبعدما تنقضي الأيام الثلاثة يظلون في بيوتهم أياماً أخرى، وبعد فترة قصيرة يولمون وليمة يذبحون فيها، ويضحون ويطلقون على ذلك «كسر عظمة المتوفى»، وبعد أيام يذهبون كي يبنوا القبر، وهو يوم حزين آخر لا يقل عن يوم الوفاة نفسه.

ويظل أهل الميت، خاصة الأقربين له، أياماً قد تصل إلى سنة لا يعرفون للفرح سبيلاً، فكل ما يتعلق بالبهجة يتم تأجيله لما بعد «الحول»، وتدريجياً تعود الحياة كما كانت، حتى يفاجئهم الموت باختطاف أحدهم.

كيف غيّرت التكنولوجيا أحزان الناس؟

كل ما ذكرناه قبل ذلك تغير بصورة كلية، ففيما يتعلق بفراق السفر، صار التواصل أكثر، كما أن تعدد وسائل الاتصال قرّب المسافات بشكل كبير، وبالتالي فقد تراث الفراق في هذه النقطة الكثير، فوسائل الفيديو بكل تنوعاتها قضت على الشوق، والرسائل الإلكترونية قضت على الخطابات الورقية التي كانت ترسل تباعاً.

أما في حالة وداع الموت، فمع انتشار السيارات صار نقل المتوفى من البيت إلى المقابر لا يستغرق إلا دقائق، وبالتالي لم يعد الناس يسيرون بالمتوفى بين القرى، ويدعون له، ومع انتشار الهواتف صار الجميع يأتون للجنازة والمشاركة فيها دون الحاجة لمن يذهب إليهم ويخبرهم، ومع انتشار «السوشيال ميديا» لم يعد الناس في حاجة للمشاركة في العزاء، بل تكفي رسالة أو حتى تعليق على «بوست» منتشر لتأدية واجب العزاء، أما «عديد» النساء فقد انقرض تقريباً، وتحول إلى فولكلور.

العادات الجديدة في الوداع

واكتسب الوداع عادات جديدة دخيلة، وفقد تراثه القديم وخصوصيته التي كان يمتاز بها، واستطاعت العولمة بكل تفاصيلها أن تجعل الأمور متشابهة، فالجنازة تتم بسرعة، والعزاء اقتصر على يوم واحد، والبعض يكتفي بالعزاء على المقابر، وبعدها يذهب كل إنسان إلى عمله؛ ليقضي مصالحه، وصار الحزن بين الإنسان ونفسه، حسب أهمية الشخص الراحل.

نخلص من قراءة تراث الوداع إلى أن القيم التقليدية لن تصمد في وجه التطور الراهن، وما يشهده العصر من تسارع أحدثته التكنولوجيا، وأنه سوف يتحول إلى فولكلور يستحق الدراسة.

علي العَبْـدان
مدير إدارة التراث الفني
معهد الشارقة للتراث

مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ

من القرن الثاني حتى الحادي عشر الهجريّ

(الجزء السادس)

نتابع في الجزء السادس من هذه المقالة التعرّفَ إلى مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ، وذلك من خلال مرجعٍ مهمٍّ، هو كتاب (مصادر الموسيقا العربية) للمستشرِق الموسيقيّ الأسكتلنديّ هنري جورج فارمر، الذي يمُثّلُ ثَبَتاً لتلك المصادر، وهو المرجع الذي انتقيتُ منه المصادرَ التي رأيتُها مهمّةً في معرفة تطوّر الموسيقا العربية نظرياً وعمليّاً، وزِدتُ عليها تعليقاتٍ وملحوظاتٍ يسيرة، ووضعتُ تعليقاتي بين علامتَيْ تنصيص، كي أُميّزَها عن كلام فارمر، ونستكملُ هنا ذِكرَ أهمّ مصادرِ القرن السابع الهجريّ، ثم نبدأ في مصادر القرن الثامن الهجريّ

12- صفيُّ الدين عبد المؤمن بن يوسف الأُرْمَويّ البغداديّ (693 هـ / 1294 م)، كان هذا المؤلفُ أهمَّ كاتبٍ في علم الموسيقا منذ عصر ابنِ سينا وابنِ زيلة، وكان مُبتكِرَ المدرسةِ المنهجية في علم الموسيقا العربيّ، وقد اقتبسَ منه جميعُ مَن أتى بعدَهُ تقريباً، كما أُلِّفَ الكثيرُ من الشُروح على نظرياتِه، ومن كتبهِ المُهِمّةِ في هذا السياق، كتابُ (الأدوار)، ويُذكرُ في إحدى نُسخ هذا الكتاب أن الأُرمويَّ قد ألّفَهُ عامَ 632 هـ / 1235 م، وهذا يعني أن الأُرمويَّ قد كتبَهُ في شبابِه، إذ تُوفيَ عامَ 693 هـ / 1294 م، لكنّ فارمر رجَّحَ اكتمالَ تأليفِ الكتاب عامَ 650 هـ / 1252 م، عازِياً إلى إشارةٍ لذلك وَرَدَت في مجلة المجمع العِلميّ العربيّ في دمشق (3 / 366). وينقسمُ هذا الكتاب إلى 15 فصلاً، تتناول: 1. النغم، 2. الدساتين، 3. الأبعاد، 4. و 5. التأليف، 6. الأدوار، 7. حكم الوَتَرَيْن، أو الآلات ثنائية الأوتار، 8. العُود، 9. أسماء الأدوار المشهورة، 10. تَشارُك نغم الأدوار، 11. الطبقات، 12. الاصطحاب، 13. الإيقاع، 14. تأثير الأنغام، 15. مباشرةُ العمل، أو عزفُ الموسيقا. ثم ذكرَ فارمر أن المستشرِق درلنجر قد ترجمَ هذا الكتابَ إلى الفرنسية، ونشرَهُ في (الموسيقا العربية – 3) في باريس عامَ 1938. وأُضيف أن هذا الكتابَ

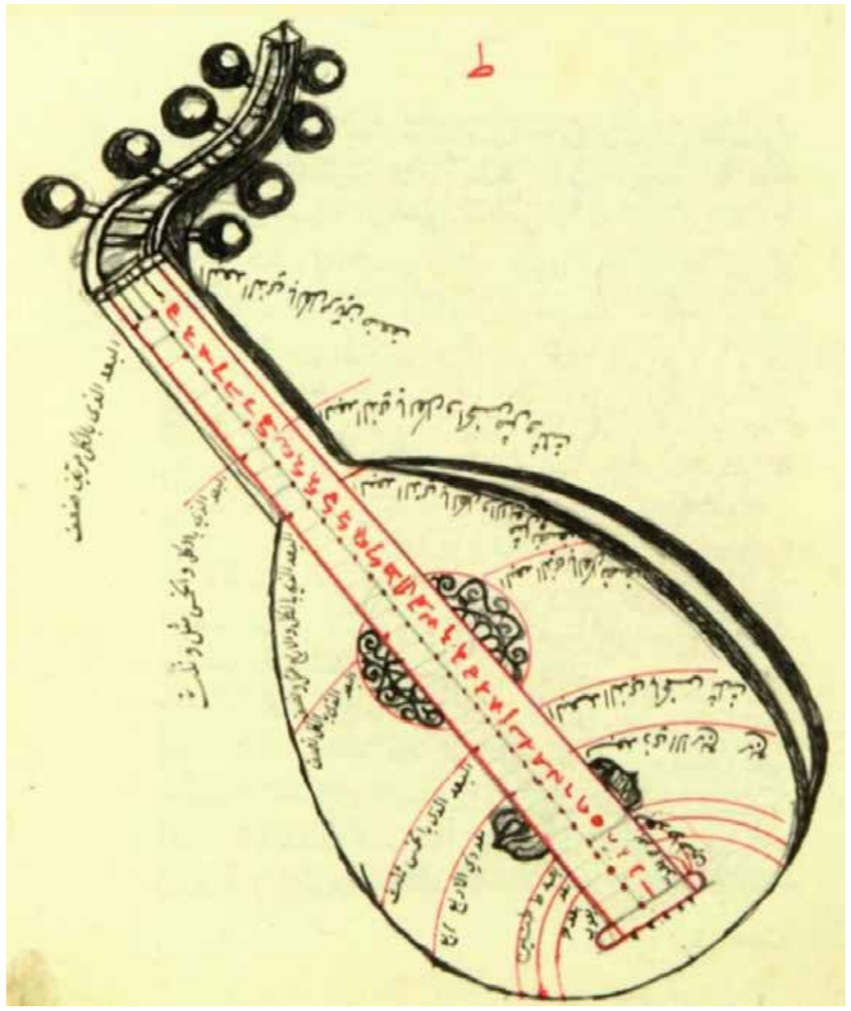

قـد تُرجِـمَ إلى الفارسـيةِ مـن العربيـة، لكـنّ المترجـمَ مجهـول، وحُقِّـقَ بعنايـة الأسـتاذ آريـو رسـتمي، ونُـشر مـن قِبـل (مركـز نـشر مـيراث مكتـوب) في طهـران بإيـران، كـما حُقِّـقَ مِـن قِبل الأسـتاذ غطـاس عبـد الملك خشـبة، بمراجعـة الدكتـور محمـود أحمـد الحِفنـي، ونشرتـهُ الهيئـةُ المصريـةُ العامـة للكتـاب في القاهـرة عـامَ 1986. وللأُرمـويّ كتـابٌ آخَـرُ مهـمّ، هـو (الرسـالةُ الشَرَفيّـة في النِسَـبِ التأليفيّـة)، كتَبَـهُ عـامَ 665 هـ / 1267 م تقريبـاً، لـشرفِ الديـن هـارونَ بـنِ شـمس الديـن الجُوَيْنـيّ، وزيـر هولاكـو، ومـن هنـا اسـتقت الرسـالةُ نَسَـبَها، وهـي تنقسِـمُ إلى خمـس مقـالات، تنقسِـمُ

بدورِهـا إلى فصـول، وتُعالِـجُ هـذه المقـالات: 1. قواعـد الصـوت، 2. الأبعـاد، 3. الأجنـاس، 4. الأدوار، 5. الإيقـاع، ووصـفَ فارمـر هـذه الرسـالة بأنهـا أكمـلُ مـن كتـابِ (الأدوار)، وقـد ترجـمَ درلنجـر هـذا الكتـابَ أيضـاً إلى الفرنسـية، ونـشرَهُ في (الموسـيقا العربيـة – 3) في باريـس عـامَ 1938، كـما حُقِّـقَ الكتـابُ أيضـاً مِـن قِبـل الأسـتاذ غطـاس عبـد الملـك خشـبة، ونشرتـهُ دارُ الكتـب والوثائـقُ القوميـة في القاهـرة عـامَ 2008.

القرن 8 هـ / 14 م:

1- محمـد بـن عمـر الشّـلاحيّ (تاريـخ التأليـف 701 هـ / 1301 م)، لـهُ كتـاب (الإمتـاع والانتفـاع)، ألّفَـهُ للسـلطان المرينـيّ أبي يعقـوب بـن أبي يوسـف بـن عبـد الحـق، ويتألـف مـن 119 ورقـةً مكتوبـة في نسـخَتِهِ الوحيـدة بمدريـد، ويصفـهُ فارمـر بأنـهُ أهـمُّ كتـابٍ عـن مشـكلةِ سَـماع الموسـيقا وصلـت إلينـا، إذ يحـوي اقتباسـاتٍ كبـيرةً عـن كلِّ عالِـمٍ بحـثَ في هـذا الموضـوع تقريبـاً.

2- أبـو الفضـل، جـمال الديـن محمـد بـن مُكـرَّم الشـهير بابـن منظـور (711 هـ / 1311 م)، هـو صاحـب المعجـم الشـهير (لسـانُ العـرب)، وقـد ألَّـفَ كتابـاً سـمّاه (مختـار الأغـاني في الأخبـار والتهـاني)، وهـو – حسـبَ فارمـر – مسـتعارٌ مـن كتـاب (الأغـاني) لأبي الفـرَجِ الأصفهـاني، مـع بعـض الزيـادات، ونقـلَ الأسـتاذ حسـين نصّـار مترجـم كتـاب فارمـر في الهامـش عـن حاجـي خليفـة أن ابـنَ منظـور رتّـبَ كتابَـهُ هـذا عـلى الحـروف.

3- قطـب الديـن محمـود بـن مسـعود بـن مُصلِـح الشـيرازي (710 هـ / 1312 م)، لـهُ كتـاب (دُرّة التـاج)، وهـو كتـابٌ كبـيرٌ في العلـوم، تُعالـجُ المجلـةُ الرابعـةُ منـه علـمَ الموسـيقا بطريقـةٍ رائعـةٍ حسـبَ وصـف فارمـر، الـذي يقـولُ أيضـاً إن المؤلِـفَ يقتبـسُ مـن صفـيّ الديـن الأرمـويّ، ويتبعـهُ في ترتيـبِ كتابـهِ أيضـاً، لكـنّ معالجَتَـهُ أكمـلُ مـن الأرمـويّ في كثـيرٍ مـن المواضـع. هـذا، ومـن المفـترَض أن يكـون ذِكـرُ الشـيرازيّ قبـلَ ابـنِ منظـور، بالنظـر إلى تاريـخ الوفـاةِ السـابق.

4- محمـد بـن عـلي بـن أبي الحسـن الخطيـب الإرْبِلـيّ (تاريـخ التأليـف 729 هـ / 1329 م)، لـهُ (جواهـرُ النظـام في معرفـةِ الأنغـام)، وهـي أرجـوزةٌ علميـةٌ عـن الموسـيقا، تنقسـمُ إلى فصـول تتنـاولُ مباحـثَ الموسـيقا كـما عرّفهـا وشرَحهـا الأرمـويّ، ونشرهـا الأب لويـس شـيخو اليسـوعي في مجلـة (المـشرق) في بـيروت 1913، كـما نشرَهـا أيضـاً عبـاس العـزّاوي في كتابـه (الموسـيقا العراقيـة في عهـد المغـول والتركـمان) عـامَ 1951.

5- أبـو العبـاس، أحمـد بـن عبـد الوهـاب بـن أحمـد النُوَيْـريّ (732 هـ / 1332 م)، لـهُ كتـاب (نهايـةُ الأرَب)، وهـو دائـرة معـارف مهمـة، مُهـداة للسـلطان المملـوكيّ النـاصر بـن قـلاوون، ويحـوي الجـزءان الرابـع والخامـس كثـيراً مـن الأخبـار عـن الغنـاء والسَـماع والمُغنّـين، وقـام عـلى طبعـهِ أحمـد زكي باشـا في القاهـرة عـامَ 1923.

6- أبـو عبـد اللـه، محمـد بـن أحمـد بـن عثـمان الذهبـيّ (748 هـ / 1348 م)، لـهُ (كتـابٌ في معرفـةِ الأنغـام) حسـبَ النسـخةِ الباريسـية، وعنوانـهُ في نسـخةٍ أخـرى (الإنعام في معرفـة الأنغـام)، وهـي منظومـةٌ تحـوي أقسـاماً عـدة، ووصفهـا فارمـر بأنهـا مهمـة، لأن المؤلِـفَ اسـتعملَ فيهـا رَسـماً مـن ثمانيـة خطـوطٍ مُلَوّنـة مـن أجـل الرمـوز الموسـيقية.

7- أبـو الفضـل، صفـيّ الديـن عبـد العزيـز بـن سَرايـا الحِلـيّ (750 هـ / 1351 م)، لـهُ رسـالةٌ بعنـوان (فائـدة في تولُّـدِ الأنغـام بعضِهـا عـن بعـض، وترتيبهـا عـلى البُرُوج)، وهـي رسـالةٌ فَلَكيّـةٌ موسـيقية، تتنـاولُ الصِلـةَ بـين الأنغـام المختلفـة والبروج، وهـي النظريـة التـي تعـودُ عَرَبيـاً إلى الكِنـديّ.

8- أبـو عبـد اللـه، لسـان الديـن محمـد بـن عبـد اللـه بـن سـعيد بـن الخطيـب (774 هـ / 1367 م)، وهـو مـن أشـهر المؤلّفـين الأندلسـيين. لـهُ كتـابٌ في الموسـيقا، وآخَـرُ بعنـوان (رسـالةٌ في الطبائـع والطُبـوع والأصـول)، وهـي منظومـةٌ عـلى بحـر الطويـل، ذكـرَ فارمـر أنهـا تُنسَـبُ أيضـاً إلى عبـد الواحـد الوَنْشَريسـيّ المُتـوفى (956 هـ / 1549 م)، لكنـه قـال إنـه يظـن أن ذلـك خطـأ، وقـد طبعهـا فارمـر ضمـن (مجموعـة الكُتّـابِ الشرقيّـين عـن الموسـيقا) في اسـكتلندا عـامَ 1933، كـما ترجمهـا إلى الإنجليزيـة، ونـشرَ الترجمـة في المجموعـةِ ذاتِهـا، وهـذا هـو أولُ عنـوانٍ ضمـن المصـادر التـي ذكرَهـا فارمـر، يحملُ كلمـة "الطُبـوع".

9- محمـد بـن محمـد بـن أحمـد الذهبـيّ الشـهير بابـن الصّبّـاح (كان يعيـش في القـرن 8 هـ / 14 م)، لـهُ كتـاب في علـم الموسـيقا ومعرفـة الأنغـام، وهـو أرجـوزة في إحـدى عـشرةَ ورقـة، وعليهـا شرحٌ منثـورٌ بقلـم المؤلِـفِ نفسِـه.

10- أبـو الحسـن، محمـد بـن الحسـن الطحّـان (كان يعيـش في القـرن 8 هـ / 14 م)، لـهُ كتـاب (حـاوي الفنـون وسَـلوَةُ المَحـزون)، الـذي يصفـهُ فارمـر بأنـهُ رسـالةٌ

مهمـةٌ عـن الموسـيقا مـن 111 ورقـة، وتنقسـمُ إلى مقالتـين، تتألـف الأولى مـن 80 باباً، والثانيـة مـن 20، والأبـواب التـي تصِـفُ الآلاتِ الموسـيقيةَ ذاتُ أهميـةٍ لا بـأسَ بهـا، وذلـك للتفاصيـل التـي تُورِدُهـا عـن تركيبهـا عـلى حـدّ وصـف فارمـر.

11- مؤلَّـفٌ مجهـول (مـن القـرن 8 هـ / 14 م)، كتَـبَ (شرح الأدوار)، الـذي يصـفُ فارمـر مـا يحتويـه بأنـهُ "نقـدٌ لاذِعٌ" مُوجَّـهٌ لمؤاخـذات صفـيُّ الديـن الأرمـويّ عـلى الفارابي فيما يتعلـق بقواعـد الصوت الفيزيائية، وقد اقتبـسَ الجُرجـانيّ وابـنُ غيبـيّ الكثـيرَ مـن هـذا الكتـاب.

فن القادري

علي العشر
خبير تراث فني
معهد الشارقة للتراث

فن القادري هو عبارة عن نصوص وألحان من القصائد الدينية، التي يدور أغلبها حول مدح نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم.

أصل التسمية:

يقال إن هذه التسمية نسبت إلى عبدالقادر الكيلاني، وهو أحد أولياء الله الصالحين، وقد ورد اسمه في كثير من أنواع الغناء الديني.

من يغني أو يتغنى بفن القادري يجب أن يكون ملماً وحافظاً قصائد دينية، حيث أكثرها مدح للرسول، صلى الله عليه وسلم، وأيضاً ممكن أن تقوم بأداء فن القادري بعض النساء المتحكمات في حفظ هذا المدح، حيث تسمى هذه الحرمة المطوعة، وتشاركها مجموعة من النساء في الرد عليها أثناء الغناء، ويصاحب غناء القادري آلات إيقاعية مثل طبل الرحماني وطبل الكاسر، وهذه في دولة الإمارات وسلطنة عمان، أما في بعض الدول الخليجية مثل البحرين وقطر والكويت، وجزء من المملكة العربية السعودية، فإنهم يستخدمون في هذا الفن مجموعة من الطارات، مفردها طار، وطبل بحري كبير، حيث يسمى بالطبل اللاعوب، ومن أهم ما يتميز به إيقاع القادري عندهم ما يسمى الصقال، الذي يؤديه أحد ضاربي الطارات المتمكنين، ويلقب عادة بالصاقول.

ومن الأغاني التي تغنى في القادري ما يلي:

زوار شهر الربيع
ياهي سرينا هيلي ياهي سرينا
بات المنادي يذيع
ياهي سرينا هيلي ياهي سرينا
صلوا على ذا الشفيع
ياهي سرينا هيلي ياهي سرينا
أحمد يا ساكن بقيع
ياهي سرينا هيلي ياهي سرينا
سلام سلام سلام سلام
سلام عليكم فردوا السلام
نصبنا الخيام نصبنا الخيام
على بير زمزم عليه السلام
وتحت الخيام رجال كرام
ومعهم محمد عليه السلام

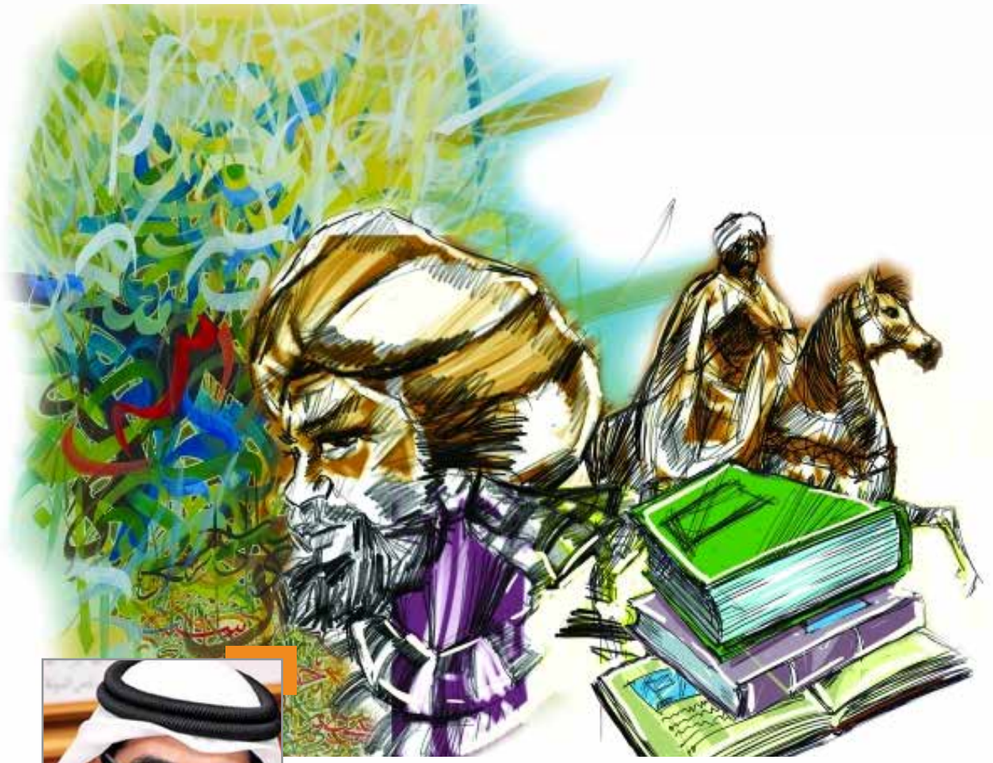

الشعر الشعبي: والتعبير الشعوري

محمد عبدالله نور الدين
كاتب وناقد ـ الإمارات

لطالما عبّر إنسان هذه الأرض عن فكره ومشاعره عبر النصوص الأدبية، ولعلّ الشعر من أقدم أنواع هذه النصوص، إذ كان له وقع السحر في الآذان والراحة في النفوس، والإبهار في المخيّلة. كان التعبير في البدء مباشراً وبسيطاً، وفي الوقت نفسه يراعي آداب المجتمع المحافظ لقرون من الزمان...

فالشعراء مهما كانت تجيش أحاسيسهم، لم يكونوا ليتركوا عنان التعبير لكلماتهم، وإنما كانوا يقفون بمرصد لمقالهم لينتقوا مفرداتهم أو ليعالجوا صياغة عباراتهم كي تأتي مناسبة لمقام المتلقي، وأي مقام أو سلطة أرفع من مقام المتلقي في المجتمع المحافظ، إذ إن حرية التعبير الفردية كانت دائماً تحت سيطرة حرية أوسع وأشمل هي حرية الجمع. فقد كان الشاعر صوت القبيلة في شبه الجزيرة العربية؛ لما له من مكانة خاصة عند كبار القوم، وتقدير مميز عند عامة الناس، لذا تراه في صدر المجلس إلى جانب أهم الشخصيات، يؤخذ برأيه ويسمع ويستمع إليه، لما في قوله من الحكمة والمنطِق، ولكن هذا التقدير الكبير وضع على الشعراء التزامات كثيرة، منعه من التعبير الحقيقي عن مشاعره، وهذا الوضع لم يصبح مريحاً للشعراء؛ لأن الشعر يتوق لحرية التعبير في الأصل، فكيف مع حرية التعبير عن المشاعر حينما تكون القصيدة هي المتنفس الوحيد للشاعر.

وعلى الرغم من أن سلطة المجتمع المحافظ استطاعت أن تفرض القيود على حرية التعبير عن المشاعر، إلا أن الشعراء كانوا يلتفون على ذلك بطرق أغراض الحكمة والنصيحة والمدح، ويدرجون محاور تعبر عن مشاعرهم تجاه المحبوب، ضمن هذه القصائد، وكان التعبير الرمزي بالكنايات وسيلة مثلى لإيصال مشاعرهم الجياشة، وهموهم الدفينة. ولكن لم يشبع ذلك نهم الشعراء، فسرعان ما تغيرت الحال، وظهرت مدرسة جديدة هي المدرسة الشعورية أو الرومانسية التي نشأت من ذائقة الشعراء وجرأتهم على طرح عواطفهم وأفكارهم في القصائد بغض النظر عن قبول المتلقي أو الناقد بذلك أو رفضه؛ لذا حين نسميها بالمدرسة بالشعورية، فإنه بسبب ظهور عواطف الشاعر في قصائده أكثر من أفكاره أو الأفكار السائدة أو المقبولة في المجتمع.

لم تأت المدرسة الشعورية بالغزل في القصيدة، فهذا الغرض كان مطروقاً في السابق، ولكن جاءت المدرسة الشعورية بالتجديد في الغزل وإبراز جوانب لم يعهدها المجتمع المحافظ، وكذلك كانت الحال في الأغراض الأخرى، حيث كانت المدرسة الشعورية تكسر حواجز المحظور باستحياء شديد؛ فالقصيدة الشعورية في البدء كانت تشبه القصائد التقليدية؛ ولكن مع مرور الوقت خلعت المدرسة الشعورية عدداً كثيراً من ثيابها التقليدية، لتظهر كمدرسة جديدة في القصائد ا لشعبية .

أصبحت القصيدة عند الشعراء الشعوريين منفذاً إلى راحتهم النفسية والتعبير عن الإحساس والمشاعر، ومن الطبيعي أن تجد الشاعر الشعوري أو الرومانسي متحدثاً لبقاً في قصيدته، وهو يخاطب محبوبه كما لاحظنا، والحد الفاصل بين المدرستين التقليدية والشعورية؛ هو طريقة تناول الشاعر القصيدة، فالشاعر التقليدي يأخذ دور الراوي في القصيدة، وإن كان يتحدث عن نفسه؛ إلا أنه يُدخل شخوصاً آخرين في القصيدة، ويتحدث مع العالم الخارجي، وأما الشاعر الشعوري فإنه يأخذ دور أحد شخوص القصيدة كالمحب مثلاً، ويحاور الآخر مباشرة أو يتحدث عنه، وبدلاً من التحدث مع العالم الخارجي، فإنه يتوجه إلى ذاته، وتفاعله مع العالم الخارجي يكون بإسقاط مشاعره على الطبيعة وعناصرها، لنلحظ الأمثلة التالية من شعر محروم :

تطري عليه دوم وانته على البال
والروح تشكي منْك دايم عليله
محال سيدي اهتوي غيرك مْحال
يا من ملكت القلْب بـ الطف وسيله
لا تدّعي مظلوم ونته العيّال
واللي يحب فْواد خلّه دليله
لي ييتني برضاك يا طيّب الفال
خذْتك على قلبي تبرّد غليله
أرتاح بك يوم المخاليج ذهّال
في ليلةٍ تسوى معي ألف ليله
هي ليلة الجمعة لها طيب الوصال
تبقى لنا ذكرى خليل لْ خليله

أسهر بها وآخذ من البن فنيال
وامزج بها شوق المحبة الجميلة

واضح جداً توجه الشاعر إلى باطنه، فتراه يتحدث منذ بداية القصيدة عن البال ثم الروح مروراً بالقلب والفؤاد، ويسقط كل هذه المشاعر على «ليلة» فيه الناس ذهّل ونيام ليرتشف من المحبوب فنجان قهوة ممزوجة بالمحبة، وهو قد لا يكون فنجاناً حقيقياً، وإنما هو فنجان أقرب للصورة الشعرية التي يرسمها لاحقاً أصحاب المدرسة الواقعية المهتمين بالصورة الشعرية في النص الأدبي. ومن ذلك مثال آخر يقول فيه شاعرنا:

صدى صوته على صوتي يجيبي
وجيش الشوق لفوادي محاصر
حبال الوصل عادت تنطوي بي
فدتك الروح لا تقصّ الأواصر

فتركيب «جيش الشوق» و«حبال الوصل»، وتشكلها في الصورة الشعرية هي من أساليب التي استخدمها أصحاب المدرسة الواقعية لاحقاً، واهتمام شاعرنا في رسم صور شعرية بهذه الطريقة دليل على اهتمامه بالنص الشعري، على الرغم من انتهاجه مدرسة شعرية مختلفة في الكتابة تهتم بذات الشاعر بمعزل عما يفيد النص الشعري.

أما تركيز الشعراء المدرسة الشعورية كان يتوجّه إلى رسم الصورة الشعرية باستخدام ما بين جوانحهم أو جوارحهم، بعد أن كانت هذه الصور الداخلية نادرة في المدرسة التقليدية؛ وكان أغلب هذه الصور التقليدية تتشكل من استعارات ميتة درج الناس على استخدامها؛ ولكن شعراء المدرسة الشعورية وضعوها في قالب شعوري لتجميل قصائدهم:

يا بوعيانٍ رمشها سهوم
في القلب لي سوّت علايم
غلاك ما ابيعه ولا اسوم
لو بنعطى طيب الكرايم
عزيز مقدارك ومحشوم
يفداك نقّال النمايم
تنزف عيوني دمعها دوم
م الودّ ما ونّت سقايم
هواك بين القلب مرسوم
سوّى يا مضنوني رسايم

نلاحظ شاعرنا يبرع في رسم صور مختلفة من الداخل باستخدام مشاعره في مفردات كالعيون والقلب والدموع مروراً بالمشاعر كالغلا والود والهوى، وإن كانت الصور مملوءة بالاستعارات التشخيصية والتجسيمية، فإن المستمع يخرج بالمفهوم العام من هذه الأبيات وباللذة التي تخلفها براعة الشاعر في صياغة جملته الشعرية من جانب، ومن جانب آخر نجد المستمع يستمتع بالبعد التصويري، بالإضافة إلى الجانب الشعوري من الصورة، وهنا مثال آخر:

حبيبٍ في حنايا القلب غالي
متوّج بالمحبّه لاوّليّه
وعنوانه صدوقٍ في المودّه
يساوي من سنا عيني صبيّه
تولىّ عرش قلبي واستحلّه
ونفسي به عن العالم غنيّه

فوجود المحبوب في حنايا القلب وتولي عرش القلب بعد ذلك، ومن ثم استغناء الشاعر عن العالم كله، بامتلاك المحبوب إياه في هذه الصورة الداخلية مؤشر مهم جداً على أسلوب هذه المدرسة، وكيفية تمازج الصورة بالشعور، ولكن السؤال هنا عن المنطق الذي وراء نتيجة حضور شخص في داخل القلب، أن يجعل النفس غنية عن كل العالم!

وجدير هنا أن نشير إلى المنطق الشعوري بدلاً من المنطق العقلي الذي يستقيم فقط في المدرسة الشعورية، وهذا المعنى «ونفسي به عن العالم غنية» غير منطقي، ولا يقبله العقل، ولكن بالمنطق الشعوري الذي وضعته المدرسة الشعورية، فإن هذا المنطق جميل ومقنع جداً، فالقلب مكان لشخص واحد، ويستطيع أن يكون كافياً للاستغناء عن جميع العالم. ومن هذه الأمثلة:

حبيبي يوم وبعض ايام خصمي
جنابه حلو وفراقه مرير
إذا يسخي كأن الغيث يهمي
وإذا يجفي فلا غيره عشير

فكيف لشخص أن يكون حبيباً ليوم، وخصماً لأيام، وكيف لهذا الشخص إن جفا ألّا يُترك، بل يزيد الشاعر التمسك به، هذا منطق غير مقنع إلا عند شعراء المدرسة الشعورية، وهو منطق المحبين الذين يتعايشون مع مختلف حالات المحبة مهما كانت قاسية أو موائمة، بل في بعض الحالات لا نجد الشاعر شاكياً الجروح، وإنما يتسيغها ويتقبلها بكامل اقتناع، كما في المثال الآتي:

غيورٍ كم سقاني من جراحه
جريح الحب ما يزداد علّه
هبوب الشوق ما ترحم رياحه
إذا هبّت على روضٍ تفلّه
شرى صوت الطفل تسمع صياحه
من يفارق حبيبٍ مشفقٍ له
رعى الله من سقت وجهه الملاحه
مباحٍ له فوادي يستحلّه

فبدلاً من الشكوى والاعتراف بأثر غيرة المحبوب نجد جريح الحب مخدراً بهذا الجرح ولا يحس بآلام علل أخرى، كما هو واضح في البيت الأول، وأما في البيت الأخير، فإنه يسلّم فؤاده إلى المحبوب ليستحل ما يشاء، وكأن في هذا الألم لذة أو نشوة لا يعرفها المحب المتيم، إذ يقول في قمة هذه الجروح بكل بساطة:

قصّت شراييني سيوفك
شربكت دنيانا بدنياك

هنا علاقة بين شرايين المحب وسيف المحبوب، وهي علاقة بدلاً من أن تكون سبباً للتباعد بين الطرفين، أصبحت حجة للمحب للتقرب إلى المحبوب، إذ أصبحت المخالطة بين الدم والسيف رمزاً لارتباط حياة المحب بالمحبوب، كما يشير إلى هذا المعنى في (دنيانا بدنياك)؛ ولكن أي منطق يقنعنا بأن هذا الرباط المبني على الدم والسيف هو رباط يقبل أن يستمر وأن يكون مبنياً على الود والمحبة، ولكن الأبيات المقبلة مقتنعة بذلك:

كلما عزمنا بانلوفك
أبعدت عنا بعيد لافلاك
بالروف ما نقهر ظروفك
أتعبتنا من لحظ عيناك
يقصر وصفنا عن وصوفك
يا نافل بْحسنك ومعناك
غابت ولا بانت حروفك
على قوافي الشعر وش ياك
متى بتترنم دفوفك
بأحلى القوافي لا عدمناك

ونجد أن القصيدة تنتهي باحتفالية الدفوف على وقع أنغام قصيدة رد من المحبوب على قصيدة المحب، وهي كافية للمحب إن تعذر لقاؤه بالمحبوب كما طلب في بداية القصيدة حينما قال:

ازعلت من كلمة بشوفك
لو ما نحبّك ما طلبناك
يزداد من لامي خوفك
ونحنا نداري لك ونرعاك

خلاصة القول إن القصيدة أصبحت قادرة على نقل الشعور مباشرة، والتأثير المباشر في مشاعر المتلقين، وبالنتيجة، فإن المتلقي أصبح شريكاً في نبض القصيدة وروحها.

جهود الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في الحفاظ على التراث التاريخي والعمراني.. حصون وقلاع الشارقة نموذجاً

يوجّه صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، دائماً بالحفاظ على التراث العمراني، والتشجيع على عدم هدمه، وتشجيع وإقامة المتاحف، وتسجيل التراث عالمياً عبر آليات التسجيل المعتمدة، وسن التشريعات للحفاظ عليه، وتكوين كوادر فنية للصيانة والترميم مؤهلة للقيام بالأعمال المختلفة، فالتراث العمراني يبرز الملامح المعمارية الناتجة كانعكاس للمؤثرات الجغرافية والمناخية والتاريخية.

د. خالد بن محمد مبارك القاسمي
باحث في شؤون الخليج والجزيرة العربية

وتبذل حكومة الشارقة، بناء على توجيهات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، جهوداً كبيرة من أجل الحفاظ على التراث التاريخي والعمراني، الذي يتم من خلال إعادة الترميم والبناء، والعمل على وقف كل المشروعات التي تشوه هذا الإرث التاريخي، وانطلاقاً من هذه الرؤية وبناء على توجيهات سموه تم ترميم عدد كبير من المباني التراثية[1].

وقد أولى صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي اهتماماً كبيراً بترميم حصون وقلاع إمارة الشارقة، لما تحمله من تاريخ مشرف يسرد مقاومة الأجداد للغزاة وللاحتلال على مر العصور، وسنلقي في هذا المقام الضوء على بعض الحصون التي وجّه سموه بترميمها.

حصن الشارقة

تم بناء حصن الشارقة، ذلك الصرح التاريخي العريق، في عام 1823م في منطقة قلب الشارقة، وكان يعد أكبر وأهم مبنى في الإمارة، إذ كان مقراً لحكومة الشارقة، وسكناً لعائلة القواسم الحاكمة منذ نحو قرنين من الزمان.

وقد تم بناء الحصن باستخدام الحجر المرجاني، الذي تم جمعه من قاع الخليج العربي، وغُطيت جدرانه بمادة الجص الناعمة ذات اللون البني الفاتح، أما الأبواب فقد صُنعت من خشب الساج، بينما استُخدمت جذوع شجر المانجروف و «الدعون» (أغصان النخيل بعد تجريدها من الأوراق والأليـاف) في بناء الأسقف.

بني الحصن لحماية المدينة وسكانها، وشمل عناصر الدفاع الرئيسة مثل الجدران القوية والسميكة والأسوار

العالية وأبراج مراقبة شاهقة، والعديد من التكوينات الهندسية الدفاعية الأخرى، وما يزيد من أهمية الحصن أنه كان مسكناً لعائلة القاسمي الحاكمة، ومقراً لحكومة الشارقة في فترة من الفترات[2].

والحصن كبير وضخم، ذو برجين أحدهما كبير والآخر صغير، وهو الواقع في الضلع الخلفي من اليمين، وفي الوجه من اليسار، يوجد قبة كانت تستخدم للحراسة ومراقبة المدينة قديماً، وكان الحصن يتكون من طابقين، كانا عبارة عن حجرات كثيرة، والواجهة عبارة عن شبابيك في مستويين في الأسفل والأعلى[3].

ويتجلى اهتمام صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، في الحفاظ على التراث قبلما تولى سموه مقاليد الحكم في إمارة الشارقة، فنراه يترك الدراسة بكلية الزراعة جامعة القاهرة، في شهر يناير 1970، ولم يكن قد تبقى على موعد امتحانات الفصل الدراسي الأول إلا يومان، ليعود إلى الشارقة على إثر اتصال هاتفي يخبره بأن حصن الشارقة قد بدأ الهدم فيه، فأسرع بالسفر، فوجد أن عمليات الهدم قد طالت الحصن إلا برجاً واحداً؛ يسمى «برج الكبس»، وجدار طول بضعة أمتار كان متصلاً بالبرج، فأوقف عملية الهدم، وسارع إلى القصر لمقابلة شقيقه الشيخ خالد بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة وقتئذ، وشرح له ما يمثله ذلك الحصن لأهالي الشارقة، ويتجلى إحساس سموه بقيمة التراث من قوله لشقيقه «الحصن أثر من آثار أجدادك وأجدادي»، فأفحم القول الشيخ خالد الذي قال له: «اذهب وأوقف عملية الهدم». فقال له سموه: «لقد أوقفتها منذ الصباح الباكر».

ثم قام سموه، وكأنه عالم آثار متمكن، بعلاج الموقف، حتى يحافظ على ما تبقى من الأثر، وفي هذا يقول: «رجعت إلى موقع الحصن، وأخذت أنقل تفاصيل مقاسات المباني التي يتكون منها الحصن، وقد سهل عملية نقل المقاسات، وجود الأساسات ظاهرة للعيان، كما جمعت الأبواب وبعض الشبابيك الخشبية، ثم دهنتها بمادة طاردة للحشرات، واحتفظت بها في مكان آمن، آملاً أن أعيد الحصن أن أعيد الحصن يوماً ما»[4].

وبالفعل أعاد سموه بناء الحصن، حيث أمر سموه في شهر أبريل 1996 بإعادة بناء الحصن، بعد أن أبرز الرسومات والنقوش والصور الضخمة التي أعدها للحصن، وجُمعت معلومات وصور كثيرة من الناس من خلال فريق بحث لجأ إلى الطاعنين في السن لتوثيقها. وبعد عام من بدء العمل ظهر الحصن شامخاً بأصالته، في منطقة تزخر بالعصرية[5]. حيث تم افتتاحه في العاشر من شهر نيسان/ أبريل 1997، بعدما تم تزويده بالصور الفوتوغرافية، والتي تُظهر عائلة القواسم في الشارقة، ورجالات الشارقة، وبعض مظاهر الحياة في المدينة قديماً[6].

حصن الذيد

بُني حصن الذيد نحو منتصف القرن الثامن عشر (1750م بالتقريب)، لحماية واحة النخيل وفلج الشريعة، المصدر الرئيس للمياه، حيث برع أهالي الإمارات في بناء التحصينات لحماية مدنهم، ومصادر المياه، والحياة اليومية عبر التاريخ، وكان حصن الذيد واحداً من هذه التحصينات، ضمن القلاع والحصون المنتشرة في إمارة الشارقة، وكان أول ظهور للحصن من خلال برج الحراسة المميز بلونه البني الداكن القريب إلى الأحمر، ومن ثم أضيف إليه البرج الثاني والمربعتان؛ ليكتمل حصن الذيد.

وأول صورة التقطت لحصن الذيد كانت في بدايات القرن العشرين، وتحديداً في عام 1905، من قبل المقيم السياسي البريطاني بيرسي كوكس، أثناء زيارته للمنطقة.

وفي أوائل التسعينيات من القرن الماضي، حدث انهيار لأقدم مبنى في الذيد، وهو البرج الأساسي، الذي شكّل أول ظهور لحصن الذيد في عام 1750، نتيجة التوسعة من قبل مركز الشرطة، وهو ما هدّ أكبر خسارة تراثية في المنطقة.

وفي تموز/ يوليو 2015، وبتوجيهات من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، تم البدء في إزالة مركز شرطة الذيد، لإعطاء فرصة لترميم الحصن. وفي عام 2016 بدأ معهد الشارقة للتراث خطة تطوير واحة التراث في مدينة الذيد، وكان الحصن من ضمن المشروع. وفي عام 2020، تم إسناد مشروع ترميم حصن الذيد وواحة النخيل إلى دائرة التخطيط والمساحة[7].

وفي تاريخ 23 فبراير 2022 افتتح صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة حصن الذيد بعد ترميمه.

وأكد سموه «أن لمدينة الذيد شواهد تاريخية أصيلة تمثلت في العديد من المواقع الأثرية التي لها دلالات كثيرة على إرث وصفات أهل المنطقة، وما شهدته من ظروف مختلفة».

وتناول سموه معاني كلمة «الذيد» ومرادفاتها المتعددة، موضحاً سموه أنها «مستمدة من الذود، وتعني الدفاع والمقاومة ضد كل ما هو غير أصيل، وأن الذيد يأتي من الأنفة والارتفاع والشمم، وهو الكرم وعزة النفس والنخوة والشجاعة، مشيراً إلى أهمية هذه المعاني والمحافظة عليها».

وعن ارتباط الذيد بالماء.. أشار سموه إلى أن «الذيد كانت منذ القدم تأتيها المياه من فوقها بسبب الأمطار وجريان الأودية، ومن تحتها من خلال أفلاج الشريعة، وتأثرت بقلة الأمطار، وجفاف الأفلاج التي جرى العمل على إحيائها من دون التأثير في بنيتها الرئيسة، مؤكداً سموه أن الماء من نِعم الله وخيراته والتي باللجوء إليه والاستغفار تزيد وتكثر، وشدد سموه على ضرورة الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وتقوى الله عز وجل».

ويتكون الحصن من مبنى مربع الشكل طوله 32 متراً، وعرضه 26 متراً، ويضم عدداً من الغرف التي تم تحويلها إلى قاعات عرض تحوي مجموعة من المعروضات التاريخية لمدينة الذيد وتراثها.

وتضم قاعة الوثائق مجموعة من الوثائق المرتبطة بحصن الذيد بشكل خاص، ومنطقة الذيد بشكل عام، وهي تعود للأرشيفات القديمة، مثل الأرشيف البريطاني، وكذلك الكتابات المحلية التي جاء فيها ذكر الذيد، وهي تسرد الحقائق الجغرافية والوقائع السياسية والأحداث الاجتماعية التي دارت بالمنطقة.

وتعرض قاعة الأسلحة أنواعاً عدة من الأسلحة التي استخدمت في الذيد قديماً، منها السهام الحجرية التي تم استعمالها في فترات زمنية تمتد للألف الرابع قبل الميلاد، إضافة للسيوف والخناجر ولباس المحاربين، وعدد من نماذج الأسلحة النارية والذخائر مثل البنادق.

أما غرفة الشيخ فتحتوي على عدد من الأغراض الشخصية التي كان يستخدمها خلال إقامته في الحصن، فقد كان حصن الذيد بمثابة مقر لحاكم الشارقة أثناء إقامته بالذيد، سواء خلال تنقله إلى المنطقة الشرقية، أو قضائه فترة بجوار واحة الذيد.

ويضم الحصن الليوان، وهو الرواق المظلل الذي كان مكان التجمع العائلي لأهل الحصن، كما يضم قاعة دروب القوافل والتجارة التي تشتمل على عدد من الجداريات التي تصف دروب القوافل من مدينة الذيد وإليها، كما يعرض الحصن مجسمات بالحجم الأصلي للإبل ومعدات التحميل وأصناف البضائع التي كانت تحملها أثناء الرحلات.

أمـا ردهـة المطبـخ فتحتـوي عـلى نمـاذج لـكل الأدوات التـي كانـت تسـتخدم قديمـاً في عمليـة الطبـخ، وأنـواع التوابـل والحبـوب والخـضراوات، حيـث تنوعـت الأطعمـة التـي كان يتـم تحضيرهـا في الحصـن للعائلـة والجنـود، كـما تميـزت الموائـد الخاصـة بالمناسـبات والاحتفـالات والتـي كانـت تحـضّر في المطبـخ أو سـاحة الحصـن.

ويشـكل مخـزن الحبـوب والـزكاة انعكاسـاً لأمـان الحصـن، حيـث كان يضـع فيـه المزارعـون أرزاقهـم مـن الثـمار، ويتـم فرزهـا وتخصيـص جـزء منهـا للـزكاة، كـما كانـت تخـزن فيـه العديـد مـن المـواد الغذائيـة، أمـا غرفـة المدبسـة فتحتـوي عـلى عـرض مـرئي ومجسـمات دقيقـة لوصـف مراحـل عمليـة صنـع دبـس التمـر[8].

قلعة كلباء

مـن معـالم كلبـاء حصنهـا المسـمى بـ«القلعـة» الـذي يقـع عـلى سـاحل الخليـج وسـط مدينـة كلبـاء حالياً، وهـذا المـكان مميـز حيـث لا وجـود لحواجـز طبيعيـة تحيطـه كالجبـال والتـلال.

وتتألـف قلعـة كلبـاء مـن عنـاصر أساسـية واضحـة دفاعيـة أهمهـا:

- موقعهـا في مـكان مكشـوف يسـاعد حراسـها عـلى الاطـلاع ومشـاهدة أي حركـة بـراً، حيـث الأرض المحيطـة منبسـطة، وكذلـك مراقبـة البحـر المكشـوف أمامهـا.
- بناؤهـا المرتفـع عـلى مصاطـب يجعلهـا مسـيطرة تمامـاً بالمشـاهدة، والنظـر لأي مسـتوى مطلـوب[9].

وحسـب توجيهـات صاحـب السـمو الشـيخ الدكتـور سـلطان بـن محمـد القاسـمي، لحمايـة وتجديـد المبـاني التراثيـة في مدينـة كلبـاء، تمـت المبـاشرة في ترميمهـا وصيانتهـا، وكانـت مبـاشرة الحصـن في 15 أيـار/ مايـو 1992، وجـاءت فـترة انقطـاع عـن العمـل لأسـباب أهمهـا دراسـة الموقـع، وجمـع المعلومـات.

وبتاريـخ 20 كانـون الأول/ ديسـمبر 1996، تـم افتتـاح الحصـن، وخـلال حفـل الافتتـاح تـم عـرض للحـرف والمـواد التقليديـة؛ حيـث عملـت إدارة الـتراث مخـازن (دكاكـين) متنقلـة أحاطـت سـاحة الجانـب الشرقـي للحصـن. وهـذا الإنجـاز حفـظ للشـارقة تـراث الأجـداد بمـا يحويـه مـن فـن التخطيـط والبنـاء والعنـاصر الدفاعيـة، وأصبـح الحصـن متحفـاً لنـماذج مـن الأسـلحة التراثيـة والصـور المعـبرة عـن مراحـل الترميـم والصيانـة، وصـور أخـرى للمقارنـة بمواقـع تراثيـة تـم ترميمهـا وصيانتهـا في الشـارقة[10].

حصن خورفكان

بُنـي حصـن خورفـكان في أربعينيـات القـرن المـاضي بالحجـارة، نظـراً للطبيعـة الجبليـة في خورفـكان، وكان في بداياتـه يحتـوي عـلى مربعـة واحـدة ذات جـدران مائلـة، ومسـننات علويـة وفتحـة للسـلاح، ثـم تمـت إضافـة مربعـة جهـة البحـر أعـلى مـن سـابقتها، وتحتـوي عـلى طابقـين زيـادة في التحصـين الدفاعـي مـع إطلالـة عـلى الجهـات الأربـع، ويعـد واحـداً مـن شـبكة الأبـراج الدفاعيـة المرتبطـة بخورفـكان؛ حيـث يطـل مـن جهـة عـلى بـرج العـدواني، ومـن الجهـة الأخـرى عـلى بـرج الـرابي[11].

وقـد أصـدر صاحـب السـمو الشـيخ الدكتـور سـلطان بـن محمـد القاسـمي، عضـو المجلـس الأعـلى حاكـم الشـارقة، توجيهاتـه بإعـادة بنـاء حصـن خورفـكان؛ لـكي يتيـح للجميـع التعـرف إلى التاريـخ الـثري للسـاحل الشرقـي لإمـارة الشـارقة، والاسـتمتاع بمشـاهدة المقتنيـات الأثريـة التـي تـم اكتشـافها في المنطقـة. وقـد تمـت إعـادة بنـاء الحصـن بالقـرب مـن الموقـع الأصـلي للحصـن القديـم، وعـلى غـرار تصميمـه في خمسـينيات وسـتينيات القـرن العشريـن؛ ليضفـي المزيـد مـن الجـلال والبهـاء عـلى هـذه المدينـة السـاحلية الجميلـة. وتـم افتتاحـه يـوم السـبت 13 أبريـل 2019[12].

1- عـلي عفيفـي عـلي غـازي: حداثـة الشـارقة بـين الـتراث والمعـاصرة. مجلـة شـؤون اجتماعيـة، الصـادرة عـن جمعيـة الاجتماعيـين في الشـارقة، مـج 31، ع 124، شـتاء 2014. ص 209.

2- حصن الشارقة، موقع هيئة الشارقة للمتاحف، على الرابط الآتي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Sharjah-Fort-(Al-Hisn)

3- ناصر حسين العبودي: آثار الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط2، د.ن، 1418هـ/1997م. ص 35 – 36.

4- الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: سرد الذات، منشورات القاسمي، ط1، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2009. ص 296 – 297.

5- سمير الشيخ حسين: عقود الخير (ثلاثون عاماً من البناء والعطاء)، جامعة الشارقة، إدارة العلاقات العامة، 2001. ص 124.

6- الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: حصاد السنين.. ثلاثون عاماً من العمل الثقافي في الشارقة. منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2011. ص 163.

7- خليفة سيف حامد الطنيجي: حصن الذيد في تراث الشارقة الثقافي، ط1، معهد الشارقة للتراث، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2021. ص 88 - 102.

8- سلطان يفتتح حصن الذيد ومسجد أم سلمة والسوق الغربي: موقع جريدة الخليج، بتاريخ 23 فبراير 2022، على الرابط الآتي: https://cutt.us/nNBov

9- عبد الستار العزاوي: المباني الأثرية في كلباء، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2001. ص 14 – 15.

10- المرجع السابق، ص 51 – 56.

11- معهد الشارقة للتراث، خورفكان.. التاريخ العريق والتراث العميق، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2020، ص 16.

12- حصن خورفكان، موقع هيئة الشارقة للمتاحف، على الرابط الآتي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Hisn-Khor-Fakkan

الكويت
في الأرشيف العثماني (2)

طلال سعد الرميضي
كاتب - الكويت

تناولنا في مقالنا السابق مكانة الأرشيف العثماني، بصفته من أهم الأرشيفات العالمية، والذي يضم أكثر من مائة وخمسين مليون وثيقة قديمة في محتوياته القيّمة، ولا شك في أن دول الخليج العربي لها نصيب وافر من الوثائق والمخطوطات العثمانية، التي وثّقت أخبار الماضي ووقائعه، وسنتطرق إلى أهمية هذا الأرشيف العريق بالنسبة للباحثين في تاريخ الكويت أنموذجاً.

فكما أسلفنا فإن الأرشيف العثماني يعتبر من أكبر مراكز الأرشيفات على مستوى العالم، وله إدارة مميزة في التنظيم والاستقبال وتقديم خدمات للباحثين، إلا أن الكويت لم تهتم بهذا المركز الأرشيفي المهم بالأهمية ذاتها على غرار مراكز الأرشيف العالمية الأخرى.

وفي تحقيق لجريدة القبس الكويتية، نشر بعدد رقم (12529) تاريخ 17 أبريل 2008م، ذكر أن عدد الباحثين الكويتيين الذين زاروا الأرشيف العثماني منذ تأسيسه وفتحه للباحثين هو 11 باحثاً، أولهم هو الدكتور عبدالعزيز المنصور، والدكتورة فتوح الخترش، أطال الله في عمرهما، وآخرهم طلال الرميضي، الذي زار الأرشيف في 27 أغسطس 2007م. أما من السعودية، فقد استقبل الأرشيف العثماني 430 باحثاً سعودياً حتى 2008م، ولا شك في أنه بعد مرور خمسة عشر عاماً قد تضاعف العدد، خاصة بعد انتشار «السوشيال ميديا» ومنصات التواصل الاجتماعي التي تطرقت إلى تفاصيل طريقة زيارة الأرشيف العثماني بالصوت والصورة، وكذلك صدور العديد من المؤلفات القيمة التي استعانت بالوثائق العثمانية في دراساتها، وأتذكر أنه في أواخر عام 2019م، قبيل جائحة كورونا، سألت مدير قاعة البحث في الأرشيف العثماني، الدكتور فؤاد رجب، فذكر لي أن عدد الباحثين الكويتيين الذين زاروا الأرشيف بلغ نحو الخمسين.

لعلنا نرجع سبب عدم اهتمام المراكز الرسمية في دولة الكويت بالأرشيف العثماني بالدرجة المطلوبة، نظراً لأهميته الكبرى، إلى أسباب عدة، نوجزها بما يلي:

- قلة الاهتمام الإعلامي بما يحتويه مركز الأرشيف العثماني من وثائق تاريخية نادرة، حول تاريخ الكويت، فقلما نجد في الصحافة مقالات أو دراسات حول هذا الموضوع، باستثناء ما كتبه أ.د. فيصل الكندري، ود. سعود العصفور، والشيخ محمد الشيباني، ومحدثكم.
- اللغة المستخدمة بالوثائق العثمانية هي اللغة العثمانية القديمة، التي تم التوقف عن استعمالها في عام 1923م، بقرار من الرئيس التركي مصطفى أتاتورك، وهو قرار باعتقادي ضيع هوية شعب عريق وتاريخه، حيث بدل الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية؛ لذا تجد قلة من الباحثين الأتراك والعرب من يتقن هذه اللغة القديمة، ولعلنا في دولة الكويت مثلاً نجد الأستاذ الدكتور فيصل الكندري، أحد هؤلاء الباحثين الذين درسوا اللغة العثمانية في إسطنبول عام 1990م،

وكذلك الباحث الدكتور طلال الجويعد، الذي تعلم اللغة العثمانية القديمة، وتمكن من قراءاتها في الكويت، وهذا راجع لحبه الشديد لتاريخ هذه الدولة الإسلامية العريقة، ولي تجربة شخصية في ترجمة مجموعة من الوثائق العثمانية، ووجدت صعوبة كبيرة في ذلك، ولكن بسبب الإصرار وحب البحث، تمكنت من ترجمتها بطريقة سليمة بفضل الله، وبالاستعانة بطالب تركي في الدراسات العليا، هو الصديق الدكتور مصطفى أكسوز، الذي كانت لي معه جلسات مطولة في ترجمة صفحات من كتب السالنامات العثمانية المتعلقة بالخليج العربي، وصياغتها باللغة العربية السليمة، بعد فهم محتواها منه، ونقلها للغة العربية بطريقة واضحة للقارئ.

- صعوبة اللغة العثمانية القديمة التي كانت تكتب بها الوثائق، حيث كانت تكتب بأحرف عربية وبطريقة سريعة، وخط غير واضح، يصعب على القارئ التركي التعرف إلى مضمونها وأحرفها، فما بالك بالباحث العربي الذي يجد إشكالية كبيرة في قراءة الأسماء والمواقع، فتجد هذه المعضلة أمام المشتغلين بالبحث التاريخي، وأن التأكد من صحة المفردة الواردة بالوثيقة يستغرق وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً، طالما لم تكن من الأعلام المشهورة أو موغلة في القدم.

- البحث بين مئات الآلاف من الوثائق القديمة، ويمكن أن يستغرق البحث عشرات الساعات دون أن يستفيد الباحث في الوصول إلى هدفه من البحث والحصول على معلومة تفيده في بحثه؛ لأنه أمام مركز بكر جديد لم تتم دراسة محتوياته بالشكل المناسب من الباحثين العرب، لذا البحث في الأرشيف العثماني شاق ومتعب، إلا أن له لذته لعشاق التاريخ.

- أيضاً موضوع الحدود ما بين الكويت والعراق العثماني، يعتبر من المعوقات التي تواجه الباحث الكويتي في الأرشيف العثماني، حيث وردت كثير من الوثائق التي تذكر أن تسمية الكويت قضاء عثماني تابع للبصرة، ولكن كشفت الوثائق والدراسات العثمانية أن الكويت جمهورية مستقلة إدارياً، أضف إلى أن هذا الموضوع لا يجعل من العناية بمئات الوثائق القيمة عرضه للإهمال والتجهيل من قبل الباحثين الكويتيين، وهذا ما وجدته في كتب السالنامات العثمانية (أو ما يعرف التقاويم السنوية)، على سبيل المثال، من معلومات نادرة وقيمة عن جوانب متنوعة من تاريخ الكويت، وقد سجلت ذلك في صفحات كتابي «الكويت والخليج العربي في السالنامة العثمانية»، وتطرقت لموضوعات تأريخية متنوعة عن ماضي الكويت، ومنها موضوع علاقة إمارة الكويت بالدولة العثمانية والعراق العثماني، وقد حاز هذا الكتاب جائزة الدولة التشجيعية لأفضل كتاب تأريخي لعام 2010م، كما حصد الجائزة العربية للإبداع الثقافي بفئة التراث التابعة لمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليسكو) عام 2013م. واللافت للنظر أن التكريم كان في العراق بمناسبة اختتام فعاليات بغداد عاصمة الثقافة، مما يدل على تغير النظرة السطحية السائدة للموضوعات التاريخية القديمة.

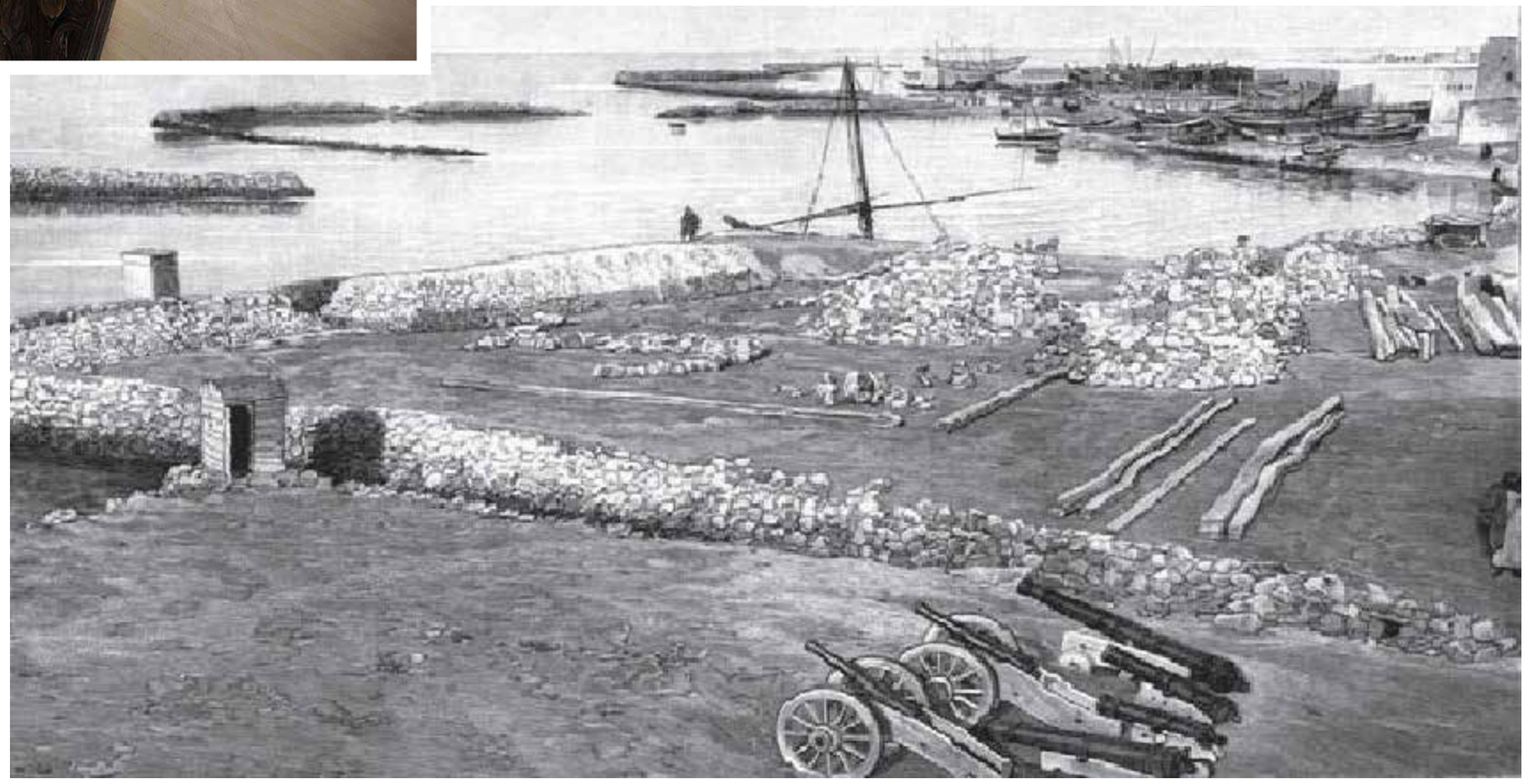

أما فيما يتعلق بعدد الوثائق العثمانية التي تم تصنيفها بنظام الحاسب الآلي، والانتهاء من فهرستها، وتحتوي على بيانات حول تاريخ الكويت وأخبارها القديمة بشكل مباشر، فنجد أنه في عام 2008م تقدر الوثائق العثمانية بـ(667 وثيقة)، حسب البحث اليدوي الذي قمت به آنذاك، وفي عام 2015م ارتفع العدد إلى الضعف تقريباً، ليصل إلى (1175 وثيقة)، وفي آخر زيارة لي في عام 2021م، بلغ إجمالي الوثائق المتعلقة بأخبار الكويت القديمة في الأرشيف العثماني (1283 وثيقة)، في جهاز الحاسب الآلي بقاعة البحث، ولا شك في أن عملية الفهرسة والبرمجة مستمرة، والإضافات في عدد الوثائق مستمرة حتى يومنا هذا.

وتتنوع أهمية هذه الوثائق النادرة ما بين معلومات عابرة عن بلدة الكويت أو عن شيوخ الكويت أو القضاة والنشاط التجاري فيها أو تكون متعلقة بحادثة تاريخية معينة ورد اسم الكويت خلالها، وكذلك تقارير بعض الموظفين العثمانيين عن بلدان الخليج وخلاف ذلك، ولا شك في أن أهمية هذه الوثائق تتفاوت قيمتها ما بينها، حسب مضمونها وتاريخها.

وسوف نتناول في الجزء الثالث من مقالنا بعض التجارب التوثيقة التي صدرت، وتناولت أخبار الكويت من وثائق وسجلات الأرشيف العثماني، بإذن الله.

حقيبة مشوار العمر

حسين الراوي
كاتب - الكويت

في عام 1922م، كان العالم الفيزيائي ألبرت أينشتاين يَحضُر مؤتمراً في طوكيو، فأتاه ساعي البريد ببرقية مستعجلة في فندق إمبريال، الذي كان حينها يسكنه، وعند مكتب الاستقبال، تفقد أينشتاين شيئاً من المال في جيبه، لكنه لم يجد شيئاً يقدمه لساعي البريد كتقدير رمزي له، فطلب ورقة وقلماً من موظف الاستقبال، ثم كتب: «حياة هادئة ومتواضعة تجلب المزيد من السعادة، أفضل من السعي لتحقيق النجاح الذي يرافقه اضطراب دائم ومستمر». ثم كتب أيضاً: «عندما تكون هناك إرادة، تكون هناك دائماً طريقة

لتحقيقها». ثم كتب اسمه على الورقة ووقّع عليها، ثم أعطاها لساعي البريد، وقال له: خذها لك، وأظن بأنه في يوم من الأيام ستكون هذه الورقة أغلى بكثير من ذلك البقشيش الذي كنت سأعطيك إياه!

وبعد أن توفي أينشتاين بسنوات، عرض ساعي البريد الياباني الورقة التي كتبها له أينشتاين بخط يده في أحد المزادات، فبيعت الورقة بـ1.8 دولار. وبالفعل صدق أينشتاين في الكلمات التي كتبها، وصدق أيضاً ظنه في أن الورقة ستكون أغلى بكثير من ذلك البقشيش الذي لم يجده متوافراً حينها في جيبه.

في إحدى المرات جمعتني الأيام برجل من أقاربي معروف بالحكمة والحِلم والأناة، عاركته الأيام وعاركها حتى أصبح شيخاً مُسناً، وكنت حريصاً في جلستي معه تلك بأن أستفيد منه قدر استطاعتي من دون إضاعة للوقت، حيث كان ذلك الشيخ من النادر أن يستجيب لدعوات الزيارة التي تأتيه، وقليل أيضاً في ملاقاة الناس في منزله، حيث يترك هذا الأمر لأبنائه، أذكر في تلك الجلسة أنني سألت ذلك الشيخ عن تربية الأبناء، فقال إن أفضل ما يربى عليه الأبناء الفطرة الطيّبة، والسمعة الحميدة، وبرّ الوالدين، ففي هذا الزمن كثر العقوق، وانتشر الفساد، وأصبحت المحرّمات قريبة مِنا، وأن النجاح الحقيقي في تربية الأبناء في هذا الوقت أن يجدوا أي وظيفة كريمة تحفظ لهم كرامتهم، وزواجاً مباركاً ناجحاً، ينتج عنه بيت يضم أسرة سعيدة، من دون أن يمُارس على الأبناء الضغوط التي لا يطيقونها في تحصيلهم الدراسي، كي ينالوا الشهادات العُليا والوظائف المرموقة؛ لأن البشر قدرات، والمكسب الحقيقي هو ستر الله تعالى، والعِرض الكريم، والاستغناء عن الناس.

في الحقيقة تبصّرت فوجدتُ أن سِرّ السعادة يكمن في تقوى الله تعالى، وألّا يكلّف المرء نفسه ما لا تطيقه من أمور الدنيا، وأن يضع دائماً في حقيبة مشوار حياته ثلاثة أمور: الإيمان والحُب والأمل.

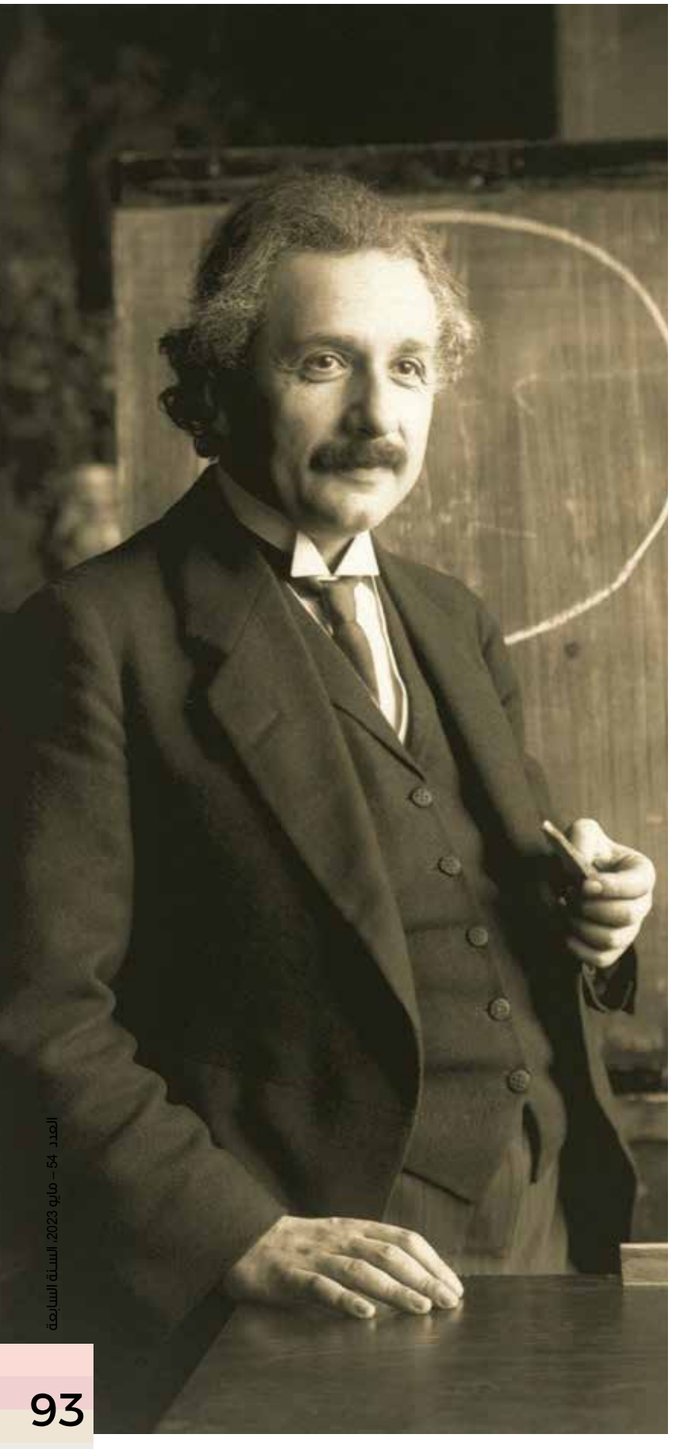

هذه امرأة.. وتلك أخرى

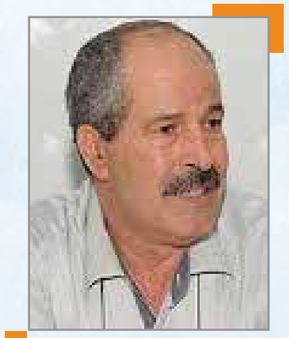

سعيد يقطين
كاتب - المغرب

تنبيه أول: النصيحة، وما أدراك ما النصيحة؟!

قيل قديماً: «ثمن النصيحة جمل»، وفي المثل الشعبي المغربي نجد ما معناه: «النصيحة ما تقتل ما تحيي»، لكن النصيحة قد تكون مجدية، وقد تصبح غير مفيدة، بحسب درجة وعي المنصوح، وقدرته على التمييز، ولن يخيب أبداً من استشار.

1. النصيحة لطلب الزواج:

شاب مقبل على الزواج، قرأ كثيراً عن مكر النساء وحبائلهن، فكّر، ثم قدّر، وطلب النصيحة. سأل حكيماً عن المرأة، وعن كيفية اتقاء مكرها. فأشار عليه بأن يبني لها منزلاً من الحجر، ذا أسوار عالية، ويكون له باب واحد، ونافذة واحدة عالية، بحيث لا يستطيع أحد الدخول أو الخروج، وأن يوفر لها ما يكفيها من المؤونة، وما تحتاج إليه، ويحكم غلق الباب، ويحتفظ بالمفتاح. فعل الشاب كل ما طلب منه، يقفل الباب قبل خروجه، وعندما ينام يضع المفتاح تحت مخدته.

2. هذه امرأة: حجرة ملقاة في بئر:

نجحت الزوجة الشابة في اصطناع ما يساعدها على بلوغ النافذة، فصارت كلما خرج زوجها تتفرج منها على العالم الخارجي، رأت مرة شاباً وسيماً فوقعت في غرامه، وتواصلت معه، وفكرت في الظفر به بأي طريقة. وكانت حيلتها سقي زوجها ما يفقده وعيه. تساءل زوجها مع نفسه، وهو يعاقرها إياها عن سبب ذلك؛ لأنه لم يعهد ذلك منها، وتظاهر بأنه ثمل، وطلب النوم، وهو متنبه إلى ما يمكن أن تقبل عليه. وبدأ الشخير. سرقت المفتاح، وخرجت، وهو يتابع ما يجري. أغلق الباب من ورائها، وصعد إلى النافذة، فرآها بعد مدة عائدة، فرفض فتح الباب، وهي تستعطف وتتوسل بأنها لن تعود إلى ما قامت به، أنبأها بأنه سيخبر والديها بما أقبلت عليه، ولما لم يُجدِ الطلب، قالت له إنها سترمي نفسها في البئر.

لم يأبه لكلامها، فأمسكت حجرة، ورمت بها في البئر، فتوهم زوجها أنها فعلتها، وندم. ولما خرج ليستطلع الأمر، تسللت إلى المنزل، وأحكمت إغلاقه عليه. وجلست قرب النافذة، تسب وتلعن، وتخبره أنها ستقول لأبويها ولكل أصدقائه بأنه مخطئ، وأنه رجل غير أمين. وكيف أنه يتركها كل ليلة، ويذهب عند عشيقاته. وهذا ما فعلته، فصار مهاناً من لدن الجميع، وذليلاً أمام كل من يعرفه.

تنبيه ثانٍ: الحيلة أحسن من العار:

قبل الشاب النصيحة، ولكنه لم يحسن التصرف، بعدما اكتشف مكر الزوجة وخداعها، فانقلبت النصيحة ضده، وكل ما قرأه عن مكر النساء، وتطبيقه النصيحة حرفياً لم يجدِ شيئاً، ومقابل المكر يمكننا الحديث عن الحيلة.

3. وتلك امرأة أخرى: أو النصيحة المجدية:

سأل المريد شيخه بعدما سمع قصة المرأة الملقاة في البئر، أن يحكي قصة أخرى، حسب ما ورد في «عهدة النساك»، تكون نقيض هذه. فقال: سافر أندلسي إلى مكة للحج، وفي طريقه إليها ترك صرة مملوءة ذهباً عند من قُدِّم إليه على أنه الرجل الثقة الأمين الصادق. بعد رجوعه من الحج، أنكر المصري أن يكون قد رآه، أو ترك لديه وديعة. وباءت كل محاولاته بالفشل، ولم يجدِ الاستعطاف شيئاً، بل إن الرجل سبّه وهدده قائلاً إنه إذا رآه مرة أخرى أمام منزله فستكون عاقبته وبالاً عليه. استسلم الحاج، وعاد هائماً على وجهه في الحواري والأزقة. صادفته امرأة عجوز عليها ملابس الرهبان، وسمات الإحسان. سألته عن حالته، وهي ترى ما هو عليه من حزن وغم! فأخبرها بقصته. فأجابته بأنه إن كان صادقاً فيما يدعيه، فستعود إليه أمواله.

4. الحيلة، وما أدراك ما الحيلة:

فرح الحاج بما بشرته به العجوز، وسألها كيف؟ قالت له: أحضر لي رجلاً تثق به، ولما رأته طلبت منه شراء عشرة صناديق مطلية بألوان تدل على الرفاهية والغنى، ومزنَّرة بالحديد، وعليها أقفال غالية الثمن، وأن يملأها بالحجارة الصغيرة، ويحملها إلى بيت الحاج. ولما فعل، قالت له: أريد عشرة رجال يحملون الصناديق بالترتيب، وكل واحد بعيد عن الآخر بمسافة معينة، ويتوجهون جميعاً صوب منزل الرجل الذي خانك. وسأكون برفقتهم، أنا ورفيقك. وعندما يصل أول حامل للصندوق إلى بيته، ويضعه عنده، تتقدم أنت إليه. كان المصري يطل من نافذة بيته فرأى صفاً من الحمالين يقصدون بيته، أخبرته العجوز أن رجلاً غنياً يريد أن يترك عنده مالاً بعدما وصلته أخبار جيدة عن أمانته، وصدقه وثقته. ورجته أن يقبل الاحتفاظ بالمال؛ لأنه متأكد من أمانته دون غيره من الناس، وأنها هي أيضاً شجعته لما سمعته عنه.

في هذه اللحظة دخل الحاج الأندلسي، فلما رآه المصري خشي أن يطالبه بماله، وأن يسمعه الآخر، الذي يريد أن يودع عنده الأمانة، فيمتنع عن ذلك. فذهب مسرعاً إليه، وهش في وجهه وبش، واستقبله بالأحضان، قائلاً: لقد انتظرتك مدة طويلة لتأتي لأخذ مالك، إنه في الحفظ والصون. وذهب إلى غرفته، وعاد إليه بصرة ماله، وهو مزهو بأمانته، وتصرفه. وفرح الأندلسي باسترجاع وديعته.

لما رأت العجوز أن الحاج استعاد ماله، قالت للمصري: أنا ورفاقي سنذهب لملاقاة الصناديق الأخرى. أتمنى أن تنتظرنا حتى نأتي بها كاملة. وهكذا بقي المصري على الباب ينتظر وصول بقية الصناديق إلى الآن.

تنبيه أخير: نجاح هذه وتلك:

نجحت الشابة في مكرها، وأفلحت العجوز في حيلتها. سمع الزوج النصيحة، فكانت وبالاً عليه. وسمع الحاج النصيحة فحولته من وضع إلى آخر نقيض. إن الزوج والمصري انطلى على كل منهما مكر الحجر، وحيلة الصناديق المملوءة بالأحجار. رغبة الزوج في الانتصار لـ«كرامته» ضد المكر، أدت به إلى الكارثة. وأمل المصري في إبراز «أمانته» أمام الحيلة جعله يقع فريسة خيانته.

إنها ليست قضية أنثى وذكر، ولكن مسألة وعي وإدراك.

حماية النبات
والاحتفال بمواسمه

أ.د. مصطفى جاد

عميد المعهد العالي للفنون
الشعبية بالقاهرة

من أبرز المعارف الشعبية حول النبات تلك المرتبطة بحماية النبات أو المحصول من الطيور التي قد تأتي لالتهامه في الأرض الزراعية، وأشهر المعارف في هذا الإطار «دمية خيال المآتة»، وهي دمية تتخذ هيئة إنسان، تصنع من القش المحشو في ثياب، تُثبت وسط الحقول الزراعية، لإخافة الطيور وإبعادها؛ حتى لا تأكل المحصول. وفي الأردن يُطلق عليها «الفزاعة» أو «الشرشوح»، وهي عبارة عن خشبتين متصالبتين تنصبان في البساتين، يوضع عليهما قطع من الأقمشة تتخذ هيئة إنسان لإيهام الطيور كي لا تقترب من المزروعات وتنقر الثمار. وهناك أيضاً «المرجامة» التي تعد من أدوات طرد العصافير، يتم نسجها من الصوف، بحيث يتصل بطرفيها حبل طوله نحو المتر، ويوضع وسط كتلة الصوف المقعرة كومة من الأحجار الصغيرة يطلقها

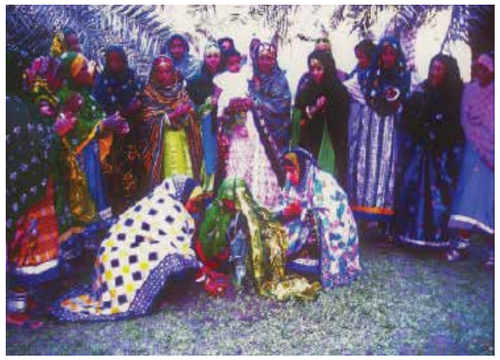

الفلاح لتهريب الطيور من الحقل. أما «المخيول» فيعد من الأدوات التي يستخدمها الفلاح لإخافة الطيور وإبعادها عن النبات، وتوضع غالباً فوق أكداس القمح. وتحتفل الجماعة الشعبية بزرع النبات، وجني المحصول بكثير من الممارسات حول مكان جمع المحصول، وطرق الجمع، ووقت الجمع، فضلاً عن الطقوس التي تمارس قبل كيل المحصول وبعده، وكيفية إعداد المحصول للبيع، وتعبئته ونقله من مكان لآخر. وتشمل الكثير من الاحتفالات بطقوس وأداءات فرجوية.

ومن هذه الاحتفالات نجد موسم «النوروز»، وهو موسم ارتبط بإمارة الفجيرة للفرجة على الثيران، وهي تتناطح بعد وزن التمر ونقله للمستودعات، ويقام عادة يوم الجمعة في مكان مخصص يسمى: مناطح الثيران. وفي سلطنة عُمان تشتهر «زَفَةْ الكَيذا» وهي أغان تتداولها النساء في موسم الغرس، وارتبط الاسم بالشجرة التي يستخرج منها عطر الكيذا، وهي من الأشجار النادرة التي تنمو في الريف العماني، ويعتقد أنها تُشيع السعادة والتفاؤل في المكان الذي تزرع فيه، وتعد بالنسبة للمرأة العُمانية رمزاً للخصوبة والنماء، ولا تنمو إلا إذا قامت الفتيات الأبكار بزراعتها. وفي سوريا «احتفالات اليوزة» التي تحل في أوائل سبتمبر، وتعلن بداية موسم الحصاد. وفي فلسطين «موسم جداد الزيتون» أو «لقاط الزّتون»، من أكبر المواسم حول قطف الزيتون، مثل «حُواش الزيتون» أو «موسم القطاف»، ويعد موسم قطف الزيتون من المراسم التي تشهد تنوعاً في الاحتفالات في المنطقة العربية على نحو ما نجده في تونس ولبنان والأردن. وفي مصر تشتهر احتفالية «المصالحة»، وهي احتفالية سنوية يقيمها أهالي واحة سيوة خلال الأيام القمرية الثلاثة بشهر أكتوبر، مسايرة لموسم جني التمر، وتقوم على المصالحة والتعاون بين أهل الواحة والقبائل والشيوخ والطرق الصوفية. كما يُحتفل في مصر أيضاً بأربعاء أيوب أو «رعرع أيوب»، وهو الأربعاء السابق لعيد القيامة لدى الأقباط - منتصف أسبوع الآلام - والتسمية تعود للاعتقاد بأن سيدنا أيوب اغتسل مدلكاً جسده بنبات أخضر يسمى الرعرع، فشفي من أمراضه. وفي السودان تشتهر احتفالية «جَدْع النَّار» أو «الأووكي» أو «موطاغا» أو «أبمبم»، وهي احتفالية موسم الحصاد والبدء في عملية الحرث لدى أهل النيل الأزرق، وتبدأ

عـادة في شـهر سـبتمبر لمـدة شـهر، وترتبـط بهطـول الأمطـار، وتنتهـي بإشـعال النـار وحذفهـا تجـاه الـشرق رمـزاً لتتويـج حمايـة الموسـم الزراعـي. أمـا «مهرجـان حَـب الملْـوك» فيعـد مـن أشـهر الاحتفـالات في شـمال إفريقيـا، ويُقـام مـع نهايـة موسـم جنـي الكـرز (حـب الملـوك) بمدينـة صفـرو بالمغـرب منـذ 1920، كـما يُقـام بمدينـة تيـزي أوزو بالجزائـر. ويحتفـل بـه لمـدة ثلاثـة أيـام في شـهر يونيـو، ويسـير فيـه موكـب كبـير تـؤدى فيـه فنـون الموسـيقى والغنـاء الشـعبي. ويضـم مجموعـة مـن العربـات لمختلـف البيئـات الثقافيـة، ويتـم خـلال الاحتفـال انتخـاب ملكـة جـمال حـب الملـوك، رمـزاً للعلاقـة بـين جـمال هـذه الثمـرة التـي تُشـبّه بجـمال الفتـاة، فتترشـح تسـع فتيـات، يرتديـن اللبـاس المغربي التقليـدي، وتتـوج الملكـة بتـاجٍ مـن الذهـب الخالص.

وقـد سُـجل الاحتفـال بالمغـرب عـلى قائمـة اليونسـكو للـتراث الثقـافي غـير المـادي للإنسـانية عـام 2012. وفي الجزائـر يشـتهر «العَشَّـابَة» أو «موسـم الحصـاد»، الـذي يُحتفـل بـه في بدايتـه، وتقـوم المـرأة بعـد ذلـك بطحـن القمـح والشـعير المـدروس ثـم تخزنـه لخبـزه خـلال العـام بأكملـه. وفي موريتانيـا يُعـرف «موسـم الكَيطنـة» بكونـه موسـم جنـي التمـور بواحـات تكانـت وآدرار. وفي اليمـن يُحتفـل بنبـات القـات، وهـو نبـات أخـضر يتعاطـاه اليمنيـون تُـزرع في بعـض المناطـق اليمنيـة، ويتناولهـا معظـم اليمنيـين بمـا يُعـرف بـ«تخزينـة القـات»، وارتبـط بكثـير مـن الطقـوس، والعـادات، والتقاليـد، والمعتقـدات.

وإلى جانـب مواسـم زراعـة وجنـي النبـات، فهـو يعـد أيضـاً مـن العنـاصر الرئيسـة في احتفـالات دورة الحيـاة، ففـي الميـلاد تـبرز بعـض الممارسـات كدفـن خـلاص المولـود تحـت شـجرة مثمـرة كبـيرة ليأخـذ الطفـل مـن حظهـا، وفي شرق إفريقيـا تُسـتخدم مـادة مـن «شـجرة المُـر»، تُربـط بمعصـم المولـود لوقايتـه الشـيطان، يُطلـق عليهـا «مَلْمَـلْ جِرْ». وفي عـادات الـزواج يصاحـب الـورد احتفاليـة زفـاف العروسـين في كثـير مـن المجتمعـات، فضـلاً عـن عـادات أخـرى في المناسـبة نفسـها مرتبطـة بالنبـات والأشـجار أيضـاً، عـلى نحـو مـا نجـده في شرق إفريقيـا، حيـث نجـد نظـام زواج يُعـرف باسـم «جَيـدْ فَطِـي» أو «الجلـوس تحـت الشـجرة»، يبـدأ بمرحلـة الاختيـار، ويشـارك فيهـا شـيوخ العشـيرة للموافقـة عـلى العريـس، ثـم تبـدأ أسرة الفتـاة بتجهيـز شـجرة تـم إعدادهـا بعنايـة تجـرى بهـا مراسـم الخطبـة. وفي تونـس احتفاليـة «بَرْبُـورَة النّظْرِيفَـة» التـي تتـم في سـاعة متأخـرة مـن الليـل، حيـث تقـوم أربـع نسـوة بإخـراج العـروس والطـواف معهـا حـول الشـجرة وهـن يغنـين، ويُعطـي للعـروس عصـا مـن الشـجرة، فتـضرب بـه كل مـن يمـر أمامهـا مـن الشـباب والشـابات لتحثهـم عـلى اتخـاذ قـرار الـزواج. وفي المغـرب احتفـال «عـرُوسْ ماطـا»، وهـو احتفـال تمثيـلي يبـدأ بإعـداد النسـاء عروسـة «ماطـا»، التـي تصنـع مـن الـورق والـبرواك (نبـات أزهـاره صفـراء) وتزيينهـا، ثـم يحـضر شـباب المـداشر، ويلحـون في طلـب العـروس، وتقـوم الفتيـات باختيـار الشـاب المناسـب. أمـا الاحتفـال بوفـاة الميـت فتنتـشر خلالـه كثـير مـن الممارسـات المرتبطـة بالنبـات، لعـل أشـهرها عـادة وضـع النبـات عـلى قـبر الميـت عنـد زيارتـه. كـما تتـم زراعتـه حـول المقابـر، وهنـاك أنـواع معينـة مـن النباتـات التـي تتـم زراعتهـا حـول المقابـر اعتقـاداً بأنهـا تخفـف آلام الميـت.

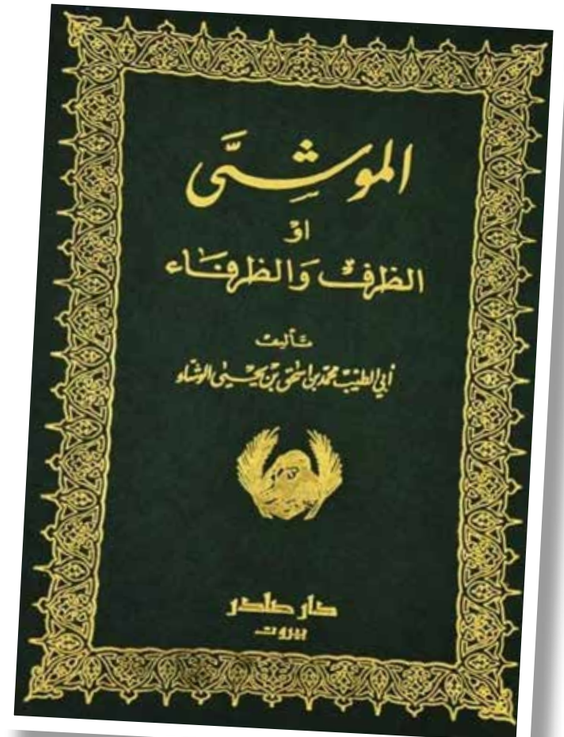

خالد عمر بن ققة
إعلامي - الجزائر

«الموشَّى أو الظرف والظرفاء»..
كتاب للّهو والعلم و«الإتيكيت»

(تشَّدنا «كتب التراث» إليها، وتقتحمُ حياتنا المعاصرة، فُنَسائِلُها وُتَساِئُلنا، وأحياناً تشكِّل لدينا مرجعيَّة للأفكار والأطروحات والدراسات، وفي كل ذلك تأسيس للمعرفة عبر المطالعة، إذا ما تفادينا الاستغراق في قضاياها، أو اتِّخاذ موقف الخصومة أو العداوة منها، وبحثنا عن سبل استحضار ما جاء فيها، بما تمثله من امتداد زمني وتراكم ثقافي، وتفاعل بشري، من خلال قراءة واعية، تمكننا من توسيع مجالات المعرفة ومتعتها بما تحمله من اتفاق أو اختلاف مع قضايانا المعاصرة، على النحو الذي نقّدمه هنا في قراءة كتاب: «الموشى أو الظرف والظرفاء»).

يعدُّ هذا الكتاب الذي بين أيدينا «الموشَّى أو الظرف والظرفاء» لمؤلفه أبي الطيب محمد بن إسحق بن يحيى الوشَّاء، حالة من التَّراكم المعرفي التراثي، من ثلاث نواحي، أولاها: الناحية الزمنية، فهو يتجاوز زمن تأليفه منذ 11 قرناً تقريباً إذا ما نظرنا إليه من زاوية عمر مُؤَلِّفِه، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه عاش في الفترة ما بين (246-325هـ/ 860-936م)، وإن كانت لا تحدّد السنة التي نشر فيها هذا الكتاب.

من جهة أخرى، فإن هذا الكتاب عاد من جديد إلينا عبر الدور الذي قام به المستشرقون في دفع تراثنا القديم - المكتوب تحديداً - إلى الواجهة الثقافية على المستوى العالمي، بلغاتهم المختلفة، اعتماداً على الكتب الصادرة بالعربية، كما هو في كتابنا هذا، الذي حققه المستشرق رُدُلف إبرُوُنو (أمريكي من أصول ألمانية)، سنة 1303هـ/ 1886م.

• خاصّة الخَاصَّة

وعلى النَّسخة السابقة، اعتمدت «دار صادر» - بيروت، في طبعتها الكتاب «الموشَّى أو الظرف والظرفاء» سنة 1992م، وسبق أن صدر، في طبعته الثانية، عام 1371هـ/1953م، عن مكتبة الخانجي في مصر، وحققه كمال مصطفى، كما صدر في طبعات لاحقة عدة خلال 126 سنة الماضية، في عدد من الأقطار العربية، الأمر الذي يكشف عن أهمية الكتاب، ومدى الإقبال عليه.

النّاحية الثانية: «القيمة المعرفيّة للكتاب»، فهو مقسم إلى أبواب في جزأين، تحدث فيها المؤلف على شرائع المروءة، وأزياء الظرفاء وسننهم، وأخبار العشاق، ودور الشعر - إلقاء وكتابة - في تصنيف طبقة الظرفاء - بالمعنى الأدبي، وليس السوسيولوجي، بحيث تميزها باعتبارها نُخْبة، تترفَّعُ ليس فقط عن أقوال وأفعال العامة، وإنما عن بعض من الخاصَّة، لدرجة يمكن اعتبارها «خاصّة الخاصَّة»، وهو كما قيل في مقدمة الكتاب - التي صاغتها در صادر: «.. فهو والحق يقال كتاب فريد في بابه وأسلوبه، ودقة وصفه، وتصويره لحياة الظرفاء، وضع صاحبه على حدّ قوله: كل ما يستحسنه الظرفاء، ويميل إليه الأدباء، فكأنما هو مجموعة أنظمة لعُصْبة مخصوصة من الظرفاء والظريفات، يبدو منها كيف كانت عندهم حدود الأدب..». (ص 6)

الناحية الثالثة: «المعنى الثقافي والتراثي للتظرف»، وذلك بالتأكيد على أمرين أساسيين، الأول: يخص أركان التظرف - كما وردت في الجزء الأول - وهي: تحصيل الأدب، والتحلي بمكارم الأخلاق، واستكمال شروط المروءة ومتطلباتها، ويستدعي هذا كله العفة والطهر في الحب، وقد دعم ذلك لكه بقصص وحكايات ومرويات عمن مات من شدة العشق والوجد، ومن تعفف في حبه، كما أورد قصصاً عن غدر النساء والرجال ووفائهم.

• مسالك العاقل

والأمر الثاني: الوقوف عند الظرف، باعتبارها ظاهرة اجتماعيّة، لها بعدها الأخلاقي، كما أنها تجسد أنساقاً ثقافية، وتروي بعض تجارب الظرفاء في ذلك الزمان، وتكشف عن حياتهم المتميزة والخاصة من حيث المأكل والملبس والمشرب، وشمائلهم وخصائصهم، وطرقهم وأساليبهم وعاداتهم في كل أنواع الخطاب المشترك بينهم، وتعبيرهم عنه شعراً، وتطويع اللغة لخدمة أفعالهم الثقافية والاجتماعية المعبرة عنهم وعن ظرفهم، وعن مشاعر الود أو العتاب واللوم المتبادلة بينهم.

الملّاحظ أن المؤلف - وهو الأديب والكاتب والشاعر - يحدد لنا من البداية مدخلاً يحمل حكماً قيمياً - متفق عليه - وهو: «إنَّه لا أدبَ لمن لا مُروءة له، ولا مُروءة لمن لا ظَرف له، ولا ظَرف لمن لا أدبَ 11 له» (ص9)، وهذا الحكم - إن جاز اعتباره كذلك - يقوم على إدراك حدود الأدب وتأصيلها أوَّلاً وأخيراً، وهو مطلب دائم في كل العصور والأزمنة.

والأمر على النحو السابق، يجعل مسالك الظرفاء، وقناعاتهم، وحتى اختياراتهم - غير المبالغ فيها، أو لم يلبسوها بظلم - تجربة ثرية، قابلة للتطبيق في عصرنا، جلها أو بعضها - كونها تظهر قيماً مستقرة وقادرة على مواجهة تعاقب الأزمنة، مع بعض التغير، الذي يحصل في الغالب بسبب للرؤى المختلفة لمسألتي «الثابت والمتحول» في منظومة القيم، وانعكاس ذلك على تطبيقها.

وعلى صعيد التَّأْسيس للمعرفة، من حيث هي قواعد نظرية يُتَلَّعُنا المؤلف بالصفات الخاصة بالإنسان العاقل المتميز عن الجاهل، وذلك بما يراه من المسلمات، أو من الأمور التي تحظى بالإجماع، في «باب البيان عن حدود الأدب»، حيث يقول: «اعلم أنّ أوّل ما يجب على العاقل المنفصل بصِفتِه عن الجاهل أن يتّبعه ويميل إليه، ويستعملهُ ويحرصَ عليه، مجالسة الرّجال ذوي الألباب، والنظرُ في أفانين الآداب، وقراءةُ الكُتُب والآثار، وروايةُ الأخبار والأشعار، وأن يُحسِنَ في السؤال، ويُتْبِت في المقال، ولا يُكثِرِ الكلامَ والخطابَ، إن سُئل عمّا يعلمه أجاب، وإن لم يُسأل صمَت للاستماع، ولم بتعرَّض لمكروه الانقطاع..». (ص 14)

• لمن أرد الرُّشْد والطّيب

وعلى ذلك التأسيس لما يميز العاقل، وقد يكون يقصد المثقف الواعي، يوضح الوشاء الهدف من تأليف كتابه: «.. واعلم أنَّ مذهبنا في هذا الكتاب إلى معنى صفة الظرف، وما يجب على الظريف استعماله، وذكر ما يجب عليه تركه، وما اخترعنا في كتابنا هذا علماً من عند أنفسنا، يجب لنا به الامتحانُ، ولا يلحقنا به عيب من عاب، إن عاب، ولا على أنّه يُطلب لفظُه، ولا يمنع عند معايبهم إلا مَعيب..». (64)

هذا الإقرار من المؤلف دفعةً إلى دعم كل قصة، أو وصف، أو عبرة، بشواهد سابقة من التراث الديني والثقافي العربي، وعلى هذا الأساس، نجده يُورِد بعض الأحاديث النبوية، والأقوال المأثورة، وأقوال عن الصحابة والخلفاء والحكماء، إضافة إلى استشهاده بالشعر سواء أكان لشعراء معلومين، أم لمجهولين تعذر معرفته أسماءهم، ولا شك في أن هذا الأسلوب من الكتابة يُحيلنا إلى أسلوبنا العصري في الأبحاث والدراسات لجهة دعمها بالمراجع والمصادر، ما يعني أسبقية الأقدمين في هذا المجال.

وعلى صعيد البحث دائماً لجهة الإشارة أو التأصيل، أو لتبيان مصدر قصص الظرفاء في هذا الكتاب، فإن الكاتب يحدد أساليب جمعه المعلومات الواردة في كتابه، حيث جمع التراث الشفوي لتلك القصص، ثم حوله إلى نص مكتوب، ومحفوظ، يعيد إليه الباحثون والقراء.

المُدْهش هنا، أن المؤلف يختصرُ ما يؤرقنا في عصرنا هذا لجهة السعي لجعل الكُتُب ممتعة عند قراءتها، في تأكيده أن الهزل والجد، أو كما يسميهما المتعة والعلم، يجتمعان معاً في كتاب واحد، لنتابع قوله: «ألّفْناه وجمعناه من أقاويل جماعة من الظُّرَفاء والمُتطرّفات، وأهل الأدب والمروّات، سمعناهم، ورأيناهم يتكلمون به، ويستعملونه، فأحببنا أن نجمع ذلك، ونجعله لهواً لمن أراد سمَاعَه، وعلماً لمن أرد اتّباعه، وهدياً لمن أراد رُشْدَهُ، ومناراً لمن أراد قصدَه، وطيباً لمن أراد شمَّه، وأدباً لمن أرد فَهْمه..». (ص 64 ـ 65)

• عِماد الظَّرف.. وخِصَاله

حالة التمكن لدى الكاتب، وتحديده للهدف من مؤلفه لجهة شموليته، والعمل على توجيهه لفئات مختلفة من قراء زمانه، وزماننا أيضاً، تجعلنا نقرأ هذا الكتاب من زاوية الاطلاع الموسوعي لأهل ذلك الزمان، حين وصلت الحضارة العربية الإسلامية في عهد العباسيين إلى أوجها، مثلما نراه من زاوية الدرس التعليمي عند التأليف بالنسبة لعصرنا الراهن، بحيث تغدو الكتابة فلسفة للتعبير بصدق ووعي عن المهام البحثيّة، بما فيها تلك التي تؤرقنا بأسئلتها التعجيزية.

بمنطق عصرنا، قد نرى في الأسلوب الذي تحدث به المؤلف عن كتابه، نوعاً من الافتخار أو الاحتفاء المبكر بعمله من طرفه، ناهيك عن ادعاء مسبق بأهمية عمله، الأمر الذي يجعل البعض يصوب سهام نقده لأساليب الأقدمين في الكتابة، غير أن هذا فيه تجَنٍّ على التاريخ، إذْ لا يحق لنا فصله عن عصره، سواء أتعلق الأمر بالخطاب السائد بين عناصر النخبة في ذلك، أم كان تقليداً في تقديم الكاتب لمؤلفه أم الحديث عنه، أم حتى اعتباره مقصداً ترويجيّاً للكتاب، كما في عصرنا، مع الاختلاف في نسب الشك، والظن واليقين في الكتابة.

مهما يكن، فالواضح هنا أن الكاتب، وهو يروي قصص الظرفاء وحيواتهم، كان صاحب يقين من أهميّة مُؤَلَفِه، لما احتواه من معلومات، رآها ملتقى للعقول والقلوب، حيث المتعة والدرس والعبرة، وهو ما نستشفّه في قوله الآتي: «.. وكتابنا هذا رَوضة تتنزّه فيها العُقول، وعقودُ جوهرٍ زيَّنتْها الفصول،

إذ لم نُخْلِه من أخبار طريفة، وأشعار ظريفة، وأشياء نمّت إلينا، من زيّ ظرفاء النّاس في الطعام، والشراب، والعطر، واللباس، ومذهبهم فيما اجتنبوه من ذميم الأفعال، واستحسنوه من جميل الشّيم والأخلاق، وسأشرح ذلك وأبيّنه باباً باباً، لنقف عليه، إن شاء الله». (65)

وبغض النظر عن حكم من يطالع هذا الكتاب، فإن صاحبه أعطى شرحاً مفصّلاً على مستوى «المفاهيم» لمعاني وصفات الظرفاء وتصنيفهم من قبل أنفسهم، ويبدو أن ذلك يحمل قصديّة تحديد المكانة والدور، فعماد الظرف عندهم وعند أهل المعرفة والأدباء يقوم على «حفظ الجوار، والوفاء بالذمار، والأنفة من العار، وطلب السلامة من الأوزار..»، والأكثر من هذا أن الظريف لن يكون ظريفاً حتى تجتمع فيه خصال أربع: «الفصاحة، والبلاغة، والعفة، والنزاهة»، أي توافر كل الخصال الحميدة، ناهيك عن أنه في تعريف المؤلف: «أنبل ما استعمله العلماء، وصبا إليه الأدباء، وتزينوا به عند أودّائهم، وتحلّوا به عند أخلائهم..». (ص73)

• تحفة الموروث

ولا يكتفي المؤلف بالشرح ـ تفصيلاً، للظرف والظرفاء، من حيث المعنى فحسب، بل ذهب أيضاً إلى الحديث بالتفصيل عن كل ما يخص مفردات الخطاب المتداول بينهم، وأفعالهم، وعلاقاتهم، من ذلك وصفه طريقة جلوسهم إلى موائد الطعام والشراب، والأطعمة والفواكه التي يأكلونها، والأخرى التي يتجنبونها، واستعمالهم السواك، وأنواع الطيوب عندهم، وأسلوب مراسلاتهم.

كما تناول أزياء وملابس النساء والرجال السائدة في عصره، من خلال ذكر أسمائها وأنواعها، نسيجها وألوانها، والعبارات التي كتبت عنها، ومثلت رسائل في الحب والعشق والوصف، ومن خلال سادت اللغة العربية الفصحى بين الظرفاء، ومنها يمكن لنا اليوم معرفة المجتمع العباسي في إبداعه وترفه ولهوه.

بقي أن بعض الدارسين يرى في الكتاب تحفة أدبية، وحقيقة الأمر هو كذلك، إذا نظر إليه من خلال المعلومات الواردة فيه، ومتعة قراءتها، ومعرفة مكونات المجتمع العباسي، غير أن الكتاب يتجاوز ـ وصفاً وتفسيراً ـ التحفة الأدبية إلى الموروث الحضاري، بحيث يسهم اليوم في وعينا الراهن بأصول «الإتيكيت» وتطبيقاته، من حيث هو ميراث عربي قديم، علينا إحياؤه اليوم ضمن منظومة القيم، حتى نتفادى سيطرة الأنساق الثقافية الخارجية، وفي ذلك تكمن أهمية قراءته من جديد.

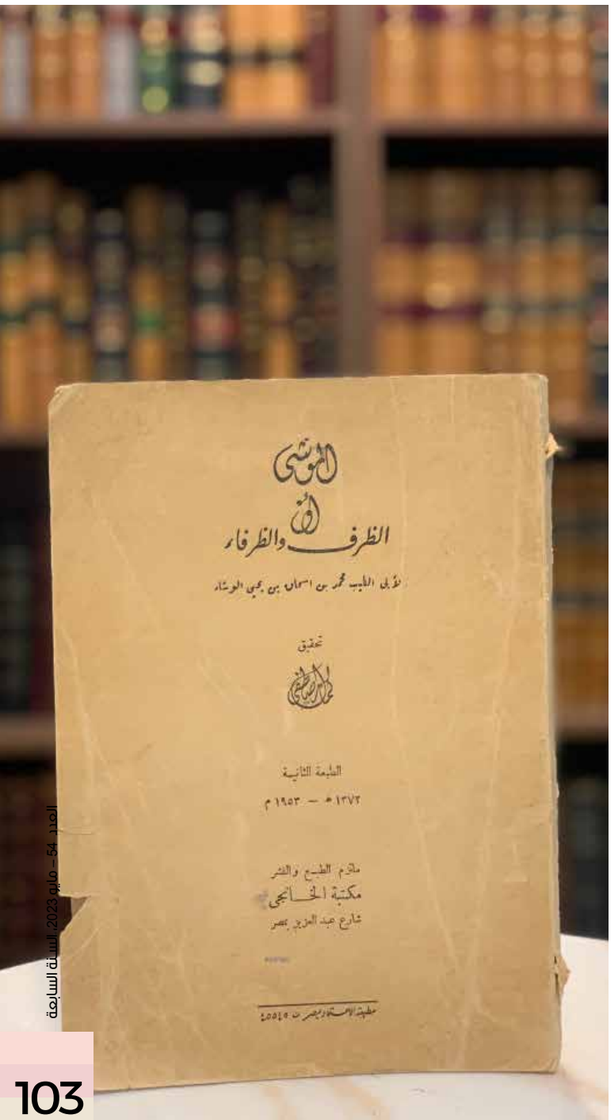

«النصيحة بجمل»

عبدالله خلفان الهامور
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

قصة جميلة ولها معانٍ كبيرة، سمعت هذه الحكاية قبل سنوات، وتجدد العهد بها منذ أيام، وسواء كانت من نسج الخيال أو أنها حدثت على الحقيقة، فإنها تحمل بين طياتها معاني كبيرة، نحتاجها في وقتنا الحاضر، تدور أحداث هذه الحكاية حول شاب بدوي، قد خرج من قبيلةٍ كان يعمل فيها، عائداً إلى قبيلته، ويقود بعض الإبل، وبعض المواشي التي كانت أجر أتعابه من عمله لبضع سنوات، عند أحد مشايخ القبائل، وهو في الطريق صادف رجلاً كبيراً واضح الوقار والحكمة، يعيش بمفرده في وسط الصحراء في خيمة، أخذت منها الرياح كل مأخذ، فقال الشاب في نفسه (أرتاح قليلاً عند هذا الرجل) فمال إليه، ورحب صاحب الخيمة بضيفه، ومن باب الفضول لدى الشاب سأل الرجل: ماذا تفعل بنفسك في هذا المكان؟ فرد عليه الرجل إني أبيع النصائح، وكل نصيحة لدي بجمل، فعرض على الشاب أن يقدم له ثلاث نصائح بمقابل أن تكون كل نصيحة بجمل، فوافق الشاب على هذا العرض الذي يبدو من أول وهلة أنه مغبونٌ فيه، ولكن الشاب جازف وقال: لعله خير، فما النصيحة الأولى؟ فقال الرجل:

النصيحة الأولى هي: ألا تنام بين اثنين.

والنصيحة الثانية: لا تسكن باطن الوادي.

أما النصيحة الثالثة: أن تنام على الندم، ولا تنم على الدم.

أخذ الشاب النصائح الثلاث، وتابع طريقه إلى قبيلته التي تبعد ليالي عدة عن خيمة الرجل الحكيم، وقبل حلول الظلام وجد خيمة صغيرة بين كثبان الرمال، فتوجه لها لعله أن يبيت فيها أو يتعرف إلى أصحابها، فلما وصل إليها، وإذا بشابين نحيفين استقبلا الشاب بكل حفاوة وترحيب، وطلبا منه المبيت معهما حتى الصباح، ثم يتابع مسيره إلى قبيلته، وافق الشاب وكانت بينهم الأحاديث إلى وقت متأخر من الليل، فقال: أحدهما للشاب: تعال نم بيننا، فإن هذا المكان هو لك، وكأن هذا الطلب سهمٌ غرز في رأس الشاب، حيث تذكر نصيحة الرجل الحكيم التي كانت نصيحته الواحدة تساوي بعيراً، والتي تمنعه من النوم بين اثنين، عندها اعتذر الشاب منهما، وطلب مكاناً آخر بعيداً عنهما، يمكنّه من الاحتراز لنفسه، وفعلاً كان هذان الشابان من قطاع الطرق، وحاولا في آخر الليل الوصول للشاب لقتله، وأخذ ما يملك من إبل وأغنام، ولكن لاتباعه نصيحة الحكيم لم يستطيعا الوصول إليه لاتخاذه جميع الاحتياطات التي تمكنه من الدفاع عن نفسه.

وشوابنا كانوا يقولون (لا تأمن البادي)؛ أي احذر من الرجل القادم إلى أن يصلك، والغريب إلى أن تتعرف إليه، ويكون بينك وبينه عشرة وسفر.

استمر الشاب في سيره إلى أن وصل إلى وادٍ وقد استقر فيه أشخاص مع مواشيهم وإبلهم للراحة، نظروا إليه، وطلبوا منه أن يرافقهم ويجلس معهم، فقد مالت الشمس للمغيب، ونيتهم المبيت في الوادي إلى الصباح، فتذكر الشاب النصيحة الثانية، وهي ألا يسكن في باطن الوادي، فرفض دعوتهم، وقال: سوف أنام في أعلى الوادي، وفي آخر الليل إذا بسيلٍ جارف يمخر عباب هذا الوادي، لا يبقي ولا يذر، وصحا الشاب على هذه الكارثة التي كان جزأ منها لولا نصيحة الرجل الحكيم واتباعه لها.

وشوابنا كانوا يقولون (ولا تسكن الوادي)، فقد تكون أمطار في منطقة جبلية بعيدة وتجري السيول في مناطق لم ينزل بها المطر.

تابع الشاب المسير إلى أن وصل إلى قبيلته ليلاً، ودخل بيته وقد سافر عن زوجته لطلب الرزق والمال، ولكن المفاجأة كانت أن في بيته ومع زوجته رجلاً غريباً! فأخرج خنجره يريد أن يقتله، وفي هذه اللحظة تذكر النصيحة الثالثة للرجل الحكيم، وهي: أن تنام على الندم ولا تنم على الدم، فأعاد خنجره إلى مكانه، وخرج ونام خارج البيت، وفي الصباح اجتمع الناس حوله يسلمون عليه، فرحين بعودته، وأثناء هذه الأصوات خرجت زوجته من داخل البيت ومعها ذلك الرجل الغريب الذي عرفتّه إلى زوجها بأنه أخوها الذي لم يره، والزوج يعرف بأن لها أخاً كان في سفر عندما تزوجا، ولم يره فعلاً، وقد أتى لزيارة أخته.

ماذا نحتاج من هذه الحكاية في وقتنا الحاضر؟

في وقتنا هذا نحتاج إلى الرجل الحكيم الذي يقدّم لنا النصائح، والذي بتنا لا نراه في هذا الزمان إلا نادراً، نحتاج إلى من ينصحنا ولو كان بمقابل، حتى ولو دفعنا المبالغ؛ لكي نتخطى هذه المحن والمصائب التي تحيط بنا من كل حدب وصوب، نحتاج إلى رجل حكيم يرشدنا إلى الطريق الصحيح، نحن في هذا الزمن افتقدنا كبير السن الذي كان يمسك بنا في الطرقات، وبين السكيك، ويقول لنا: (لا تسووا كذا وكذا، هذا عيب وهذا منقود)، أين هذا الرجل؟ أين هذا الكبير الذي اختفى عن ساحة هذا الزمن؟ نريد أن يعود النصح والأدب بيننا كما كان في السابق، نريد ذلك الرجل الذي يقول: (ليش ما نصحت أخوك أو صاحبك عن ذيك الفعلة أو ذاك الأمر؟)، نريد عودة كبير العائلة ليقوم بدوره في قيادة العائلة، كما كان في السابق، أم أننا وصلنا إلى تلك المرحلة والحقيقة التي قالها لي ذلك الرجل الكبير، قال: (لو اليوم نصحت ولد أو أدبته، وهو من أولادنا، قبل أن أصل البيت، تكون سيارة الشرطة عند باب بيتي، فاليوم لا نقدر أن ننصح ولا نأدب أحداً).

كذلك نحتاج اليوم من شبابنا عدم التسرع في اتخاذ القرارات، وإصدار الأحكام قبل أن يتيقنوا من الأمر جيداً، وعليهم أخذ الحيطة والحذر في جميع أمورهم، وأخيراً، فإن الفطنة والكياسة من صفات المؤمن.

التمسك بالتراث
طريق العودة

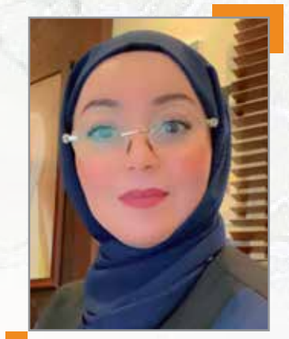

عائشة مصبح العاجل
كاتبة وإعلامية - الإمارات

يشيع الفضاء العام بالقلق، كثرة الصور وتشعباتها وصعوبة تفنيدها عن الحقيقة، وتداخل الأصوات ونشازها، واستحالة استخلاص ما يشنف الأسماع منها، واندلاق المعاني وغزارتها وتشويهها وهجانتها، حتى صار تأويلها استمطاراً لمزيد من التشويه المراد به تردي الذوق والمقاصد، وتراجع المعاني والمفاهيم.

للانفتاح على الآخر وجه قبيح ذميم لا يليق بالإنسانية وتحضرها، ففيه من الكذب والتصنع والتمثيل ما لا يليق بالقيمة الإنسانية، ولا يشبه طبيعته الخاصة والمخصوصة التي جبل عليها منذ الخلق الأول، تمردت الصورة، وحلقت في شتات المعنى، فلا هي تصل المعاني للفهم، ولا للضياع، وكذلك الألفاظ والمعاني تم التلاعب فيها، وتداخلها مع لغات الآخر وثقافته والا قيمة في تصوراته؛ حتى صار تهديد الهجانة يقرع أجراسه كل حين؛ ذلك أن العربية في خطر، والأخلاق في خطر، والقيم في خطر مخطور، وتداعيات الحصانة التي قصدنا بها تدعيم المسالك في المنحى الإنساني لم تؤتِ ثمارها، غرق الحابل في النابل، وصار التلاقي والانفتاح وغاياته السامية شراً لابد منه، ذلك أن الانفتاح قصد به التقارب والتحاور والتلاقي من أجل خير الطرفين، وما حصل أن نية طرف من الأطراف كانت الاستحواذ والتمكين والتدمير والتشويه، وحسن نية الآخر كانت السماح للنفاذ، ومحاولة التغيير، والتكيف، والتماثل مع الآخر، حتى ضاعت الصورة، وتميعت المعاني، ونشز الصوت. طريق العودة أصبح عسراً، فجيل بأكمله تمرغ في الاختلاف، وعايش الضجيج والهجانة، وتربى ذوقه على التمازج حد القتامة.

نيّة العودة لابد أن تنبع من صدق في سد المنافذ الأكثر تأثراً، وإعادة تأهيل العقول بوصف شفيق لمعاني التقارب، ورقي التجاذب والتواصل مع الآخر، والتعرف إليه، والاستفادة من تجاربه وخبراته ومعارفه وثقافته، لا استنساخها وطمس معالم ثقافتنا وإنسانيتنا وقيمنا، ومحاولة تقليد الآخر، والاصطباغ بلون لا يشبه الأنفة والعزة وكرامة العربي فينا.

العودة تتطلب شحذ الهمم، ومعرفة حقيقة اللبس الحاصل، وتغيير الأدوات الفاحصة، والأدوات التي بها ستحرث أرض التلاقي من جديد، كي يصير للانفتاح معنى التحرر الواعي والراقي للأفكار والثقافات والحضارات الإنسانية، معنى يليق بقيمة التلاقي والتقارب، ويليق بقيمة الإنسان وتراثه، فما قيمة الإنسان دون أثر يذكر، ودون تراث وإرث مادي ومعنوي يشبه أصوله، كون الموروث المادي يضاهي المعنوي في ربط الإنسان بعروقه وجذوره، ويعزز مكانته بين الشعوب، فمن ليس له ماض، ليس له حاضر، ومن ليس له أصل، فبمَ يرتبط؟ بل يظل تتخطفه الريح يمنة ويسرة، تعصف بداخله وتزيده شتاتاً، وما من شيء يتشبث به الإنسان أقوى وأسمك من التراث والعادات والتقاليد والجذور التي مهما طال الزمن، وتبدلت أجيال، وتوسعت مدارك وآفاق، إلا استوعبها التراث، وجاء بما يتماهى معها، ويتساوق مع حيثياتها، وكانت له حرزاً من الضياع والشتات.

خيبة العقر

د.محمد الجويلي
أكاديمي - تونس

تُقاس أهمّية المرأة بعد زواجها في المجتمعات التقليدية عموما بقدرتها على الحمل ثم الولادة ولذلك فإنّ المرأة العاقر كثيرا ما تعيش ضروبا من المعاناة القاسية على نفسها نجد لها صدى قويّا في الحكايات الشعبيّة العربيّة والعالميّة. انشغلت الانتروبولوجية فرانسواز هيريتيه (Héritier) بالمنزلة التي يضع فيها المجتمع الأوروبي التقليدي المرأة العاقر أو التي تقدّم بها العمر ولم تعد قادرة على الإنجاب سواء بتجريدها من أنوثتها وإعطائها أدوارا ذكوريّة تتحمّل فيها مسؤوليات بدلا عن الرجل أو في غالب الأحيان بتطليقها وإقصائها وتهميشها وعدم الاعتراف لها بأيّ خصلة محمودة بسبب عقرها، هذا العقر الذي يُنسب قديما دوما إلى المرأة دون الرجل. و تبعا لذلك فإنّ ما يجعل المرأة امرأة حسب هيريتييه ليس جنسها وإنمّا خصوبتها: قدرتها على الحمل والإنجاب.

إنّ ما تقوله هيريتييه حول منزلة المرأة العاقر في المجتمعات الأوروبية ينطبق تماما على منزلتها في المجتمعات العربيّة خاصة في زمن ما قبل التحديث الذي عرفته هذه المجتمعات وكان من ثماره خروج المرأة للدراسة ثمّ العمل. يقع الاحتفاء في كتب التراث بالولادة والمرأة الولّادة. فليست الشهوة الجنسيّة غاية في ذاتها في الزواج كما يمكن أن يعتقد البعض بل غايتها الأسمى هي الإنجاب كما يقول أبو حامد الغزالي «الولد هو الأصل، وله وُضع النكاح، والمقصود إبقاء النسل، وأن لا يخلو العالم من جنس الإنس، وإنما الشهوة خُلِقت باعثة مستحثّة» وإذا كان العرب كما يذكر الثعالبي في كتابه «فقه اللغة» تُكنّي عن المرأة كثيرة الأولاد بالنثور، وهي كناية مستلهمة من معجم زراعي تشبّه الولادة بنثر الحبّ في إحالة على الخصب، فلا شكّ أنّ المرأة العاقر يقع تمثّلها في المجتمع التقليدي كالأرض البور لا تصلح لشيء أو كما يقول المثل الشعبي المغربي كالخيمة دون أوتاد «لمرا بلا أولاد بحال الخيمة بلا أولاد». ولا نبالغ حين نقول أنّها تستحيل إلى رمز للموت والفناء وقد يظلمها المجتمع لأنّها قد تكون غير مسؤولة على عقرها وأنّ السبب في عدم إنجابها هو عقر زوجها ولكنّ المجتمعات التقليديّة لا تعترف بعقر الرّجال، وكأنّ الرّجل ولاّد بالقوّة !وكثيرا ما تلصق بها « خيبة العقر» لوحدها. من حسن الحظّ أنّ هذا التصوّر للعاقر بدأ يتغيّر تدريجيّا بالتنمية الثقافية وبتطوير التعليم، فصار يُنظر إلى المرأة إذا ما تعذّر عليها الإنجاب بقدرتها على خدمة مجتمعها من خلال الوظيفة التي تضطلع بها خارج المنزل في تربية النشء أو في السهر على صحّة الآخرين وفي الأعمال الأخرى التي يمكن أن تقوم بها للصالح العام وهي أعمال لا تقلّ أهمّية عن الولادة ، بل لربمّا تكون في بعض الحالات أفضل منها.

«البوتلاتش» و«الكولا».. نموذجان للهبات

خليل السعداني
جامعة محمد الخامس بالرباط ـ المغرب

1. البوتلاتش

وقف فرانز بواس Franz Boas، أبو الأنثروبولوجية الأمريكية ورائد المدرسة الانتشارية عند ظاهرة البوتلاتش potlatch لدى هنود ما يعرف بكولومبيا البريطانية، غرب كندا الحالي، في نهاية القرن التاسع عشر، ونجح في أن يجعل منها مفهوماً محورياً داخل الأنثروبولوجيا.

كانت القبائل الغنية بالمنطقة، قد اعتادت التعايش مع السكان ذوي الأصول الأوروبية، فكانت تبيعهم الفرو. وكانت تعتمد في معيشتها خلال فصل الصيف على القنص والصيد والتجارة والالتقاط، فيما كانت تلجأ في الخريف إلى ممارسة البوتلاتش، أثناء احتفالات ممتدة عبر فترات طويلة، وطقوس خاصة. وترتبط هذه الظاهرة ارتباطاً وثيقاً بالسياسة والسلطة؛ لأنها تعتبر مجال نزاع بين زعماء القبائل. فعلى الزعيم أن يظهر كرمه وسخاءه عبر إغداق الأكل وأشياء ثمينة أخرى، خاصة النحاسيات والأغطية الجميلة والنفيسة. إن الوضع يشبه لعبة يكون الرابح فيها هو من يخسر، أي من يعطي ويمنح من غير تردد. فنحن إذن أمام أداءات كاملة ذات طبيعة لاأدرية agnostic، وليس أمام هبات وهبات مضادة متكافئة. وتبلغ الظاهرة ذروتها عند قبائل الكواكيوتيل Kwakiutl، حيث يلجأ الزعيم إلى إتلاف كل ممتلكاته الثمينة، فيحرق منازله ويرمي بالآلاف من الأغطية في المياه أمام عموم الحاضرين، ليؤكد رفعته وتفوقه على بقية خصومه. ما يعني أن الشخص يعطي لكي يحطم ويدمر منافسه، ويجعله في وضعية يصعب أو يستحيل عليه فيها أن يرد بشكل مماثل، أو بحجم يفوق ما أخذ. فالبوتلاتش لا يعدو أن يكون منافسة حادة تؤول في نهاية المطاف إلى التدمير التفاخري للثروات. وفي هذا السياق، تتعاقد

العشيرة فيما بينها، وتمنح كل ما تكسب لزعيمها. ويقول مارسيل موس Marcel Mauss في مقالته حول الهبة: «لا يتعلق الأمر في بعض الحالات بالوهب والرد، بل بالتدمير، وذلك بعدم السعي حتى في إظهار الرغبة في الحصول على الرد من الموهوب له. ويتم إحراق صناديق من زيت سمك الشمعة وزيت الحوت، ويتم إحراق المنازل وآلاف الأغطية، ويتم تحطيم أغلى النحاسيات، وترمى في الماء قصد سحق المنافس وإذلاله. ولا ترقى، بهذه الطريقة، مكانة المرء نفسه فحسب في السلم الاجتماعي، بل مكانة أسرته أيضاً».

ولا ينحصر الربح المكتسب من البوتلاتش فيما هو رمزي؛ ذلك أن الوضع السياسي للأفراد داخل القبائل، والمكانة المكتسبة، ترتبط بالصراعات من أجل الملكية عن طريق ما يتم إنجازه أثناء الحروب والقنص، وما يتم تحصيله عن طريق الإرث والتحالف والزيجات التي لا تُكتسب إلا أثناء البوتلاتش الممنوح والمأخوذ. ذلك أنه يتم كسب وضياع كل هذه الامتيازات أثناء هذه الطقوس، كما في الحروب، وأثناء اللعب والتسابق

والصراعات. ويضيف موس: «يتم الحصول على المنزلة السياسية للأفراد داخل الأخويات والعشائر، وكذا المراتب على اختلاف أنواعها، عن طريق صراع الملكية كما بالحرب، أو عن طريق الحظ أو التحالف والزواج. ويتم تمثل كل شيء، كما لو كان صراعاً من أجل الثروة. فلا يتم تحقيق زواج الأطفال والحصول على مقعد في الأخويات إلا من خلال البوتلاتش المتبادل والمعاد». ويتضمن البوتلاتش عنصرين مهمين: مفهوم القرض والكرامة. ذلك أنه على من يأخذ الهبة ألا يعيد من جهته هبة مضادة في حينه، بل عليه أن يتريث، وإلا أصبح الأمر متعلقاً بمقايضة، وهذه لا تدخل في إطار المبادلات النبيلة، فالرد السريع يحيل إلى عدم القدرة على تحمل الدين، وربط علاقات اجتماعية وطيدة عن طريق إظهار الكرم. وتصل نسبة الفائدة في الهبة المعادة، حسب بواس، إلى ما بين 30 و100%، وعدم الوفاء يعاقب عليه بالعبودية. كما أن كرامة الشخص وقيمته الاعتبارية داخل المجتمع، ترتبط بمدى قدرته على تحمل الدين، وتحويل المدين إلى دائن. ومجمل القول إن غاية البوتلاتش هي القدرة على الوهب أكثر من المنافسين، لاكتساب مكانة رفيعة. ويقول موس في مقالته الشهيرة: «لكن الدافع لهذه الهبات وهذا الاستهلاك المحتد، وهذا الضياع والتدمير المجنون للثروات، ليس على أي مسألة لامبالاة، إذ يتم وضع هرمية بين الزعماء والأتباع، وبين الأتباع والموالين، فالوهب يعني إبراز الرفعة والسمو، إنها السيادة، بينما قبول الهبة دون إعادتها أو إعادة ما هو أغلى منها، يعني الخضوع والتحول إلى زبون وخادم والتصاغر والانددحار؛ أي الخدمة».

وفي نهاية القرن التاسع عشر، تم منع ممارسة البوتلاتش من طرف السلطات الكندية، لكن بواس دافع عن هذه الظاهرة أمام منتقديها، وأوضح أن الأمر لا يختلف عن القرض البنكي؛ أي أن الزعيم وهو يحرق ممتلكاته يقوم بنوع من الاستثمار الذي سيعود عليه بالربح لاحقاً. وبذلك وضع أسس النسبية الثقافية. ذلك أن علينا أن نفهم منطق البوتلاتش، كما يفهمه الهنود أنفسهم، لا كما نفهمه نحن. إن الحديث عن نسبية

الثقافات، والدفاع عن ظاهرة البوتلاتش، شكل ركيزة لضرب الفلسفة التطورية التي تنبني عليها المركزية الغربية، وكذا الأنثروبولوجية التطورية التي كان ينادي بها مكتب الإثنولوجيا الأمريكية Bureau of American Ethnology، الذي كان يديره جون ويسلي باول John Wesley Powel.

2. الكولا

ينتشر هذا الصنف من الهبة الدائرية لدى قاطني جزر تروبريان Trobriand، شمال شرق غينيا الجديدة بالمحيط الهادي. وقد قام بدراسته الأنثروبولوجي برونيسلاف مالينوفسكي Bronislaw Malinowski في مؤلف، مغامرو غرب المحيط الهادي Argonauts of Western Pacific الصادر سنة 1922. وقد وضع هذا الكتاب أسس البحث الميداني. فمعلوم أن الأنثروبولوجيين كانوا يكتفون بالاعتماد في السابق على المعطيات المستقاة من كتابات الرحالة ورجال الدين. ويختلف الكولا عن البوتلاتش بسبب طابعه السلمي، لكن يتشابه معه في كونه يرتكز على مفهومي القرض والشرف، ويخص الزعماء، ويخدم سمعة الواهبين، ويتخذ أشكالاً احتفالية. يقول موس في مقالته: «الكولا هو نوع من البوتلاتش الكبير. وهو يحرك تجارة ضخمة بين القبائل، ويمتد على طول جزر تروبريان، وعلى جزء من جزر أنتروكاستو وجزر أمفليت. ويسهم، داخل هذه الأراضي وبشكل غير مباشر كل القبائل، وبشكل مباشر بعض القبائل الكبرى. ولا يعطي السيد مالينوفسكي ترجمة للكلمة التي تعني دون شك دائرة [...]، وتتسم تجارة الكولا بطبعها النبيل. ويبدو أنها مخصصة في الوقت نفسه للزعماء، سواء تعلق الأمر بزعماء الأساطيل والزوارق، لكن طرأت على هذا النظام تغييرات عدة عقب اتصال أهالي تروبريان بالأوروبيين. وكان نظام الكولا يتعايش مع أصناف أخرى من التبادل، كتبادل الهبات والهبات المضادة المرتبطة بالزواج والدفن، ما يعني أنه كان يمثل استثناء. وتشكل المشاركة في الكولا قمة اهتمامات الساكنة؛ لأنه بفضلها يتم ربط علاقات صداقة، واكتساب سمعة وصيت عاليين.

كيف تتم عملية الكولا؟ تنطلق مجموعة من الرجال تحت إمرة زعيم الرحلة من الجزيرة (أ) نحو الجزيرة (ب)، حاملين في قواربهم أشياء ليست ذات قيمة، مكونة من مصنوعات زجاجية ومشحونات مجانية، تمثل أشبه ما يكون بطعم. وعقب الوصول يلتقي كل فرد مع شريكه القديم في التبادل، أو يبحث عن شركاء جدد عبر تقديم هدايا بسيطة. وعند قبولها يقدم الشخص المنتمي للجزيرة (ب) هبة ثمينة. وهكذا يتم ربط علاقة جديدة. ثم يتجه بعد ذلك رجال الجزيرة (أ) نحو الجزيرة (ج)، وبعد ذلك (د)... ويعودون محملين في النهاية بهبات نفيسة. وبعد بضعة أشهر أو سنة سيقوم سكان الجزيرة (ب) بالرحلة نفسها، ويتبعهم سكان بقية الجزر. ويشير مالينوفسكي إلى أن أي زعيم من تروبريان يتمكن بهذه الطريقة، من ربط نحو 200 علاقة صداقة. وتعتبر الفايغوا vaygu'a أي الأساور وعقود الصدف أهم عنصر في عملية التبادل والهبات. وتنتقل الأساور موالي mwali من الغرب إلى الشرق، والعقود سولافا soulava من الشرق إلى الغرب. ولا يمكن مبادلة سوار بسوار، ولا عقد بعقد، بل يعطى السوار عوضاً عن العقد. ويوضح موس أن الفايغوا تمتلك جنساً، فالعقود مذكرة، والأساور مؤنثة؛ لذا يميل كل منها نحو الآخر بشكل يشبه التزاوج. ويرى موس أن للفايغوا، على غرار النحاسيات في البوتلاتش، اسماً وشخصية وتاريخاً. كما أن لها مشاعر تدفعها إلى العودة إلى موطنها الأصلي. ولا ترتبط قيمة الهبات بحجمها فقط، وبطبيعة المواد التي صنعت منها، ولكن كذلك بقوة ووجاهة مالكيها القدامى؛ لذلك نجد هناك فرقاً بين القيمة الرمزية والقيمة النفعية للشيء. وكانت مجتمعات الكولا تسعى إلى إنتاج علاقات قرابة بغية الوصول إلى السلطة. ولم تكن الصراعات تخص الرجال وحدهم، بل النساء أيضاً.

«قصر الحصن»

رمز تاريخي يسرد للأجيال نشأة أبوظبي وتطورها

عبير يونس
كاتبة- سوريا

بقي قصر الحصن شاهداً على نشأة أبوظبي وتطورها، فهذا البناء الذي يعد الأقدم في العاصمة، يتشبع بالحكايات والقصص التي تمتد لمئات السنين، فمنذ بناء القصر مر عدد من حكام آل نهيان عليه، وكان لهم التأثير الكبير في تحوله وتطوره، منذ بناء القصر في العام 1795 وصولاً إلى الشيخ زايد الكبير (1855-1905)، والشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان في عام 1966، وأخيراً المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

ولذلك تعتبر الجولة في قصر الحصن جولة في تاريخ أبوظبي، فهذا المبنى التاريخي مازال يحتفظ بذكريات من تعاقبوا عليه عبر مئات السنين، ليروي قصصه للزوار جيلاً بعد جيل.

رحلة البدايات:

انتقلت قبيلة بني ياس من عاصمتها «المارية» في منطقة ليوا، إلى أبوظبي، وجرى هذا الانتقال على مرحلتين، الأولى بعد اكتشاف بئر المياه العذبة في أبوظبي، فأمر حينها الشيخ ذياب بن عيسى آل نهيان، ببناء قرية صغيرة هناك. وفي المرحلة الثانية انتقل الشيخ شخبوط بن ذياب مع أفراد قبيلته إلى الجزيرة في عام 1761، ووجه ببناء البرج الأول للحصن الداخلي في عام 1795 تقريباً، وتم تشييده حينها كبرج مراقبة لتوفير الحماية للتجمّع السكاني على الجزيرة، الذي تم توثيق نشأته لأول مرة خلال ستينيات القرن الثامن عشر، أما القصر الخارجي فقد تم بناؤه خلال فترة الأربعينيات من القرن الماضي.

ومن قبل ذلك في مطلع القرن الـ19، أصبح قصر الحصن مقراً للحاكم، ومركزاً لقيادة الحكومة السياسي والعسكري، ودخلت حينها أبوظبي في التاريخ الحديث، من خلال شبكة علاقات دولية، حين وقّع الشيخ شخبوط بن ذياب في يناير من عام 1820 على معاهدة السلام مع البريطانيين، كحاكم فعلي معترف به لإمارة ذات سيادة بالمعنى الحديث للدولة.

وبعد تعيين أول وكيل وطني مقيم لبريطانيا في الشارقة عام 1823، مهمته إرسال المعلومات إلى المقيم السياسي البريطاني في «بوشهر»، أصبح قصر الحصن منذ ذلك التاريخ مركز الحكم المعترف به إقليمياً لإمارة أبوظبي وحكامها من آل نهيان، ومثلت الإمارة كياناً سياسياً مستقلاً، ومركزاً لجذب الزائرين والرحالة الأجانب، وهو ما يؤكد بطريقة جديدة أهمية قصر الحصن كرمز ثقافي وتاريخي، ويعزز مكانته

فصول تاريخية:

خضع القصر لعمليات ترميم استمرت أكثر من 11 سنة، وفق معايير دقيقة، استندت إلى فهم المبنى وتاريخه والطبقات المختلفة التي يتكون منها، إذ بُني جزء من القصر بالصخور المرجانية، وجزء آخر حديث بالملاط وعناصر أخرى. وبعد الانتهاء من عملية الترميم افتتح أبوابه للزوار في عام 2018 كمتحف وطني يسرد محطات تاريخ إمارة أبوظبي، ليقدم تجربة متنوعة لاستكشاف فصول أبوظبي التاريخية، مقدماً بذلك صورة شاملة حول حياة الأجيال والحكام ممن عاشوا في القصر الخارجي، كما تكشف عن مراحل مسيرة ترميم وتجديد هذا المعلم التاريخي، في حين تزخر قاعاته بعدد من المقتنيات الدائمة والمتنوعة، بدءاً من المجموعات الأثرية، مروراً بالمواد الأرشيفية، وصولاً إلى الوسائط المرئية والتجارب التفاعلية.

ويمكن للزائر الذي يتجول في هذا المعلم التاريخي أن يتعرف في القاعة الأولى من خلال العرض البصري إلى الأسباب التي دفعت أسرة آل نهيان إلى الخروج من ليوا، بقيادة الشيخ عيسى بن ذياب، باتجاه أبوظبي بحثاً عن الماء العذب واللؤلؤ الطبيعي، تليها قاعة

كشاهد عريق على مسيرة تاريخ أبوظبي على مدار قرنين ونصف القرن من الزمن، حيث تحولت الإمارة من مجتمع ساحلي صغير إلى عاصمة عالمية متطورة.

كل هذه الميزات التي تخص هذا المعلم الحضاري تثير شعور الاعتزاز والاهتمام والانتماء باعتباره المركز التاريخي النابض في وسط أبوظبي، ومن خلال مساحاته المتنوعة يحرر أحاسيس الحنين والتقدير إلى ذلك الماضي الذي تستند إليه الإمارة، فعلى مر التاريخ كان قصر الحصن مقراً للحكومة وبيتاً للأسرة الحاكمة، وشاهداً على تطور أبوظبي من مجتمع ساحلي صغير إلى مدينة عصرية مزدهرة، وهو ما جعله رمزاً وطنياً وتاريخياً.

الشيخ شخبوط بن سلطان التي ضمت بعض مقتنياته، مثل الشال الخاص به، والمصنوع من الصوف الناعم. وبحسب التسلسل التاريخي يصل الزائر إلى قاعة المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، وتتوسطها صورته، كما تعرض العديد من مقتنياته الشخصية.

من بعد هذه القاعة، يمكن الوصول إلى ساحة القصر التي وزعت حولها الغرف التي يصل عددها لأكثر من 20 غرفة، تسرد من خلال المقتنيات الموجودة فيها قصص الأجيال المتعاقبة رجالاً ونساءً وأطفالاً، التي اتخذت من القصر مقراً للعيش لسنوات طويلة، باعتبار أن قصر الحصن كان مقراً للحكم وبيتاً للعائلة الحاكمة، ليجسد بأروقته وباحاته وغرفه نمط حياة أهل القصر، كما يسرد قصة قيام دولة الاتحاد واجتماعات القادة والقبائل، عبر دور المجلس الاستشاري الوطني، باعتباره محطة مهمة في رسم السياسات واستضافة الحوارات الأساسية التي سبقت قيام دولة الإمارات، فقد تم تشييد مبنى المجلس الاستشاري الوطني خارج جدران الحصن في عام 1968، ليصبح المكان الذي عقد فيه الشيخ زايد، رحمه الله، أول مجلس له، ثم تحول مبنى المجلس إلى مكان للاحتفاء بالمناسبات التاريخية، عقب تأسيس دولة الاتحاد في الثاني من ديسمبر عام 1971، حيث احتضن الاجتماعات الأولى للمجلس الوطني الاتحادي لدولة الإمارات العربية المتحدة، وقد تمت المحافظة على مبنى المجلس الاستشاري الوطني، الذي يجاور الحصن، كما كان خلال عمليات الترميم، لتتحدث العروض الضوئية في وسطه عن أهمية ما تم فيه، ويمزج، كما قصر الحصن، الماضي بالحاضر مقدماً صفحة مشرقة من تاريخ الإمارات.

الفن البيزنطي:
من 330 إلى 1453 ميلادي

وفاء داغستاني
مهندسة معمارية
اختصاص تخطيط عمراني
وتنمية مستدامة
معهد الشارقة للتراث

الحضارة البيزنطية:

هي حضارة شرقية عاشت على أرض عربية ومتوسطية شرقية، وبقيت محافظة على خصائصها الشرقية، رغم أنها كانت الوريثة الوحيدة للفنون الكلاسيكية الرومانية.

العوامل المؤثرة في العمارة البيزنطية:

1. من الناحية الجغرافية

تقع بيزنطة (القسطنطينية)على سبع هضاب، وعلى ملتقى البوسفور وبحر مرمرة، حيث تفصل آسيا عن أوروبا بشريط مائي ضيق، وتقع على ملتقى طريقين رئيسين للتجارة، هما الطريق المائي الذي يقع ما بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، والطريق التجاري الواصل بين أوروبا وآسيا، وبذلك كانت بيزنطة متحكمة في التجارة. لذلك نرى الفن البيزنطي قد انتشر في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وحمله التجار إلى اليونان وسوريا

وآسيا الصغرى وروسيا حتى المناطق الواقعة غرب المتوسط، مثل فينيسيا وغيرها، وكان لهذا الفن تأثير كبير في العمارة في هذه المناطق.

2. من الناحية الجيولوجية:

لم تكن مادة الحجر متوافرة في القسطنطينية، التي هي مادة أساسية في البناء؛ لذلك تم استخدام المواد المحلية، مثل الطين للقرميد والدبش للبيتون، أما مواد البناء كالرخام، فكانت تستورد من مناطق أخرى، وكانت تستخدم لإقامة المباني التذكارية.

3. من الناحية المناخية:

طور الرومان طرق إنشاء المباني؛ لكي تتلاءم مع المناخ، ما جعل أشكالها تقليدية، فالأسقف نراها مستوية في المساكن الصيفية، تم جمعها مع القباب الشرقية، بالإضافة إلى استخدام نوافذ صغيرة علوية، بالإضافة إلى الأروقة الواقية من الشمس والمطر، إن جميع هذه الأمور شكلت المظهر الرئيس للطراز المعماري في هذه المنطقة.

4. من الناحية الدينية:

استطاعت القسطنطينية أن تثبت دعائم المسيحية، واعتبرت الدين المسيحي هو الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية عام 323 ميلادي، وعلى ذلك كان الطراز البيزنطي في العمارة هو الفن الرسمي للأبنية العامة والكنائس والأديرة، ولكن سرعان ما وقع الخلاف بين المسؤولين في الكنيسة، خاصة حينما بدأ الانقسام السياسي يظهر بين الشرق والغرب في الإمبراطورية الرومانية، ونتيجة لهذا الخلاف غادر بعض الفنانين والمهندسين الإغريق إلى إيطاليا؛ لذلك نجد العمارة البيزنطية في الشرق خالية من التماثيل عكس العمارة البيزنطية في الغرب التي تميزت في كثرة التماثيل واللوحات والألوان الزاهية.

5. من الناحية الاجتماعية والتاريخية:

تعدّ بيزنطة من الناحية الاجتماعية مقر الحكم السياسي والديني والعسكري عام 234 ميلادي، نظراً لموقعها المتوسط بالنسبة للإمبراطورية الرومانية، كانت بيزنطة المدينة الإغريقية القديمة، فالمباني الحكومية التي أنشئت فيها تم بناؤها من قبل الحرفيين الإغريقيين المتأثرين بالروح والتقاليد الرومانية، ولذلك نجد أن القسطنطينية أنشئت بخطوط وأسس رومانية؛ لذلك نرى الفوروم والكنيسة مثل كنيسة (آيا صوفيا)، والقصر الإمبراطوري ومجلس العلوم ودار القضاء وغيرها... وبالإضافة إلى كنيسة آيا صوفيا، فقد تم إنشاء كنائس أخرى في القسطنطينية، وكنائس في سوريا وفلسطين. تعرضت الإمبراطورية البيزنطية للخلافات الداخلية والحروب المستمرة ضد الفرس والأتراك، التي انتهت في سقوطها بيد الأتراك العثمانيين عام 1453 ميلادي.

تقسم العمارة البيزنطية إلى ثلاث فترات:

- تميزت كل فترة منها بشخصية واضحة.

الفترة الأولى:

وهي الفترة الأهم في القرن السادس الميلادي، من عام 527 إلى 565 ميلادي، وبنيت خلالها كنيسة (آيا صوفيا) في القسطنطينية، ونتيجة الصراع مع الفرس والحروب

والخلاف والتنازع حول عبادة الأيقونات، أسهم ذلك في تحطيم وتخريب معظم الزخارف الداخلية للكنيسة، ومغادرة معظم العمال المهرة خارج الإمبراطورية.

الفترة الثانية:

تبدأ في القرن التاسع ميلادي من عام 867 إلى 1059 ميلادي، ظهرت نهضة معمارية في فينيسيا (البندقية)، ولكنها لم تدم؛ لأنها تعرضت للهجمات من قبل النورمنديين والفينيسيين، وفي عام 1204 ميلادي، سقطت القسطنطينية على يد الصليبيين، ونهبت بشكل كامل، وكانت النتيجة نهضة الفنون في الغرب، وزوالها في الشرق.

الفترة الثالثة:

بدأت من عام 1261-1453 ميلادي، وهذه الفترة تمثل آخر ازدهار للعمارة البيزنطية، حيث إنها تقلصت، وأصبحت عمارتها بسيطة من دون زخارف، ومن دون مواد غنية. وبدأت الإمبراطورية تفقد أجزاء من أراضيها، وفي عام 1453 ميلادي، سقطت القسطنطينية بيد محمد الفاتح، وانتهى مصدر الإلهام لكل من الفن والعمارة الأوروبية، ولكنها استمرت في روسيا ورومانيا، ومعظم الأمثلة التي أنجزتها العمارة البيزنطية التي بنيت بعد قرنين من انهيار ا لقسطنطينية .

برج المقطع..

بوابة أبوظبي التاريخية تعانق الحداثة

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

يمثل برج المقطع بوابة الدخول لجزيرة أبوظبي تاريخياً، حيث يقطع وسط خور، الهدف من بنائه أمام مدخل الجزيرة للمراقبة وحماية السكان من أي تحركات معادية ومواجهة المخاطر آنذاك، ويعتبر أحد الأمثلة القليلة لشكل الأبراج الدفاعية الساحلية المبنية من أحجار الشعاب المرجانية، وصخور الشاطئ.

ورغم تعدد الطرق اليوم إلى جزيرة أبوظبي بعد بناء الجسور، إلا أن البرج يحافظ على مكانه ومكانته التاريخية، فهو يشكل صورة للماضي في مواجهة المشهد العصري للجزيرة بكل عمارتها العصرية والمتطورة، كالجسور والمدن والمباني العصرية والشاهقة ومسجد الشيخ زايد بالقرب من المنطقة.

ومن أبرز عناصر التصميم المعاصرة إلى جانب برج المقطع، جسر الشيخ زايد، وهو من تصميم المعمارية الراحلة زها حديد، الحائزة جائزة برتزكر العالمية لفنون العمارة، يتميز الجسر بطرقاته المعلقة بأقواس فولاذية متناظرة، تأخذ شكل موجة مع صورة ظلية مائلة، تستحضر الكثبان الرملية المتموجة، ويبلغ طول الجسر 842 متراً وارتفاعه 64 متراً.

بينما يعتبر «جسر المقطع» الرفيق الأقدم لبرج المقطع، فهو شاهد كذلك على تطور مدينة أبوظبي، باعتباره النقطة الأولى التي ربطت بين جزيرة أبوظبي والعين ودبي، ويعد أحد الجسور الأربعة التي تربط الجزيرة باليابسة، إلى جانب جسر المصفح، وجسر الشيخ زايد، وجسر الشيخ خليفة.

ويبلغ عمر الجسر الجديد بحسب بلدية مدينة أبوظبي، باتجاه الخارج من أبوظبي 23 سنة، ويحتوي على 4 حارات وممري مشاة على جوانب الجسر مع 8 بلاطات خرسانية محملة على 8 عوارض حديدية. أما عمر الجسر القديم باتجاه الداخل، فيبلغ 54 سنة، ويحتوي على 4 حارات وممري مشاة على جوانب الجسر مع 8 بلاطات خرسانية محملة على 8 عوارض حديدية.

تاريخه

تم تشييد برج المقطع في أواخر القرن الثامن عشر بالتزامن مع تشييد قصر الحصن، وكان البرج يمثل علامة للقادمين لجزيرة أبوظبي حتى خمسينيات القرن العشرين، فهو بمثابة استراحة عبور قبل دخولهم إلى المدينة، بسبب بُعد المسافة عن المدينة وكذلك عن قصري الحصن والبطين الواقعين في المنطقة البعيدة داخل جزيرة أبوظبي.

برج المقطع اليوم يتوسط الخور بإطلالة على جسري المقطع والشيخ زايد عن يمينه وشماله، وهو بذلك يشكل صورة غاية في الإبداع تجمع الماضي والحاضر، وتاريخياً فإن البرج بني لتأمين العبور في المنطقة الضحلة من البر الرئيس إلى جزيرة أبوظبي، حيث كان عبور الممر المائي ممكناً فقط عند انحسار المد، حيث لعبت ظاهرة المد والجزر دوراً كبيراً في فصل جزيرة أبوظبي عن البر الرئيس للإمارة، ما أدى إلى وجود مسافة كبيرة من الماء بين اليابسة واليابسة، فبني البرج كنقطة مراقبة تنبه السكان إلى وجود خطر يتربص بهم من ناحية البر، ولهذه المهمة بني البرج

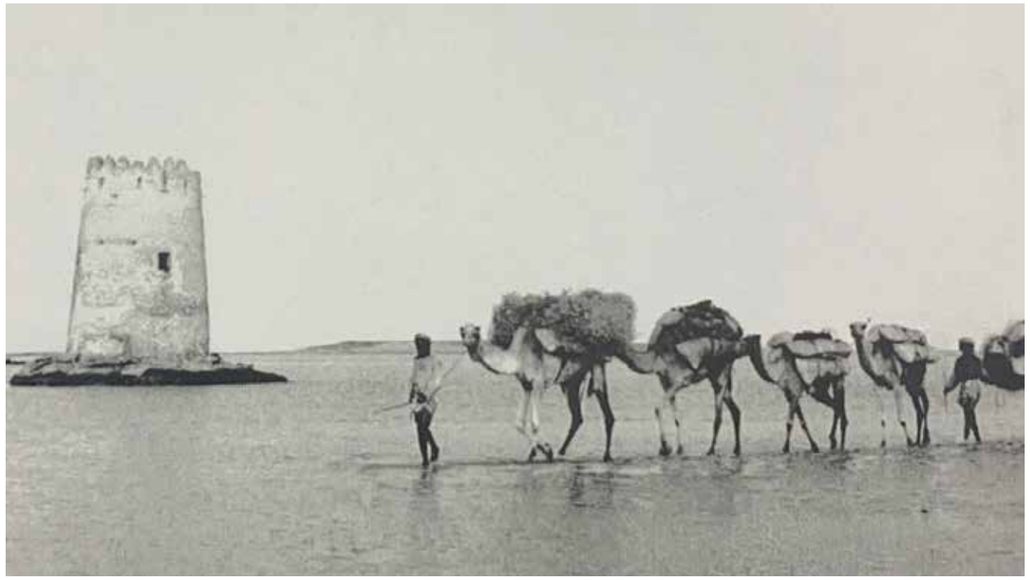

على مقربة من قلعة متوسطة الحجم كانت هنالك ولم تعد موجودة، ألا وهي قلعة المقطع، التي كانت تقبع في أول قطعة يابسة يمر بها القادم من مدينة العين أو الإمارات الشمالية، ولعل وجود جزيرة أبوظبي وانعزالها نوعاً ما مائياً كان أحد أسباب اعتمادها كموقع جديد وكعاصمة قبائل آل بوفلاح الذين عاشوا في واحة ليوا لمئات السنين .

في مطلع خمسينيات القرن العشرين، أنشئ معبر مؤقت غير ممهد لتسهيل عبور السيارات لقطع الخور باتجاه الجزيرة، وفي نهاية الستينيات تم إنشاء جسر المقطع وإعادة تدفق المياه بشكل طبيعي، وعودة الموائل الطبيعية الخاصة بالكائنات الحية.

وفي ستينيات القرن العشرين، أنشئ قسم للشرطة على البر الرئيس لتنظيم حركة المرور من الجزيرة وإليها، وتشييد مبنى قسم الشرطة من مواد محلية من الملاط الجصي وأحجار الشعاب المرجانية والبحرية، وأصبح مبنى قسم الشرطة لاحقاً دائرة للجمارك، وأدى هذا الدور حتى عام 1971، تاريخ تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة؛ لأنه لم يعد هناك ضرورة لوجود الجمارك على مدخل جزيرة أبوظبي.

التصميم والترميم

يتخذ البرج شكلاً دائرياً مخروطياً، قاعدته أكبر من قمته، وأبعاده للارتفاع 11.50 متر، وقاعدة قطرها 6.50 متر، وقطر القمة 5 أمتار، ويتكون من ثلاثة مستويات، ويبلغ ارتفاع المستوى الأرضي 3.70 متر مدفون كلياً بالحجارة والرمال، والهدف حمايته من القذائف المدفعية، وقد عثر فيه على مدفع حربي بطول يقارب المترين.

وقد طرأ على البرج تغييرات كثيرة غيرت من بعض مواد بنائه الأصلية، وهو ما دعا إلى عملية ترميم تعيده إلى حالته بأقرب ما يمكن، فتم وضع خطة علمية تلبي متطلبات الترميم وإزالة التجاوزات التي طرأت عليه، وقد تم فعلياً رفع الأنقاض من داخله، ونزع الإسمنت الذي غلفه من الداخل والخارج، وبدأت عملية الترميم بأساليب الربط والحقن وبناء الأجزاء المتساقطة، وتحديد الطوابق من الداخل، والاهتمام بتفاصيل التصميم كالمدخل والأنوف والشبابيك والمزاغل العمودية والمرامي والمسننات، وغلف الوجه الخارجي والداخلي بالجص، ووضعت السلالم الخشبية بين مستوياته، وتم تركيب سلم خارجي بديلاً للأصل، وغيرها من التفاصيل التي حرص القائمون على العملية على استخدام مواد أولية مطابقة للأصلية، مع إضافة خطوط كهرباء بهدف إضاءته ليلاً.

ويشير خبير الترميم الراحل عبدالستار العزاوي حين انتدب لمهمة الترميم آنذاك من إدارة الآثار في دائرة الإعلام والثقافة بالشارقة لمصلحة دائرة الأشغال في أبوظبي، إلى أن البرج ينتمي في تصميمه لفنون العمارة العسكرية، ويبدو جلياً الهدف منه الدفاع وخدمة المدافعين والمراقبين بداخله، ويتضح ذلك من قوة ومتانة وارتفاع بنائه، وتصاميم الفتحات والمزاغل والبدن كبناء دفاعي، وبناؤه فوق رابية ليتيح مشاهدة أكبر مساحة ممكنة، وقد صممت فتحات الأنوف في جسم البرج بطول متر وعرض 40 سم، وعددها أربع، وتقع فوق فتحات الشبابيك والمدخل لتساعد المدافعين على سكب السوائل الساخنة ورمي وقذف المواد لطرد العدو عند اقترابه، أما المزاغل العمودية فكانت بهدف الاطلاع والمراقبة. وينوه بأن المواد الإنشائية له استخرجت من المنطقة القريبة كالحجر المرجاني والجص، إضافة إلى بعض الأخشاب المستوردة، والدعون والحصر المحلية، والرمل والجص.

حلاوة اليماحي
طبيبة الوسم والخلطات العشبية

بكر المحاسنة
كاتب - الأردن

هنالك العديد من المعالجين بالطب الشعبي في الإمارات، بعضهم ورثها أباً عن جد، وآخرون تعلموها بالفطرة والتجربة والخبرة، وفي نظرة لمصطلح الطب الشعبي، فإنه يعني المعارف والمهارات والممارسات القائمة على النظريات والمعتقدات والخبرات الأصيلة التي تمتلكها مختلف الثقافات، التي تُستخدم للحفاظ على الصحة والوقاية من الأمراض الجسدية والنفسية أو تشخيصها أو علاجها أو تحسين أحوال المصابين بها.

في الإمارات يمتد هذا الطب في تاريخ البلاد كعروق الدم في جسد الإنسان الذي يسعى إلى العلاج، ويتناقله الأبناء بكل فخر واعتزاز، يقدمون من خلاله فرصة للحياة السعيدة، فهو موروث شعبي متأصل في أعماق ونفوس أبناء هذه الأرض.

ومن أشهر المعالجات بالطب الشعبي في دولة الإمارات الوالدة حلاوة خميس سعيد اليماحي (أم سعيد)، من منطقة الطويين في إمارة الفجيرة، التي اشتهرت بمهارتها وخبرتها الطويلة في ممارسة الطب الشعبي، حيث تعالج النساء والأطفال، وتوصف لهم دواء شعبياً، أو من خلال استخدام الكي في علاجهن، أو الخبانة أو المسح، كما تقول: «تعلمت هذه المهنة من أمي وزوجة أبي اللتين كنت أرافقهما في كل مكان تذهبان إليه لمعالجة النساء، وأسمع منهما ملاحظاتهما والحوارات التي تدور بينهما وبين المريضات».

وتضيف أم سعيد: «أقوم بمسح وتحديد مكان الألم، وبدأت أستخدم (الخبانة)، وهي حجامة جافة استخدم فيها إناء فخاري، وأوقد قطعة فحم، و7 حصوات، ومن ثم توضع في الإناء، وهو مقلوب على المكان المحدد للخبانة، والضغط الناتج عن الحرارة، يجعل الإناء ملتصقاً بالجسم، ومن ثم أحركه وفقاً لخبرتي في علاج مكان الألم، كما أستخدم الكي في علاج كثير من الأمراض».

وتأتي أم سعيد بالأعشاب والنباتات الطبية البرية من رؤوس الجبال في منطقة الطويين والمناطق المجاورة، التي تكثر في فصل الربيع ومواسم هطول الأمطار، وتستخدمها في علاج كثير من الأمراض، مثل المغص والتهاب اللوز والمعدة وارتفاع الحرارة، ومن تلك

الأعشاب عشبة تركة صالح، وتستخدم لعلاج الأم الصدر، وعشبة جيشوم لوجع الإمساك، بالإضافة إلى عشبتي الحرمل والجعدة ونباتات البان والتمر والخطف، وهي أعشاب تستخدم للعلاج بين جميع أهالي المنطقة والمناطق. كما تستخدم أم سعيد في بعض الأمراض الوسم (الكي)، كأحد الحلول النهائية للأمراض التي لا تعالج بالأعشاب الطبيعية.

وتتابع بالقول: «إن معظم النساء اللواتي يقدمن للمعالجة يعانين تأخر الحمل والأعصاب، والأمراض الحالية التي بدأت تنتشر كالتكيسات في الرحم، كما

أنها ترفع لوز الأطفال الملتهبة في علاج، يسمى شعبياً بـ«الترفيع».

وتضيف: الأمراض كثيرة، بسبب قلة الحركة وكثرة الأكل، وهما السمة البارزة في نساء اليوم، فيما كن سابقاً يعملن أكثر ويتحركن، ويأكلن الطعام الطازج الذي يصنعنه بأيديهن.

صيدلية متنقلة

تمتلك أم سعيد صندوقاً خشبياً قديماً، الذي يعد بمثابة صيدليتها المتنقلة، إذ تضع فيه جميع أدواتها ومكوناتها العشبية التي تحتاجها في العلاج، ومنها أدوات «الخبانة»، والأدوات التي تستخدمها في العلاج والأعشاب الأخرى منها المر، والعنزروت، و«الحلبة»، وأصابع الكركم غير المطحونة، والحرمل والقرط والقسط وجوز الطيب والشوارن وملح العريفي، وهو ملح طبيعي غير مطحون، وسدر مطحون، وكذلك حناء، وغيرها من الأعشاب، والمكونات، وتوصف تلك الخلطات لعلاج الصداع والالتهابات وأمراض الأطفال، كالإسهال وغيرها من الأمراض.

وتعرف «أم سعيد» مواقع المعدة والكبد والطحال وأجزاء الجسم الداخلية، رغم أميتها اعتماداً على خبرتها في عملها التي امتدت 30 عاماً، كما تقوم بتوثيق أعداد النساء اللواتي تعالجهن ومكان إقامتهن.

الحرف التقليدية

تمتهن الوالدة حلاوة اليماحي العديد من الحرف التقليدية القديمة، وعلى الرغم من اندثار بعضها، إلا أنها حريصة على إحيائها، ومنها مشغولات سعف النخيل، والتلي، وتجميع قطع التراث، وصناعة الزي الشعبي الإماراتي، ودق وطحن الحبوب والحناء، مؤكدة أن هذه المهن والحرف تؤكد ارتباطها الوثيق بتاريخها وتراثها الأصيل، وتعمل على تعليم هذه الحرف التقليدية لدى أبناء الجيل الجديد من الفتيات، وغرس حب التراث في نفوسهن، وذلك من خلال مشاركتها في المهرجانات والاحتفالات التي تقام على مستوى الدولة، وتنظيم العديد من الورش التعليمية والعملية الخاصة بالتراث في المدارس والمؤسسات الحكومية والخاصة.

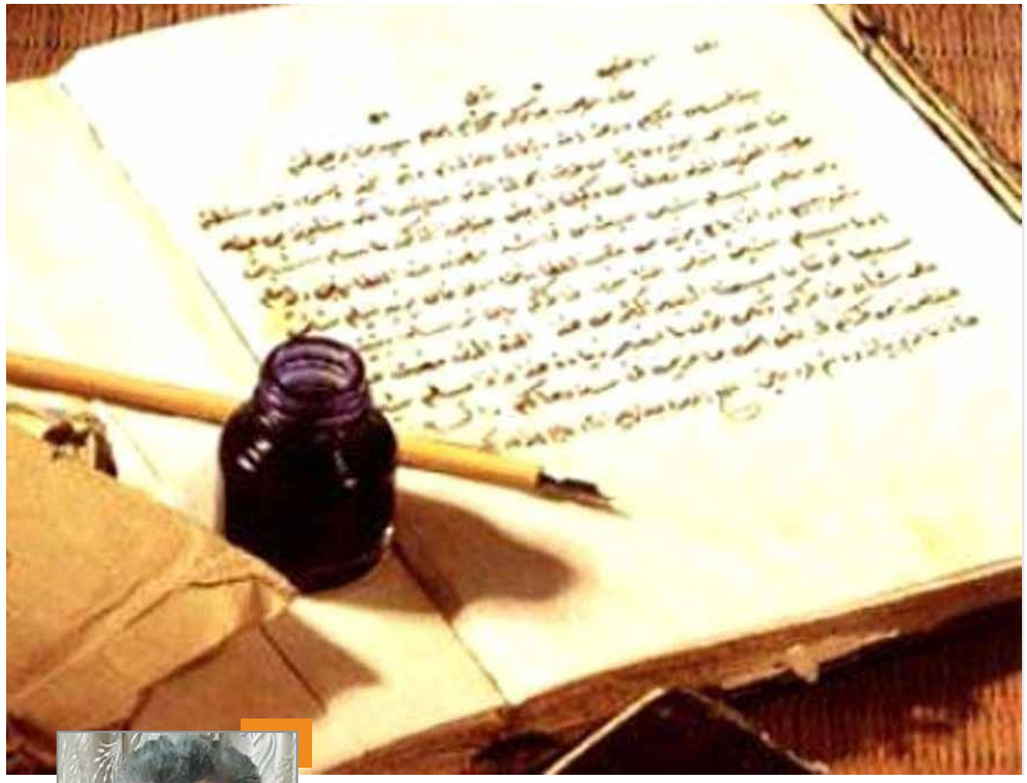

أهمية التدوين في التراث العربي

الحسام محيي الدين
كاتب – لبنان

ينهض التراث الجمعي لكل أمة على مستوَيَين من الحفظ: شفاهي مروي، وكتابي مُدوّن، كلاهما مُتعاقِب، إنما يُغاير الآخر في طبيعة الأمانة العلمية للمُدوَّن وحقيقة المادة موضوع التدوين، عطفاً على استشكال طبيعة حاجتنا إلى هكذا مادة من عدمها بين الأمس واليوم.

فمنذ ظهرَ العرب، تركز القسم الأعظم من تراثنا الإنساني على المرويات الشفوية للحكايات والأساطير والشّعر حتى نزول الوحي سماعيّاً على الرسول الأكرم، صلى الله عليه وسلم، الحدث الذي يمكن عَدُّهُ شرارةَ انطلاق الإنسان العربي إلى إعمال العقل في ضرورة تحويل ذلك الموروث الشفاهي إلى مدونات مكتوبة ذات أفكار وتعاريف وقواعد ودلالات، اجتماعية سياسية فكرية ثقافية اقتصادية، تحافظ على صدقية حقائق التاريخ العربي، وجديتها وأصالتها، كما وردت إلينا، وتؤكد أن العزوف عن التدوين يفتح باب التشكيك في التراث بوصفه مسألة ملحّة وحاجة ماسّة يجاوز بنا إلى ما نتحرى فيه الأفضل لمستقبلنا تحت راية الحضارة.

الفكرة الأساس إذن، هي أنّ عدم التدوين كان خطأ كبيراً، لاسيما قبل الإسلام، أسهم في ضياع كثير من حقائق وأخبار المنجزات الفكرية والعلمية والأدبية، كتنظيم التجارة والحج ومهرجانات الشعر، وبناء الجيوش، وعقد الأحلاف والمعاهدات وبناء السدود ومدّ طرق المواصلات للقوافل والرحالة، وإن كانت بتقنيات بدائية، إلى الاستدلال بالنجوم والبحث في بعض علوم الطب والفلك وغيرها من وجوه المدنية التي كان غياب التدوين عاملاً مؤخّراً في وقوفنا المعرفي الصحيح على حضارتها وفائدتها الاجتماعية والاقتصادية، ومدعاة تأمل عميق لإعادة النظر في تعميم صفة الجاهلية على كل شيء ما قبل ظهور الدعوة. ليس ذلك فحسب، بل لقد فعل الجهل بالكتابة فعله تاريخياً في إعاقة نهضة العرب قياساً على غيرهم من الأمم، عطفاً على ضياع المعاملات والحقوق والواجبات بين الناس، أو كما أكده القرآن الكريم لاحقاً: «وليكتب بينكم كاتب بالعدل»، مما لابد معه من بسط بعض أشكال التدوين، الذي مارسه العرب شاملاً الأحداث والمنجزات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية الحضارية المختلفة. لقد أعطى التدوين الطابع العلمي للمادة المُدوّنة، بدءاً بالتصنيف، فالدرس ثم التأويل، إلى أن تأتي في نهاية الأمر مرحلة التقدير التي نعني بها الحكم عليها قياساً على فائدتها الاجتماعية، وهو أمر يترجم رؤية المدوّن وثقافته وتقييمه الخاص لمدونته التي قد يرى فيها ما لا يراه آخرون، ولو كانوا من معاصريه، كما يستشرف أهمية تلك المادة في سياقها التاريخي/ الاجتماعي داخل الجنس الثقافي أو الأدبي الذي تنتمي إليه، مع التنبه إلى أن مجرد العبور بأي مادة شفاهية إلى الكتابة، إنما هو اعتراف بشرعية دخولها في نطاق سلّم الاهتمام الحضاري (ديني، فكري، اجتماعي، أدبي) لأمّة من الأمم، والذي تتفاوت درجاته بين الفاضل والمفضول في تراثنا العربي؛ فهناك من دوّن في التاريخ والجغرافيا، وآخر في السير والفتوحات والمغازي، وثالث في طبقات الشعراء أو الرواة والمحدثين والفقهاء، ورابع في السيرة النبوية والأحاديث الشريفة، وخامس في الحوليات؛ أي أخبار العرب اليومية كالطبري والمسعودي وابن الأثير، إلى آخرين غيرهم ممن نقلوا لنا أحوال التراث عبر حقب الزمن حتى يومنا هذا. أهمية كل ذلك أنه حفظ لنا تراثنا العتيد، لاسيما السيرة النبوية مثلاً تأريخاً وتوثيقاً للقاصي والداني، لاسيما في المراحل الزمنية الحرجة التي كثرت فيها الحروب والفتن والقلاقل، والخروج على الخلافة، وانتشار الشعوبية بالطعن على العرب ومآثرهم، ولما تشكله هذه المصنفات والكتب من روافد ثقافية أكدت للأمة حضورها الثقافي بين الأمم.

هنا في هذا المقام، فإننا إذ نقف على واقع التدوين بجانبيه التاريخي/ الاجتماعي، نؤكد أن تداخل الجانبين وتلازمهما أمرٌ محتّم ودائم في كل الدراسات والمطالعات الفكرية في هذا المضمار، ومنه تجب الإشارة إلى أنّ هكذا مهمة كشفت لنا حقيقة أنّ الإتقان صنو التدوين قولاً واحداً، لما يتطلبه الأخير من دقة وأمانة علمية ورشاقة مهنية في بلورة وإتمام الشكل والجوهر لكل تلك المروحة الهائلة جداً من المدونات على أنواعها، مما يدور في أفلاك الفكر والأدب والفن والاجتماع والدين والاقتصاد والسياسة، والتي حكم مسارها مستويان: الأول هو وقائعي تاريخي حصل فعلاً، والثاني هو من إبداع المخيلة الشعبية من لدن الجمهور، وفي الحالتين كانت الممارسة الكتابية أكثر وثوقية في الاتصال بالموروث بوصفها عملية نقل حرفيّ لنصوصه، بعكس الذاكرة الشّفاهية، التي وإن حقّقت الهدف نفسه أحياناً، وليس دائماً، فإنها افتقدت خاصيّة القطع في صحة تلك النصوص. فلقد عدَّ العربُ الحفظَ نعمةً كبيرة، كرهوا زوالها عنهم، في ظاهرة سيكولوجية حكمتْ سلوكهم وفسّرتها ميولهم إلى علاقة وجدانية، مع الإسلام تحديداً، الدين الوليد في منبعه الأساس، نعني محاولة الحفاظ على كينونته الأصيلة كما وصلتهم، تكون المروية الشفوية لا

الكتابية أحد وجوه أصالتها، همُ الذين كانوا يعدّون التدوين تثبيطاً لعزيمة الحفظ ولمروءة الاهتمام بالمحفوظ وقدسيته، إلا أن الوعي الفطري المبكر لرجالات الدين الحنيف الذين اختصوا بالهداية دفعهم إلى ضرورة التركيز على التدوين والكتابة، متنبّهين إلى أن تواتر الرواية شفهياً مبتعدةً في التاريخ والجغرافيا عن أرض مكة والمدينة مهدَي الإسلام الأول، قد يُفاقم خطر فتور العلاقة الوجدانية بتلك الأمكنة المقدسة، ما يعني ضرورة بسط كل ما يتعلق بالقرآن الكريم والسنّة والأحاديث وتعاليم الشريعة ومقاصدها مُدوّناً بثقة وموضوعية ونسبة صحيحة بالوسائل والتقنيات المتاحة في عصرهم. لقد نزل القرآن الكريم شفهياً على النبي، صلى الله عليه وسلم، وتمت كتابته على عهده بالاستناد إلى ذاكرته القوية في حفظ الوحي، وبأمرٍ منه لصحابة مُحدّدين توكيداً لحرصه الكبير على هكذا إجراء حضاري يخصّ القرآن بعينه، فكان يقول: «... ومن كتب عني غير القرآن فليمحه..»، وكان ممّن دونوا القرآن أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وابن عباس وغيرهم من أهل الحرص وتوخّي الدقة المتناهية في هذه المهمة الخطرة، مبتعدين آنذاك من تدوين الأحاديث الشريفة وبصورة مؤقتة لكيلا تختلط بالقرآن. وهكذا وبعد أن جرى تتبُّع القرآن وجمعه نهائياً من الرّقاع والعظام والسّعف واللّخاف ومن صدور الرجال على عهد الخليفة أبي بكر الصديق، ثم تدوينه كاملاً موحّداً درءاً للفتنة والاختلاف في القراءات على عهد الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنهما، التفتَ الصّحابة بعد ذلك إلى مهمة تدوين الحديث بعدما تم حفظه في صحائف عديدة، احتفظ بها بعضهم كعبد الله بن عمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، وجابر بن عبدالله وغيرهم، فكان لكلّ منهم «صحيفة» خاصة، قبل أن يتم ترتيبها لتتصل إلى القرن الثالث الهجري، حيث استقرّ جمعها وتدوينها متخذاً شكلاً علمياً دقيقاً بالتصنيف والتبويب والأسانيد الموثوقة مع أئمة الحديث، كالبخاري وابن حنبل والدارمي ومسلم والترمذي وغيرهم، ما يعني أن التدوين لم ينقطع يوماً منذ ظهور الإسلام، وأن له أهميته الكبيرة في العقل العربي، ما بدا جليّاً في مئات آلاف المصنفات العلمية والأدبية التي وصلتنا. بزاوية الرؤية نفسها إلى سيرورة الموروث غير الديني، كان واضحاً أن التلبّث على الحيّز الشّفاهي في غير مسألة فكرية/ أدبية أدّى إلى أخطاء كبيرة في تواتره، وسوء فهمه عطفاً على الخلط وتنامي الاشتباه في صدقية تمثُّلِهِ بيئةً وإنسان عصره، كما في قضية انتحال الشّعر الجاهلي التي فجّرها الدكتور طه حسين في عشرينيات القرن الماضي، والتي هي وعلى الرغم من كونها عملية تدوين لذلك الشّعر، وصلت إلينا في دواوين ومجموعات كتابية، إلا أنّ حسين طعَنَ في صحة نسبة هذا الشّعر إلى أهله وعصره، بسبب أن تدوينه جمعاً وترتيباً تأخّر حتى عصر صدر الدولة الأموية الذي يختلف اجتماعياً وثقافياً عن العصر الجاهلي المُفترَض أنّ ذلك الشّعر قد قيل فيه، وهي قضية ضجّت بها أروقة الجامعات والأندية والمحافل الأدبية على امتداد الوطن العربي، ولا تزال تجد حتى اليوم صداها في مجالات الأبحاث المحكمة الجامعية أو المطالعات النقدية. ولعله لا يخفى علينا أن الكثير من سِيَرِ البطولات التاريخية لم تكن أحسن حالاً وأكثر واقعية، لا سيما في المراحل التي تلازم فيها تقهقُر المجتمع ثقافياً واقتصادياً مع ازدهار اللجوء إلى الحكايات الخيالية التي رفعت من شأنها المرويات الشفهية، كسيرة علي الزيبق الذي يحكي كتاب «ألف ليلة وليلة» أنه ورث عن أبيه نضاله ضد السلطة ومواجهة فسادها، منتصراً للشعب على عهد المماليك بين مصر وبغداد، ما أعلى من شأن هذا الشاطر أو «اللص الظريف»، وجعله صاحب قضية حتى مستوى الملحمة البطولية في ذاكرة شعوب بأكملها، مما لا يزال موضع خلاف بين المؤرخين وباحثي التراث حول حقيقة ما قام به، لا، بل حول وجود هكذا شخصية أصلاً في التاريخ العربي من عدمه. ولم يكن الحال أفضل في أنواع العلوم العقلية التي أهملها التدوين حتى أوائل القرن الثالث الهجري؛ فقد ابتعد العرب من موضوعات الفلسفة والحكمة، واعتبروها تهويمات فكرية لا تلامس الواقع المُعاش بالنسبة للإنسان، إلا في حدود اهتمامات بعض العاملين بها من مُفكّرين وفلاسفة كالكندي وإخوان الصفاء وابن سينا وأبي نصر الفارابي وابن رشد وآخرين ممن دونوا رؤاهم الفلسفية مجتمعةً بمعظمها على محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، وإمكانية استخدام الأخيرة كمذهب أخلاقي ووسيلة لمعرفة الخالق ووحدانيته، على قاعدة مزج القيم الروحية بالمعرفة. كما تكاسل أهل الفنون عن تدوينها أيضاً، لا سيما النشاطات الفرجوية منها التي عدّها بعض الباحثين ممارسات مسرحية في تاريخنا العربي، كالحكواتي، والأراجوز وصندوق الدنيا وخيال الظل ومشاهد مصرع الحسين، وغيرها من العروض التي لو قُدّر لها أن تُدوّن جمعاً وتصنيفاً وتأويلاً، توّاً في المكان والزمان، لوصلت إلينا فنّاً متكامل السمات، نزعم معه أن لدينا كعرب تراثاً مسرحياً من النصّ إلى العرض لا يقل أهمية عن نظيره اليوناني، الذي أعلى من شأنه كتاب «فن الشعر» لأرسطو، بوصفه منجزاً مُدَوّناً رسّخ مقولة أن اليونان هم الآباء الشرعيون للمسرح، وعرّف العالم إلى مسرحهم وخصائصه في مهده الأول، مصنّفاً أنواعه ومُؤوّلاً مضامينه، حتى يمكن القول إنه لولا هكذا عملية كتابية وغيرها كثير، لظلّ هذا المسرح مجرد ظاهرة اجتماعية غريبة تتقاذفها الآراء، ومقيدة بسلطة الرواية الشفهية المتواترة، كالتي وصلتنا عن تجاربنا المسرحية. وفي كل حال وحين، ولأن التجديد سنّة الحياة، فإن ثقافة التدوين تدفعنا بقوة إلى إعادة إنتاج نظرات موضوعية للتاريخ، تفتح الباب واسعاً على وضعية الكثير من المصنفات والمراجع المكتوبة لناحية صحّة نسبتها إلى أصحابها، سواء في دائرة الصنف المدوَّن نفسه، أو في صنوف فكرية علمية وأدبية مُغايرة، أو العصر الذي كتبت فيه، والأهم من ذلك تقصي الفائدة العلمية لما وصلنا من كل تلك الموروثات، ويمكن أن يشكل ذخيرة الأمة من علوم ومعارف، مع وعينا بأن التدوين قد اتخذ اليوم شكل النشر الإلكتروني الذي لم يعد بالإمكان فصله عن الطباعة الورقية، نعني دخول التكنولوجيا الرقمية في أسّ هذه المهمة، من خلال الحاسوب، أو على جداريات كل التطبيقات المختلفة الذكية التي تتوافر بين أيدينا، ما يؤكد حاجتنا لاستثمار هكذا تطور حضاري تقني في تطور ثقافتنا العربية وتحوّلها إلى عالمية، تراثاً إنسانياً عظيماً.

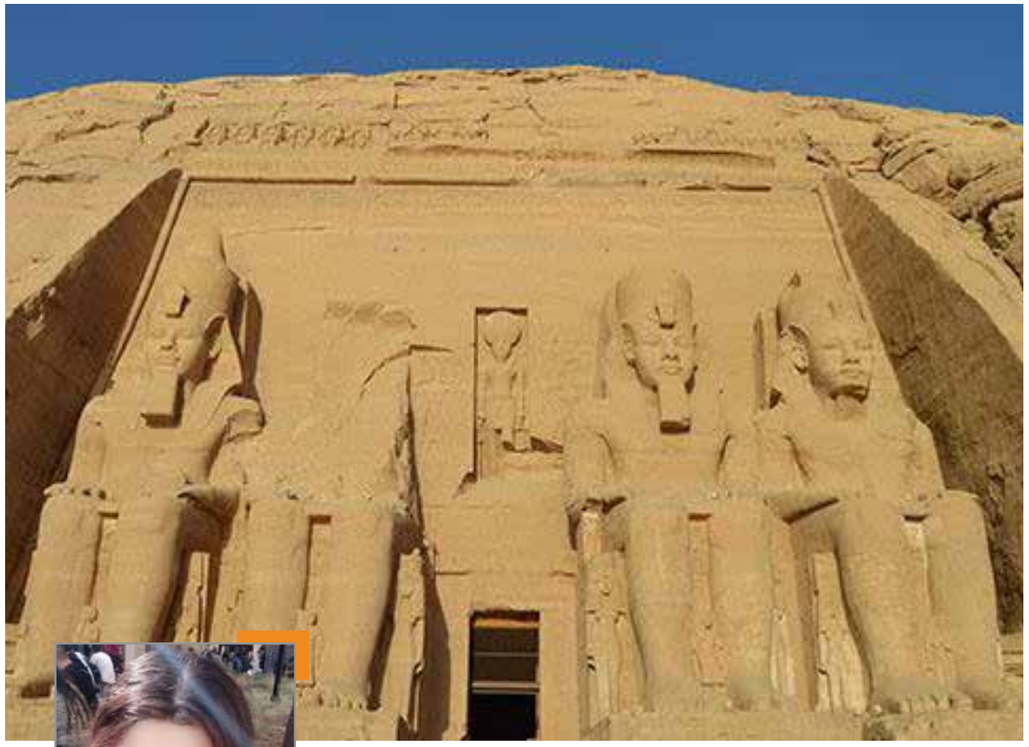

تراث معابد أسوان

يمتزج فيه المكان بالإنسان

غنوة عباس
كاتبة - سوريا

عُرِفَت مدينة أسوان في اللغة المصرية القديمة باسم «سونو» بمعنى السوق، حيث كانت ساحةً تجاريّةً بامتياز، ومحطّةً للقوافل التجارية، وقد حَرَّف الإغريق ذلك الاسم إلى «سين»، ثمّ تلاهم الأقباط فأطلقوا عليها «سوان»، إلى أن جاءَ العَرَب إليها في القرن السادس الميلادي، ونطقوها «أسوان»، وهي واحدةٌ مِن المُدن العريقة في الإبداع، والمُسجَّلة في قائمة اليونسكو في مجال الحِرف والفُنون منذ عام 2005.

تقع محافظة أسوان جنوب جمهورية مصر العربية، جزءٌ منها على السَّهل الَّذي يحفُّ بالنيل، تتربَّع بِرَوْنَقها على الضِفَّة الشرقية مِنهُ، فتجتمعُ الخُضرة والصُّخور والرِّمال مع الزوارق المُنسابة، وترسمُ أجمل اللوحات الطبيعية، بينما الجزءُ الآخرُ مِنها فيقَعُ على التلالِ التي تمُثّلُ حافةَ الهضبةِ الصحراويّة الشرقيّة. كذلك عُرِفَت باسم (بلاد الذَّهب)؛ لأنَّها مَقبرة لملوك النوبة الَّذين عاشوا فيها آلاف السنين، فكانت مَقرّاً لواحدةٍ مِن أقدمِ الحضارات في إفريقيا القديمة، ويمّثّل التراث النوبي جُزءاً أصيلاً مِن مُكونات الهويّة المصرية، وامتداداً للحضارة الفِرعونية.

ومازالت أسوان حديثُ الإلهامِ والتاريخ، فبمجرَّد التمعُّن بأثاث مُتحف أسوان وقِدمَه، وما يَضمُّه مِن المُومياوات للكبش (رمز الإله خنوم)، والفخّار بأنواعه، وعناصر مِعمارية وزخرفية، يسرحُ الخيالُ في صفحاتِ تلكَ الحُقبة، فالسقف مبني على الطراز الجمالوني، والمُتحف بالمُجمل مُقسَّم مِن الداخل وفقاً للعصور التاريخية، بالإضافة لوجود عددٍ مِن التوابيت، وأدوات

الحياة اليومية، وبعض اللوحات الجنائزية أيضاً، وكهوف منقوشة بنقوش فرعونية صخرية، ومآذن على الطرازِ الإسلامي، وبِقُربِه مقياس النيل.

معبد أبو سمبل

ولمعبدِ (أبو سمبل) الصخري أهميّةٌ كبيرة في أسوان، فهوَ أحدَ آثار النوبة المُدرجة ضِمن قائمة اليونسكو لمواقعِ التراث العالمي، يقعُ على الضِّفة الغربية لبُحيرة ناصر، ويضمُّ اثنين من أهمِّ المَعابد الصخريّة الضخمة، المنحوته بالكامل مِن الصَّخر، ليكونِ إحدى المُعجزات الهندسية المِعمارية في العالم القديم، والمعبدان هما (أبو سمبل الكبير) الذي كان لعبادة «رع حور آختي» و«آمون رع» و«بتاح» والمَلك نَفسُه، والثاني مَعبد (أبو سمبل الصغير) الذي يقعُ على بعد 100 متر مِن المَعبد الأوَّل، وقد كُرّس للمعبودة «حتحور» والملكة «نفرتاري» الزوجة الرئيسة للملك، فيظهر الإبداع المِعماري لهذا المَعبد مع تتابع تعامد أشعة الشَّمس على أقصى مَكان داخل المعبد - وجه تمثال رمسيس الثاني - بظاهرة تتكرَّر مرَّتين كل عام، تجذبُ الناسَ لمُشاهدتها مِن كُلِّ بِقاع الأرض.

معبد كوم أمبو

وفي مدينة كوم أمبو بمدينة أسوان، بُنيَ معبد (كوم أمبو) في عهد الملك بطليموس، وقد تمَّ اكتشاف لوحة أثرية فيه عَن الملكتين (تيتي شيري) و(أحمس

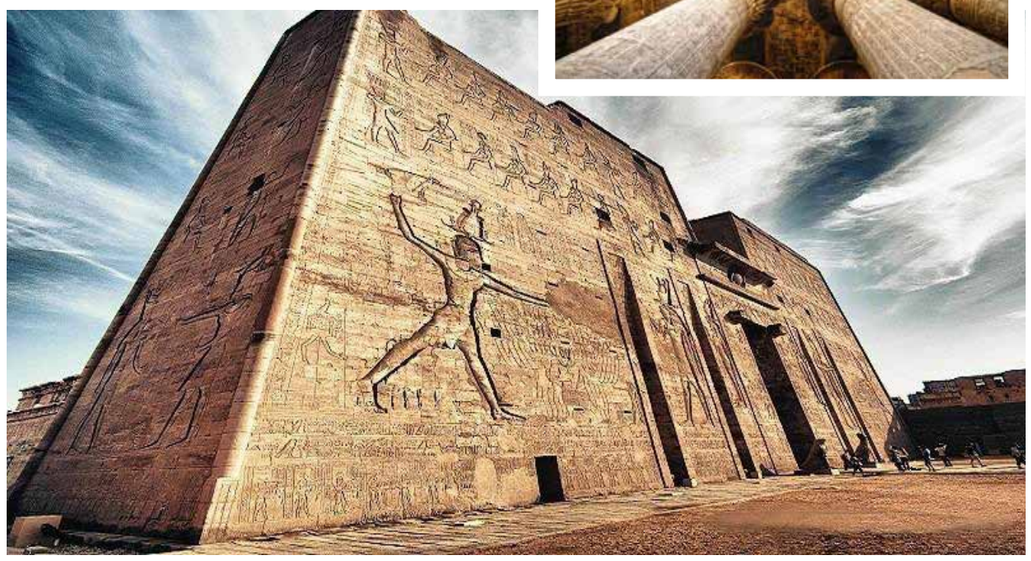

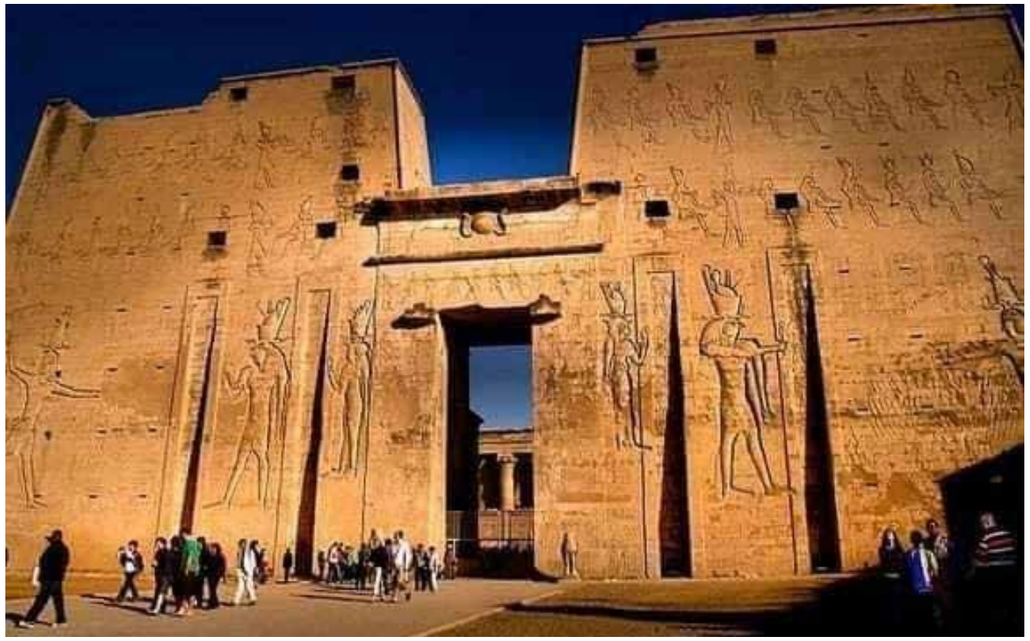

نفرتاري)، وهُما من أهمِّ الشخصيات النسائية في تاريخ الأُسرِ الفرعونية الحاكِمة، فالملكة (شيري) هي أُم المَلِك (سقنزع) وجَدَّة المَلك (أحمس)، وهي الّتي ألهمتهُما روحَ التحريرِ مِن الهِكسوس، وأسهَمَت في وضعِ أُسس العَصر الذَّهبي للإمبراطورية المصريّة، بل لها عظيم القداسة لدى المصريين، فقد ظهرَ جوهر أسوان في عَصرِ الدولة القديمة، وسطَّرَ تاريخاً جليلاً حينَ حاولَ مُلوك الدولة الوسطى مدَّ سُلطانهم جنوباً، فكانت تمُثِّلُ القوَّة الأساسية للحدود الجنوبية للبلاد، ومركزاً لحشدِ الجيوش للحربِ وتحضيرِهِم لأيِّ وقت، ولَعِبَت دوراً جباراً في مُقارعةِ (الهكسوس)، وهذا ما كَشَفت عنه اللَّوحة الأثرية في المعبد، والتي تُعيد تاريخ تشييده إلى عصر التحرير أي (1550) قبل الميلاد، وهي الفترة التي قامَ فيها الملك الفرعوني (أحمس الأول) مُؤسس الأُسرة الثامنة عشرة، بطَرْدِ الهِكسوس مِن مَصر.

كذلك اشتُهِرت لوحةُ «أدوات الجراحة» أو «لوحة الطب» في معبد (كوم أمبو)، تَظهرُ بِها الأدواتُ الّتي كان يستخدمُها الطبيب المصري، والتي تُبرز دِقَّته وبراعته، ومازالت تُستخدم ليومنا هذا، وقد كَشَفَت هذه اللوحةُ أسرارَ الطِّب لدى المصريين القُدماء، وشَكَّلت أحد أهم نُقوش المَعبد الّتي يتوافد السُّياح إليها، ويَحرصُونَ على تأمُّلِها، ولذلك وُضِعت في السَّاحة الخارجية للمَعبد، بهدفِ تخفيف زحام الزائرين الَّذين يقفون بالسَّاعات أمامَها.

معبد فيلة

وأمَّا عَن (معبد فيلة) فهوَ مَعبدٌ قديمٌ تمَّ بناؤه في (جزيرة فيلة) الواقِعة في مُنتصف نهرِ النيل، وهي إحدى الحُصُون الأقوى على طولِ حدود مِصر الجنوبية، وتَفصِل النيل إلى قناتين مُتعاكستين في أسوان، إلَّا أنَّ (اليونسكو) قامت بنقلِ المعبد في الستينيات خلال عمليّة بناءِ السدِّ العالي إلى جزيرة (أجيليكا)، وفيهِ الأعمِدة الشاهِقة المُزيَّنة بِنقوشها و رسوماتها التي تمزجُ حضاراتٍ عِدَّة (المصرية والرومانية واليونانية)، وعلى جُدرانه أساطيرُ الحُبِّ والرومانسية المَخطوطة، والتي يأتي لرؤيتها جميعُ السائحين، فجزيرة (فيلة) مِن أهمِّ المَقاصد التاريخية في مِصر؛ لأنَّ كُل ملوك مصر القديمة كانوا يحرصون على وضعِ أثمَن القِطع الأثرية في هذا المَعبد، ومِن أقدَمِ مُقتنياتِه مَقصورة للملك (طهرقا)، أحد مُلوك الأُسرة 25 النوبية. ويُذكر أنَّهُ في العصرِ الروماني، سعى الرومان للتقرُّب مِن المصريين، فقاموا ببناء المعابد على الطراز المِصري (ككشك تراجان) أو (سرير فرعون)، اللذان نُقِلا إلى جزيرة أجيليكا أيضاً.

معبد ساتت ومعبد كلابشة

ومن المعابد التي ترجع للعصر البلطمي في أسوان، (معبد ساتت) الواقع على جزيرة (الفنتين) جنوب مصر، والذي كانَ لعبادة آلهة الفيضانات، ومَحط تقديس الأُسَر الحاكِمة، أمَّا عن المعابد التي كانت مُكرَّسة للمعبود النوبي إله الشمس (ماندوليس)، فيُذكَر مَعبد (كلابشة)، وفيهِ تمثالُ المعبود ونُقوش قبطية ويونانية، ونُصوص للعديد مِن الأباطرة والملوك، بعضها يعود للأسرة 18 الفرعونية، وفي الجانب الجنوبي الغربي منه، غُرفةٌ صغيرةٌ تتموضعُ في الصَّخر، وأمامها ساحةٌ بأعمدةٍ غرانيتية، تُدعى هذه الغرفة بمقصورة الإله النوبي (ددون).

معبد حورس

وفي مدينة إدفو شمال أسوان، يوجد مَعبد حورس، ويُسمّى مَعبد إدفو أيضاً، والمبني من الحجر الرملي، كَرَّسهُ القُدماء للإله (حورس) المعروف باسم (أبولو)، تكسوهُ النقوش الهلنستية، التي تروي الصِّراع القديم بين (حورس) و(سيث)، ورموز المَعركة التي حدثت بينهما، كذلك يحوي حكايات الحب بين حتحور وحورس. وهكذا نرى أنَّ أسوان دائماً ما كانت وضَّاءة في طريق التقدُّم، خاصةً في القرن العاشر الميلادي، إذ عُثرَ على شواهد مكتوبة بالخطِّ الكوفي، يرجع تاريخها إلى أوائلِ القرن الهجري، فبَقيَت حتّى القرن العاشر الميلادي طريقاً إلى (عيزاب) على ساحلِ البحرِ الأحمر، حيث كانت تُبحر السُّفن إلى الحجاز واليمن والهند، وبذلكَ كُل ما بِها ينطقُ بلسانِ التراث والتاريخ.

وقد نظّمت هيئة الشارقة للآثار في السنوات السابقة، مُحاضرةً افتراضيةً ضِمن سلسلة المُحاضرات العلميّة الأسبوعية المُتخصِّصة، التي تُنظمها الهيئة في إطار نَشر الوعي بترميم وصيانة الآثار، وكانت بعنوان «إدارة التراث المادي والتوثيق والحفظ والإتاحة»، وقد تطرَّق فيها الدكتور رضوان عبد الراضي، مؤسس ومدير مركز حضارة وتراث أسوان بجامعة أسوان، إلى ضرورةِ حماية التراث، فهوَ جزءٌ مِن الحاضِر الذي نعيشُه، والمُستقبل الذي نسعى لبنائِه، مُشيراً إلى أنَّهُ مِن الواجبِ الوطنيّ والأخلاقيّ والإنساني العَمل على صون التراث، فهو هويّة الشُّعوب والأُمم، والمانِع مِن الذوبان في هويّة وشخصيّة الآخر.

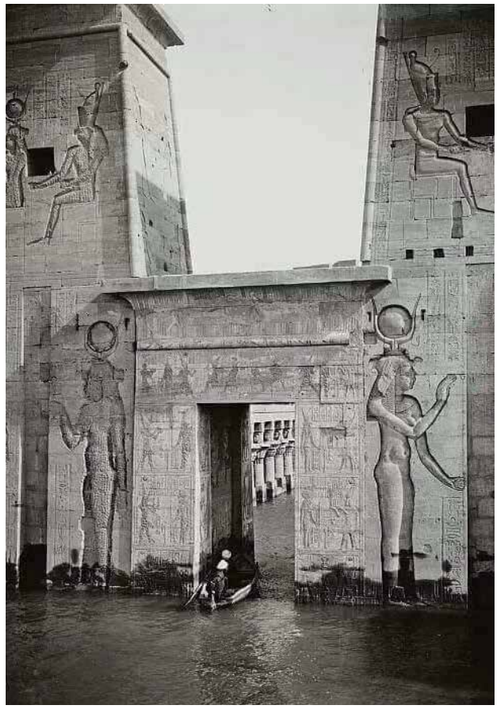

فنون الأداء العالمية..

تعابير متنوعة في «اليونسكو»

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

يعد الرقص، كنوع من الفنون الأدائية، واحداً من أهم وسائل التعبير التي كانت ومازالت تعبر بها الشعوب عن انفعالاتها وعاداتها، وتزخر منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) بالعشرات من فنون الرقص الشعبية ذات التاريخ، التي بقيت على ثباتها منذ سنوات، ومازالت تكافح لأجل بقائها، كونها إرثاً شعبياً لا يراد له الزوال.

لوحات فنية فخمة

يعدّ فن الرقص والدراما «خون» المسجل في 2018 على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية واحداً من أبرز عروض الأداء العالمية، الذي سجل لمصلحة تايلاند، فذلك الأداء المقنّع، هو فن أداء يجمع بين العناصر الموسيقية والصوتية والأدبية والراقصة والطقوسية والحرف اليدوية، تمثل عروض «خون» التي تتضمن حركات راقصة رشيقة، وعروضاً آلية وصوتية وأزياء براقة - مجد راما البطل، وتجسد الإله فيشنو، الذي يجلب النظام والعدالة إلى العالم، على حد اعتقادهم، وتمثل تلك الدراما الراقصة بذلك سلسلة أحداث مرتبطة بمعتقداتهم، فهو الفن الذي طورته المحاكم السيامية التايلاندية على مدى قرون ، بينما على مستوى آخر ، كأداء درامي ، يمكن تفسيره والاستمتاع به من قبل المتفرجين.

يعزز العرض الأدائي «خون» من قيم الاحترام لمن هم في سن ومكانة أعلى، والثقة المتبادلة بين القادة والأتباع، وشرف الحكام، وانتصار الخير على الشر. ولاستمرار ممارسة هذا الفن تبذل الجهود من خلال إنشاء نوادي التدريب والأداء التي تساعد في الوصول إلى الشباب، بالإضافة إلى الطرق التقليدية.

وفي سيتسدال، فإن العزف والرقص والغناء «ستيف - ستيفجينغ» التقليدي هو جزء لا يتجزأ من لوحة الطبيعة الخلابة هناك، سجل هذا الفن الأدائي المميز لمصلحة الرويج في 2019 على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، وهو جزء كذلك من السياق الاجتماعي هناك، ويعود للقرن الثامن عشر. تشتهر المنطقة هناك بالجبال الشامخة والأزياء الشعبية التقليدية، وممارسات البناء القديمة والحرف، أضيفت إليها تقاليد الموسيقى الشعبية والشعرية والأدائية التي يفخر بها أبناء المنطقة، ويقدم هذا الفن الشعبي أبياتاً شعرية تحكي قصة، يرافقها العزف والرقص من قبل زوجين من الراقصين أو مجموعة من الأزواج، وتؤدى بطريقة هادئة أو جامحة الإيقاع، يتم الرقص في دائرة في اتجاه عقارب الساعة، غالباً ما يتم أداء «ستيف» في الفترات الفاصلة بين الرقص والعزف، وتُغنى بشكل منفرد أو بوساطة مغنيين أو أكثر، في حوار مع بعضهما بعضاً يسمى «ستيفجينغ»، وتعزف الموسيقى على آلة «هاردانغر» الآلة الرويجية الوطنية، وقيثارة «الفم».

بساطة وتناغم

سجلت رقصة Kalela في 2019م على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية لمصلحة زامبيا، رقصة كاليلا نشأت خلال الحقبة الاستعمارية في مقاطعة لوابولا في زامبيا، وتم تبنيها من قبل عمال المناجم، واستخدامها للترفيه في قصر الرئيس خلال الاحتفالات التقليدية والجنازات واحتفالات الحصاد وغيرها من المناسبات المهمة.

رقصة كاليلا من الرقصات الجماعية التي يشكل الراقصون فيها خطوطاً من الراقصين يتحركون للأمام والخلف وهم يغنون ويرقصون على قرع الطبول، وهناك مغنٍ رئيسٍ، ويقوم الراقصون الرئيسون أيضاً بتوجيه التشكيل والرقص حول الطبول الموضوعة في المنتصف، وتتضمن الرقصة ذات الإيقاع السريع طبلان كبيران وطبلاً صغيراً يعزف عليه الرجال عادة. تنتقل المعارف والمهارات المتعلقة برقصة كاليلا في المقام الأول إلى الجمهور والأجيال الشابة، من خلال الغناء والرقص بالملاحظة والمشاركة أثناء العروض العامة، ومع ذلك، قد تنظم بعض المجموعات دروس رسمية بقيادة عازفي الطبول الخبراء لخلق موسيقيين جدد، وتتم الرقصة عادة في المناسبات العامة والخاصة والأحداث المحلية.

رقصة Xòe لشعب تاي في فيتنام، مسجلة في 2021 على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، وتتضمن العديد من الرموز التي تنتمي للحياة اليومية والثقافة والعمل، ففيها أوشحة وقبعات ومراوح وعصي وموسيقى وزهور، وكلها مخصصة لهذا الاحتفال الذي ينتمي للمناسبات الاجتماعية.

يشكل الراقصون دائرة ممسكين أيدي بعضهم في غالب الأداء، وتتضمن الرقصة رفع اليدين وفتحهما، وشبك اليدين، ويلتف الراقصون بخطى إيقاعية مع إمالة الصدر للأمام والخلف، وتعتبر بذلك من الرقصات ذات الإيقاع المعتدل والبسيط. وتعتبر الموسيقى جزءاً أساسياً من كل أداء فني راقص، وهو ما ينطبق على هذه الرقصة، فتستخدم الطبول والصنوج ومزامير القصب، وحتى مجوهرات النساء اللاتي يكتسين بها، فهي جزء من هذا التناغم الموسيقي الراقص، وتنتقل رقصة Xòe من جيل إلى جيل داخل العائلات وفرق الرقص والمدارس، وتعتبر اليوم رمزاً للضيافة وعلامة هوية مهمة لشعب تاي في شمال غرب فيتنام.

أداء خوارزمي

في أوزبكستان، تعود رقصة الخوارزم - لازجي، التي سجلت لمصلحة الدولة في 2019 على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، بجذورها إلى منطقة خوارزم، حيث عثر على لوحات رقص أثرية في موقع أثري يدعى Tuproqqala، وتعود بذلك الرقصة إلى قرون مضت، وتعبّر عن الحب والطبيعة والسعادة، وانتشرت بما تتسم به من إبداع في أرجاء أوزبكستان. وتعتبر رقصة لازجي من الرقصات الجماعية المتناغمة، فيتصرف جميع الموسيقيين والمغنين وفناني الرقص على وتيرة واحدة، وتخصص كلمات الأغاني بشكل أساسي لتمجيد الحب واللطف. ويوجد نوعان من الرقص: رقصة «المشهد»، والشكل التفسيري المرتجل. بينما تمثل رقصة المشهد هذه المشاعر من خلال حركات ملموسة، يركز تفسيرها على الارتجال، حيث تصبح حركات الإيقاع والرقص أكثر ديناميكية مع الإجراءات المتغيرة. لحن ورقصة لازجي جذابة للغاية، لدرجة أن المشاهدين يبدؤون الرقص طواعية. وهي بذلك تعتبر شكلاً أساسياً من أشكال التعبير عن الذات وتنتقل عبر الأجيال من خلال إنشاء نسخ جديدة من العروض، التي يتم تقديمها خلال الأعياد الوطنية والاحتفالات الشعبية في أشكال المناظر الطبيعية، وكذلك في شكل الترجمة الفورية اليومية خلال المناسبات المجتمعية والعائلية.

طائِر النّار(*)

شهرزاد العربي
كاتبة - الجزائر

كان لأحد الملوك في حديقة قصره شجرة تُفاح، ثمارها ذهبيّة، وكلما نضجت تلك الثمار جاء أحدهم ليلاً وسرق واحدة منها، الأمر الذي أزعج الملك وقضّ مضجعه، ولهذا طلب من أبنائه الثلاثة حراسة الشجرة ليلاً بالتناوب.

عندما حلّ الظلام بدأت حراسة أكبر أبناء الملك لشجرة التفاح، لكن النّعاس غلبه، فجاء السارق وأخذ ثمرة، ولهذا كلّف الملك ابنه الأوسط الحراسة في الليلة التالية، فحدث معه ما وقع مع أخيه الأكبر.

(*) مترجم بتصرف على النص الفرنسي: L,oiseau de feu A Glazunov

وجاء دور الابن الأصغر، الذي أصرّ على الإمساك بالسارق، وإن كان والده لم يثق بحماسته.

عندما جنّ الليل سمع صوتاً، ورأى في السماء على ضوء القمر طيْراً ريشه من ذهب، وفي لمح البصر انقض على الشجرة لأخذ تفاحة، لكن الأمير لم يمهله، ورماه بسهم أصاب جناحه، فوقعت منه ريشة ذهبية قبل أن يبتعد محلقاً في السماء.

أخذ الأمير الريشة لوالده، وأخبره عن السارق، فجمع الملك أهل المشورة، وسألهم عنها، فأجابوه:

ـ إن هذه الريشة بقيمة المملكة كلها.

رغب الملك في امتلاك الطائر الذهبي، فأمر أبناءه الثلاثة بالبحث عنه، فانطلق كل منهم في طريقه.

سار أصغر الأمراء، ويدعى إيفان، أياماً عدة حتى أبصر أمامه صخرة في مفترق الطرق، كُتب عليها:

ـ من يسلك الطريق الذي أمامه فسوف يجوع ويبرد، وإذا سلك الطريق الذي عن يمينه فسيسلم، لكن حصانه سيموت، وإذا سلك الطريق الذي على شماله فسيموت، وينجو حصانه.

قرّر إيفان سلوك الطريق الذي على يمنيه، وسار بعد ذلك ثلاثة أيّام، حتى دخل غابة كثيفة الأشجار مظلمة، وفجأة ظهر أمامه ذئب كبير، انقضّ على الحصان فافترسه، ثم مضى.

أصبح إيفان من غير جواد، ومشى أياماً عدة حتى أنهكه التعب والجوع والبرد، ليسقط أرضاً من شدة ضعفه وتعبه، وكاد يستسلم حتى سمع صوتاً يقول له:

ـ ها أنت ذا يا إيفان لا حول ولا قوة لك.

ففتح عيْنيه، فرأى الذئب أمامه، فردّ متسائلاً:

ـ وكيف لي أن أفعل من دون حصان؟!

قال الذئب:

ـ أنت من اختار هذا الطريق، لكني مشفق عليك، وسأساعدك، قل لي إلى أين ستذهب؟ وماذا تريد؟

أخبر إيفان الذئب عن مقصده، فردّ الأخير:

ـ ما كنت لتبلغ الطائر الذهبي على ظهر جواد.. اصعد على ظهري، وسأوصلك إلى حيث يعيش.

وفي لمح البصر أوصل الذئب إيفان إلى قصر محاط بسور أبيض، وقال له:

ـ تسلّق هذا الحائط، وستجد الطائر الذهبي نائماً في قفص ذهبي، فخذه دون المساس بالقفص.

فعل إيفان ما طلب منه الذئب، لكنه رأى أن طائراً بهذا الجمال يجب أن يكون داخل قفص ذهبي؛ لذا حمل القفص معه، رغم تحذير الذئب، فقرعت الأجراس منبّهة الحراس، الذين التفوا حوله، وقبضوا عليه، وجاؤوا به إلى القيصر «عفرون»، الذي سأله:

ـ من تكون؟

أخبره إيفان، قائلاً:

ـ إن هذا الطائر كان يسرق التفاح من حديقة والدي؛ لذلك أمرني بإحضاره.

قال له القيصر عفرون:

ـ إذا حقّقت لي طلبي فسأعطيك الطائر الذهبي.

سأله إيفان:

ـ وما طلبك؟

ردّ عليه القيصر:

ـ عليك أن تقطع تسعاً وعشرين مملكة، ومن المملكة الثلاثين ـ مملكة القيصر «كوسمان» ـ تحضر إليّ حصانه ذا السبيب الذهبي.

ما كان من إيفان سوى اللجوء إلى الذئب، وإخباره بأمر القيصر عفرون، لحظتها كان الذئب غاضباً من سلوك إيفان، ورغم ذلك سامحه، وأراد مساعدته للحصول على الحصان ذي السبيب الذهبي.

صعد إيفان على ظهر الذئب، الذي اجتاز الجبال والوديان، وهو يطوي الأرض طيّاً، وذيله يمسح الآثار، وفي فترة وجيزة وصل إلى مملكة القيصر كوسمان، عندها خاطب الذئب إيفان قائلاً:

ـ اسمع، إن الجميع نيام، وبإمكانك الدخول إلى الإسطبل، وأخذ الحصان ذي السبيب الذهبي، لكن لا تلمس لجامه، وإلا ستواجه مشكلات كثيرة.

دخل إيفان إلى الإسطبل، وأمسك الحصان من سبيبه، وحين همّ بالخروج وقعت عيناه على اللجام، فقال في نفسه: كيف أقود الحصان دون لجام، ثم إن هذا اللجام غاية في الجمال والروعة، لابدّ من أخذه، وعندما لمسه انطلقت الأجراس تنبئ بالدخيل.

جاء الحراس، وألقوا القبض على إيفان، وجرّوه إلى القيصر كوسمان، الذي سأله عن هويته، وماذا يريد، فأخبره بالأمر، فقال له كوسمان:

ـ الحصان لك إذا ما أحضرت لي الأميرة «هيلان» الجميلة ابنة القيصر «دالمان».

شعر إيفان بالخجل والخيبة، وذهب إلى الذئب، وشكا له ما كان من أمر القيصر كوسمان.

لامهُ الذئب على فعلته، لكنه لم يجد بدّاً سوى مساعدته؛ لذا قال له:

ـ اصعد على ظهري، وتشبّث به جيّداً، وسوف نذهب إلى مملكة القيصر دالمان.

نفذ إيفان ما أمر به الذئب، وبعد مدة أصبح الاثنان يقفان خلف سور قصر القيصر دالمان، وعند حديقة أسوارها من الذهب، قال الذئب لإيفان:

ـ هذه المرة، أنا من سيذهب لإحضار الأميرة، وأنت اذهب وانتظر في الغابة تحت شجرة البلّوط.

قفز الذئب على السور، واختفى داخل الشجيرات، وفي المساء خرجت الأميرة هيلان مع وصيفاتها للتّنزّه، وفي الوقت الذي انحنت فيه لقطف زهرة مسائية جميلة، هجم عليها الذئب، وبحركة رشيقة وضعها على كتفه، وانطلق يجري، وعند شجرة البلوط وجد إيفان ينتظره، فقال له:

ـ اصعد بسرعة، ستلاحقنا جيوش القيصر.

صعد إيفان على ظهر الذئب، وأمسك بيديه الأميرة هيلان، وانطلق الذئب يعدو، وما كاد أهل القصر يدركون ما حدث، وينظمون مجموعة للبحث عن الأميرة حتى صار الذئب بعيداً.

أغمي على الأميرة هيلان من شدة الخوف، وعندما أفاقت وجدت نفسها بين يدي أمير وسيم، وما إن التقت عيونهما حتى أحبّ كلّ منهما الآخر.

حين اقترب الذئب وإيفان من قصر كوسمان لتسليمه الأميرة الجميلة هيلان، فاضت عينا إيفان بدموع حارة، فسأله الذئب عن سبب بكائه، فقال له:

ـ أيها الذئب، إنني أحببت هيلان من كل قلبي، فكيف أسلمها للقيصر كوسمان؟!

نظر الذئب إليهما، وشعر بالشفقة عليها، وقال له:

ـ لقد وعدتك بأن أكون مخلصاً لك، ولهذا سأتحول إلى الأميرة هيلان، وتسلمني إلى كوسمان، والأميرة ستنتظرك في الغابة، وبمجرّد أن يسلمك كوسمان الحصان ذا السبيب الذهبي، تأتي لأخذها من هنا، وانطلقا، وسألتقي بكما فيما بعد.

بعد أن سلّم إيفان الأميرة المزيفة لكوسمان، تسلم الحصان مع لجامه الجميل، وانطلق إلى حيث توجد حبيبته هيلان، أما كوسمان، فقد أعلن إقامة حفل زواجه من الأميرة هيلان، لكنه فوجئ بتحولها إلى ذئب قفز من النافذة، ثم اختفى.

وبسرعة أدرك الذئب إيفان وهو على الحصان، فقال له:

ـ اترك الحصان للأميرة هيلان، واصعد على ظهري.

عندما وصلا إلى القيصر عفرون، بدا إيفان حزيناً، فسأله الذئب:

ـ ماذا حلّ بك؟

أجابه إيفان:

ـ يعزُّ عليّ استبدال هذا الحصان بطائر النار، وإذا لم أفعل فسيوبخني والدي أمام الجميع.

قال له الذئب:

ـ لا تقلق، سأساعدك هذه المرة أيضاً، وسأتحول إلى حصان ذي سبيب ذهبي.

وهكذا أخذ إيفان الحصان المزيف إلى القيصر عفرون، الذي فرح به، وأعطاه «طائر النار» وقفصه أيضاً، وما إن تمّت الصفقة حتى انطلق إيفان إلى حيث ترك هيلان مع الحصان ذي السبيب الذهبي.

خرج القيصر عفرون إلى رحلة صيد على ظهر الحصان مع كل حاشيته وأصدقائه.

داخل الغابة، كان الحصان يعدو بقوة للكشف عن مخابئ الحيوانات، لكن في اللحظة المناسبة ألقى راكبه عن ظهره، وعاد إلى سيرته الأولى، وانطلق إلى حيث يوجد إيفان وهيلان الجميلة.

وهنا ودعهما الذئب، وذهب إلى حال سبيله، أما إيفان، فقد عاد ومعه هيلان، وطائر النار، والحصان.

مهرجان تشينغ مينغ

الكاتبة: أريام شيوى روي
المترجمة: ابتهاج ماو يوى شين
المراجع: جمال بن علي آل سرحان

نشأ مهرجان تشينغ مينغ من معتقدات الأسلاف وعادات تقديم القرابين في العصور القديمة، وهو أحد أكثر المهرجانات التقليدية الرسمية شهرة للأمة الصينية، ويعد ناقلاً مهماً لورثة المعتقدات والأخلاق العائلية، ووسيلة مهمة لشكر الأجداد والأسلاف والاقتراب من الناس.

يعد كنس القبور لعبادة الأسلاف وتذكر الأجداد أحد المحتويات المهمة لمهرجان تشينغ مينغ، وهو تقليد رائع للأمة الصينية، تم تناقله منذ العصور القديمة، وما زال مستمراً حتى يومنا هذا. تقديم القرابين للأسلاف هو وسيلة لتذكر الأجداد، وعادة لها تاريخ طويل، وقد أصبحت موضوعاً ثابتاً في آداب التعامل من خلال ميراث الأجيال، والذي يجسد تماماً الروح الإنسانية للأمة الصينية في احترام الأجداد، إنه لا يفضي إلى تعزيز تقوي الأبناء والروابط الأسرية، وإيقاظ الذاكرة المشتركة للأسرة فحسب، بل يمكنه تعزيز التماسك والهوية بين أفراد الأسرة وحتى الأمة. في كل مهرجان تشينغ مينغ، وبغض النظر عن

مكان وجود الناس، يجب أن يعودوا إلى مسقط رأسهم للمشاركة في أنشطة عبادة الأجداد، وتذكر أسلافهم.

منذ العصور القديمة، كان لدى الأمة الصينية عادة التنزه في تشينغ مينغ. وكان يطلق على «استكشاف الربيع»، و«البحث عن الربيع» أيضاً (نبع الربيع المتدرج)، الذي يشير عموماً إلى التنزه واللعب في الريف في أوائل الربيع، وهو نزهة في الربيع. تعد نزهة الربيع نشاطاً شعبياً، ولها تاريخ طويل في الصين، مصدرها تقليد استقبال عيد الربيع لتقديم القرابين الزراعية في العصور القديمة، ولهذه العادة تأثير عميق في الأجيال اللاحقة. في مهرجان تشينغ مينغ، يعود الربيع إلى الأرض وتقدم الطبيعة مشهداً نابضاً بالحياة في كل مكان، الأمر الذي يجعله وقتاً رائعاً للتنزه. أثناء كنس القبور، كان الصينيون يقضون وقتاً ممتعاً مع عائلاتهم في الجبال والريف.

يعد إطلاق الطائرات الورقية أيضاً نشاطاً مفضلاً خلال مهرجان تشينغ مينغ. نشأت الطائرات الورقية المعروفة باسم «الطيور الورقية» في الصين، وهي أداة اتصال اخترعها العمال القدامى، وتطورت فيما بعد إلى ألعاب. خلال مهرجان تشينغ مينغ، لا يطلقها الناس فقط أثناء النهار،

ولكن أيضاً في الليل. إذ يتم تعليق سلاسل من الفوانيس الملونة على خيوط الطائرات الورقية، ما يجعلها تشبه النجوم المتلألئة والمعروفة باسم «المصابيح السحرية».

وكان بعض الناس يقطعون الخيوط بعد تحليق الطائرات الورقية في السماء الزرقاء، ويتركون الريح ترسلها إلى أقاصي الأرض، ويقال إن هذا يمكن أن يقضي على الأمراض، ويجلب الحظ السعيد لأنفسهم.

في 20 مايو عام 2006م، وافق مجلس الدولة على مهرجان تشينغ مينغ، الذي أعلنته وزارة الثقافة بجمهورية الصين الشعبية، ليتم إدراجه في الدفعة الأولى من قائمة التراث الثقافي الوطني غير المادي. بالإضافة إلى الصين، هناك بعض البلدان والمناطق في العالم التي تحتفل أيضاً بمهرجان تشينغ مينغ، مثل فيتنام وكوريا الجنوبية وماليزيا وسنغافورة وغيرها.

يوم مهرجان تشينغ مينغ هو يوم يعبر فيه الأحياء عن مشاعرهم، ويثقون بقلوبهم للموتى، وهو أيضاً فرصة مهمة لإلهام الأحياء للاعتزاز والاستمتاع بالحياة. لقد أعطت آلاف السنين من التراكم الثقافي لمهرجان تشينغ مينغ معنى خاصاً لكل شخص على قيد الحياة.

د. منّي بونعامة
مدير التحرير

مصطلح التراث (1)

ما التراث؟ سؤال قد يبدو للوهلة الأولى بسيطاً أو سطحياً أو سهل المنال، لكنه في جوهره عميق، ويحتاج من الدارس إلى أن يغوص في أعماق المفهوم؛ ليستخرج منه المضمون؛ ذلك أن مصطلح التراث من أكثر المصطلحات تداولاً، ولا يخلو منه درس أو بحث، بيد أن تداوله ليس بالسوية نفسها، فثمة استعمالات مختلفة، ومعان متعددة يذهب إليها الدارسون، بحسب نظرتهم ورؤيتهم للتراث وأنواعه وعناصره ومكوناته.

لذلك، تعتبر مفردة التراث من أكثر المفردات وضوحاً والتباساً في الآن نفسه، بحسب التوظيف والاستخدام أو الاستعمال، وإذا عدنا إلى المعاجم اللغوية نجد أن كلمة تراث مصدر من كلمة ورث، وهو ما يخلّفه الرجل لورثته، ويقال ورث وورثٌ وإرثٌ ووراثٌ وإراثٌ وميراثٌ بمعنى واحد، وأصل التاء في الكلمة واو، فأبدلت التاء من الواو. ويقال ورث العلم والصلاح ونحوهما: أي أدركه ونالـه واستقر له، وفي القرآن الكريم: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ}.

والميراثُ أصله «موراثٌ»؛ انقلبت الواو ياءً؛ لكسر ما قبلها كما قال الجوهريّ (ت393هـ)، وفي القرآن الكريم: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا}.

وعليه، فإن التراث هو امتداد السلف في الخلف، واستمرار مآثر الآباء والأجداد في الأبناء والأحفاد، الأمر الذي يؤكد أن الماضي يمكن أن ينداح في دوائر الحاضر والمستقبل، بل يذهب المستشرق الفرنسي جاك بيرك إلى ما هو أبعد من ذلك، حينما يعتبر التراث هو الماضي يحاور الحاضر عن المستقبل.

ولعل أقدم نص عربي وردت فيه كلمة تراث بصورة واضحة ومؤكدة تساعدنا على رسم أبعاد هذا المصطلح هو معلقة عمرو بن كلثوم التي يقول فيها:

وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بنَ سَيْفٍ
أَبَاحَ لَنَا حُصُوْنَ المَجْدِ دِيْنَا
وَرِثْتُ مُهَلْهِلاً وَالخَيْرَ مِنْهُ
زُهَيْراً نِعْمَ ذُخْرُ الذَّاخِرِيْنَا
وَعَتَّاباً وَكُلْثُوْماً جَمِيْعاً
بِهِمْ نِلْنَا تُرَاثَ الأَكْرَمِيْنَا

تحيل هذه الأبيات إلى معانٍ شديدة الارتباط بمآثر الآباء والأجداد من صفات، كالقوة والشجاعة والبطولة التي أهّلتهم لأن يكونوا من علية القوم.

issue of cultural specificity, overlapping identities, and other problematic issues that are regenerated periodically. This makes researching, thinking about, and discussing this topic indispensable to understand the process of successive events and developments, and to find logical and cognitive perceptions about the relationship between heritage and the modernity in the midst of current data and changes that cast a heavy shadow on our contemporary life and the intellect of the current generation.

This is what we seek to present to our readers in this issue of «Marawed» magazine to understand the current relationship between heritage and the modernity, as both are inseparable pair. We are also trying to clarify the aspects of connection and separation through a set of approaches concerning this issue.

The issue contains an interesting tour of the Emirati heritage through a number of rich and varied matters on the customs, traditions and authentic Emirati «Sanea» (traditional etiquette), in addition to topics on Nabati poetry, folklore, heritage monuments, proverbs, aphorisms and others.

It also reviews discreet approaches that focus on the Arab and world heritage, and highlights the aspects of communication and similarities between the human heritage, which we always emphasize that it is what brings us together, regardless of our different paths and directions.

Heritage & Modernity... Communication and Separation

Heritage and modernity are a problematic matter that is characterized by currentness and regeneration, given its strong connection to cultural variables and technological developments. It is also affected by the data produced by the globalization that raised many questions about the future of knowledge and the world, and about the